

الْقَلْبُ

وَوَظَائِفُهُ

فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ

تَأَلَّفَ

سَيِّدُ الْمَنَانِ زَيْدُ سَيِّدِ الْمَنَانِ الْيَمَانِيُّ

مَدَارِ الْفَيْدِ

لِلنَّشْرِ وَالطَّبَاعَةِ

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م

دار ابن القيم

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الدمام
ص. ب. ١٨٦٥ - الدمام الرمز البريدي ٣١٩٨٢
هاتف: ٨٢٦٨٢٤٣ - فاكس: ٨٢٦٩٨٦٤

القلب
رشيح
ووظائفه
في الكتاب والسنة

تأليف
سيامان زيد سيامان اليماني

دار ابن القيم
للنشر والتوزيع


بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا

إهداء

... إلى كل من علّمني حرفاً وأنار لي طريق الهدى بعد
الله ؛ والدي ، وشيوعي ، وأساتذتي .
... إلى من ساندتني في طريق الحياة تهيئةً وصبراً
وتضحية ؛ زوجتي الطاهرة .
... إلى المتعطر للحقيقة والمتلهف للمعرفة ؛ طالب علم
أو مثقف .
سائلاً الله أن ينفع به الجميع .

سلمان زيد سلمان اليماني


سلمان زيد سلمان اليماني
١٤١٠/١١/١١

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي كتب الإيمان وزينه في قلوب أوليائه ، وجعل فيها الرأفة والرحمة على عباده ، المطلع على تقلب قلوبهم ، والعليم باختلاف أحوالهم ، الممتحن للقلوب بالتقوى ، المطهر لها من الشرك وأدرانها . أحمدته - جلّت عظمته - كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه ، وأشكره على عظيم رحمته وسعة أفضاله ، وأستعين به وأتوكل عليه ، والتوكل من نعمائه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله ، وخيرته من خلقه ، شرح له صدره ، ووضع عنه وزره ، ورفع له ذكره .

«اللَّهُمَّ رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون . اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»^(١) .

(١) صحيح مسلم : الإمام مسلم القشيري : ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي ، كتاب صلاة المسافرين ، باب ٢٦ (١/٥٣٤) .

أما بعد :

فإن من أشرف مخلوقات الله تعالى وأعجبها : هو ما لم يظهر للحس بل هو من عالم الغيب ، وإن كان قائماً بمحل محسوس وجسد ملموس ؛ ألا وهي الروح والنفس واللب والفؤاد والقلب ، مضافاً إليها العقل اتصالاً لا استقلالاً . هذه الأنوار الإلهية التي تشرق على عالم الحس فتعطيه المدد النفيس ، وتمنح الإنسان غذاءه وضيائه الذي به يفرق بين الحقائق والأباطيل وبين الثوابت والأوهام ، إنما يتلقاها أول ما يتلقاها في النفس الإنسانية القلب . ولما كان الإنسان مغرماً بمعرفة ما يجهل ، وخاصة علوم ما وراء المادة ، وطرق الكثير من العلماء أبوابها ، إما عن طريق الشمول ، أو عن طريق تحليل جزئية في إطار النظريات الفلسفية ؛ سواء كانت فلسفة قديمة متمثلة في الفلسفة اليونانية والبوذية ، أو كانت فلسفة حديثة ومعاصرة ، أو حتى فيما يسمى بالفلسفة الإسلامية .

ولا أعلم بالتحديد متى بدأ شغفي بالبحث عن غير المنظور ، فمن الصغر كنا نسمع عن الجن والملائكة ، ثم ارتقيت سناً ، وارتقت الأفكار إلى العقل والروح والنفس والفؤاد واللب والقلب وغيره .

أمور يتحير فيها الإنسان ولا يجد لها جواباً . إن سأل أباه قال له قولاً غير شافٍ ، وإن سأل معلمه أحاله إلى كتب كثيرة ، وإن عاد إلى الكتب فسيقع في متاهات ومعان فلسفية يخرج منها كما دخل .

ولما سهّل الله لي دراسة الماجستير ؛ تقابلت بقدرة الله مع سعادة الدكتور فاروق الدسوقي ، في منزل أحد الأفاضل ، وتحدثت معه في هذه الأمور ، وعرضت عليه فكرة الدراسة التكميلية للماجستير بعنوان : النفس والقلب والعقل ، فوضّح لي المتاهات

التي ساقع فيها بسبب تشعب الموضوع .

فكل بحث من هذه المسائل ؛ هو قضية اختصم فيها الناس ،
وجادلوا فيها وجاءوا على ذلك بما عندهم من حجة وما لديهم من
دليل ، دون أن يجتمعوا فيها على رأي إلا ما ندر ، فالموضوعات
الغيبية متعددة ، وللناس فيها مشارب ، فكل يدلي بقدر معرفته
وبمقدار ما حباه الله من تعقل ، وفضل لي أن أبحث إحداها . وفي
أي أبحث ؟ الروح ؟ .

فإذا بالحق يخاطب عباده ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ
الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء ؛ الآية : ٨٥] .

العقل ؟ .

تطرق له علماء الصوفية كالحارث المحاسبي^(١) ، والحكيم
الترمذي^(٢) .

القلب ؟ .

هذا هو الباب الذي لم يفتح كما ينبغي .

اختلط بالنفس ، أمراض النفوس هي أمراض القلوب في كثير
من البحوث ، والعكس أيضاً صحيح لديهم .

العقل هو القلب أو كلاهما مغاير للآخر ؟ تجد الموافق وتجد
المخالف . هل القلب المعنوي هو نفسه المضخة الموجودة في

(١) الحارث بن أسد المحاسبي ، باحث صوفي ، توفي عام ٢٤٣ هـ ،
الأعلام ١٥٣/٢ .

(٢) محمد بن علي بن الحسن بن بشر : الحكيم الترمذي ، باحث صوفي ،
ت ٣٢٠ هـ ، الأعلام ٢٧٢/٦ .

باطن القفص الصدري من الإنسان ؟ .
نجد الإجابات متعددة ، نعم ، ولا ، والثالث يلقي على
المجاز كل لفظة وردت عن القلب .
من المسؤول : القلب أم العقل ؟ .
من الذي يبصر ؟ .
أين مقر الإيمان ؟ وأين مقر النفاق ؟ .
كيف يعمى القلب ؟ وكيف يطبع عليه ؟ .
أمور متعددة الجوانب ؛ تجعل الموضوع ذا أهمية لحياة
الإنسان ، الذي كرمه خالقه الكريم في أعلا صور التكريم ،
﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [التين ؛ الآية : ٤] وهبه سر المعرفة
بما يميزه عن المخلوقات من علم وفهم .
وهبه الإرادة المستقلة من تميز وإدراك ، ليتم رسالته على هذه
الأرض ، فيعمرها عن طريق الإيمان بالله وما يوجبه من العمل
الصالح .
الإنسان الذي يريد الرقي في شعب الإيمان ؛ لا يتم له ذلك
إلا برقي قلبه في مراحل حياته .
والإنسان الحائر لا يعود إلى الجادة إلا إذا رجع قلبه ، ولا
يسير في درب الهداية إلا إذا غمره الإيمان .
وجلّت في الكتب ، وهي أليفي وسميري ، فشعرت بالتيه بين
ثناياها ، فعدت إلى المنبع كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ؛ ألتمس
منهما النور الذي ينير لي الطريق .
وطلبت موجهاً من الجامعة يوجهني في عمل الخطة ، ويشاء

الله أن يكون الموجه هو الدكتور فاروق الدسوقي ، واستبشرت خيراً .

وتقدمت بالخطبة ، وإذا بالموجّه يصبح مشرفاً من غير حول مني ولا قوة .

ولا أزكي على الله أحداً ، منحني الجم من علمه والكثير من وقته ، وأحببت بحثي ، والمحّب يضحى بالغالي والنفيس ، فكثيراً ما كنت أسمع آذان الفجر مثل ما سمعت نداء العشاء وخاصة ليالي الإجازات .

جمعت من القرآن الكريم كل آية تمس القلب ، فهو رفيقي من النشأة فلا يصعب تكراره ، وعدت إليه ثانياً وثالثاً ، ويشهد الله على ذلك حتى اطمأنت إلى ما جمعت ، وعدت إلى السنة النبوية فقرأت الصحيحين بالتفصيل ، وما عداهما رجوعاً إلى المعاجم والفهارس ، واستخرجت ما من الله به علي ، فهي بحر ذو شعب .

وبين المفسرين وشراح الحديث وعلماء اللغة والأصول ؛ مجال واسع ومتاهات للباحث ، وكلما تحيرت صليت ودعوت .

وطرق السابقون للقلب إجمالاً ، وصدر تفصيل من بعضهم ، كأبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي في كتابه : «بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب» وعلى صغر حجم الكتاب بعد تحقيقه ، فقد ذكر فيه رحمه الله الفوارق ، ويين أن كلاً منها مغاير للآخر ، مختص بصفات تميزه عن غيره ، وقد أفادني كثيراً في بحثي .

كما وأن الإمام شمس الدين ابن قيم الجوزية في كتابه : «إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان» قد تطرق إلى أمراض القلوب ،

أو بالأصح أثر الذنوب على القلب ، وعلامات ذلك وعلاجه .

ومن ذلك أيضاً الإمام أبو حامد الغزالي ، شرح عجائب القلب في : «إحياء علوم الدين» ، وفرّق بينه وبين النفس ، وركّز على آفاته وما يمرضه أو يميته . وإن كان أخذ بكلام المتكلمين والفلاسفة واتجه إلى طريق التصوف .

ومن المعاصرين ؛ طرق هذا الباب الدكتور محمد علي الجوزوفي كتابه : «مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة» ، وكان للعقل النصيب الأوفى في كتابه ، واحتل القلب نصيب من بحثه ، فقد أجمل مراحل حياة القلب في بصيرته ، كما أجمل مراحل المرض والموت في صفات المنافقين ، فلم ينل القلب من بحثه من العناية والتوسع ما أعطاه للعقل من كتابه . ولكن المعرفة موزعة بين البشر ليعم الخير الجميع ، وقد يصل إلى بعض الحقيقة متأخر قام على لبنة الأوائل ، ولا حلاوة للبحث إلا بهذا ، وما استمرار الحياة إلا بماضيها .

وحاولت جمع ما فرّقه السابقون ، وتوضيح ما أبهم ، وتفصيل ما أجمل ، وإن ورد جديد ففتح من الله ، فالقرآن ينبوع يروي وارده ، والسنة صنوله ، والكل شفاء ، ورد بأفصح عبارة على أصدق أمة ، وأنوار الوحي تلج القلب المستأنس به .

وقسمت بحثي بين أبواب وفصول ومباحث ، وحوى الباب الأول وعنوانه : القلب والألفاظ المقاربة له ؛ معاني القلب وإطلاقاته ، وتحديد تعريف له يزيل اللبس ويوضح المراد من هذه اللطيفة الربانية ، ووردت ألفاظ مرادفة له فما الفرق بين هذه المترادفات ، وأي الروابط تحويها ، وما هي صفاتها المتفككة مع القلب والمستقلة بذاتها ؛ كالقوادة واللب والعقل والصدر والروع

وبدأ الباب الثاني الذي عنوانه : مراحل حياة القلوب ؛ سيراً مع الفطرة في نموها أو انحدارها ، ومع أنوار لا إله إلا الله زيادة ترتقي ، ونقصاناً أو انعداماً يكون للشيطان مدخل إليها ، مع تبين الفارق بين الإسلام والإيمان ومقر كل منهما ، واستطرد في تدرج رقي القلب في درجات الإحسان ، من بداية القلب السليم حتى الغين عليه ، مروراً بالخشوع ثم التقوى ، فالخبت والإنابة ، ثم السكينة ، من بداية الطمأنينة حتى أعلى رقيها .

وحوى الباب الثالث وعنوانه : القلب المريض ؛ نقيض الصحة والمانع من إتمام الوظيفة المرادة من القلب ، وكلها رذائل خلقية تمنع زيادة النور فيه ، من النكته السوداء حتى انتكاسه ، وكلها تدور في دائرة الأثام سواء كان صغواً أو زيغاً ، وكل إثم ينقل إلى درك أدنى غلظة كان أو قسوة عن تكبر أو نفاق سلوك . وفي مبحث النفاق تم التفريق بين السلوك والعقيدة ، وأيها المؤثر في زيادة المرض ، وكذلك الكفر الذي لا يخرج عن الملة الدائر في دائرة السلوك الجاهلي ؛ كالطعن في النسب والنياحة على الميت وغير ذلك ؛ كما أوضحه رسول الله ﷺ في سننه ، والسبب عائد إلى أثر الذنوب على القلب .

وفي مراحل موت القلب وهو الباب الرابع ؛ تحدثت عن نفي الحياة عن القلب مع سلامة البنية ؛ سواء كان نفي نمو أو حاسة أو عقل ، بتدرج مؤدي إلى نقض الحياة عنه مطلقاً في ختام الختم عليه دائر بين الضلال والكفر على أوسع المهاوي والدركات . وأوضحت حكمة عدم تصريح القرآن بموت القلب مع تعدد معانيه وأنواعه ، إذ تبدأ المراحل من لهوه واستهزائه الذي يغمره ، فينكر

الحق إنكار جهل فاشمئزاز ثم كنّ وريب إلى أن يتم التقطيع ،
فيتغلف بركام الذنوب ويشربها فيصرف عن الحق بعد سلوك الكفر
فيه ، فيحال بينه وبين الإيمان إذا أصابه طمس الإدراك التام النابع
عن الغواية واللجاجة في الباطل ، فينتهي به إلى الران فالطبع ثم
الختم الذي تترتب عليه الغفلة فلم يعد متسع للهداية .

ثم تتطرق لأعراض القلوب التي قد تجتمع في قلب واحد ،
أو تظهر أعراضاً يشترك فيها المعنوي والحسي من رعب وجزع
وخوف مع ذكر الفوارق بينها ، ومن التشابه والقسوة والوجوف والحمية
والوهن وما شاكل ذلك من أعراض يقذفها أو يجعلها الله في
القلوب .

ومسك الختام الباب الأخير : القلب والمعرفة تحدثت عن
معرفة القلب وتحديد التعقل وأهميته ، لتقوم به الحجة على من
جحد ، مع توضيح الفارق بينه وبين الفهم ، ومراتب الناس في
التعقل ، وتدرج المعرفة المحصلة إلى المنهج الصحيح المقتضي
لمدلول لا إله إلا الله ، المرتقي في مراتب الإيمان عن طريق تعقل
القلب بزيادة القصد من أبواب الخير والهدى وأسباب السعادة
والنجاة ، مع ذكر شروط كمال المعرفة في العلم والعمل .

ثم تتبعت أقسام المعرفة المباشرة للقلب ؛ ابتداء من الرؤيا
والخاطر والإلهام فالتحديث والفراسة والوحي ، مع توضيح بقدر
المستطاع لكل منها .

وكلها معاناة متعددة ذات مراحل متغايرة . ومن مراحل المعاناة
ما كان بين المكتبات ، والمراجع قد تجمع العشرة ومطلوبك في
إحداها أو في غيرها فتعود كما بدأت ، وإذ بك في ثنايا الفكرة
وينتهي دوام المكتبة وما حصلت شيئاً ، وباطلاعتك تستجليك وجُودُ

مكتبات مدن أخر تقرب أو تبعد عن مدينتك ، وحبك لمزيد المعرفة
فتح من الله لك ، وَجُودُ اللَّهِ لَا يَحُدُ ، وإذا بالموضوع يتسع فكل نقطة
تكون جدولاً ومجموعها يم ، ولا بد من جمع المعلومات والإيجاز
بغير إخلال ، وسرت على منهج موضح في التصدير ، والفضل بعد
الله لمشرفي ، والنفس تطمع في المزيد ، والوقت ليس ملكي إنما
أنا مطالب ومتابع ، فإن وفقت فمن الله وذاك مطلبي ، وإن أخطأت
فهذا قصار جهدي فقد أبى الله أن يتم إلا كتابه ، داعياً الله بدعاء
كليمه عليه الصلاة والسلام ﴿ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي *
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّنْ لِّسَانِي ﴾ * يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ [طه ؛ آية : ٢٥ ، ٢٨] .

سلمان زيد سلمان اليماني

غرة العام الهجري / ١٤١٠ هـ

التصدير

تصدير

منهج البحث :

ينبغي لمن أراد بحث علم أن يعود إلى مبدأ ذلك العلم ، وكذلك من أراد البحث في كتاب الله أن يعود إلى لغة القرآن يستنبثها في يسر وسهولة عن معنى اللفظ المراد بحثه ، فالقرآن الكريم هو أساس الإسلام وينبوعه الأول ، وإذا كان القرآن المجيد كتاب عقيدة تخرج منها شريعة يقوم عليها نظام الحياة ، فإنه في الوقت نفسه كتاب اللغة الأول كما قال تعالى : ﴿ كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يُرَدُّ بِالشَّرْهِ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لِقَابٍ ذَلِيلٍ وَمُنْجِيٍّ لَهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا بِاللُّغَةِ الْأُولَىٰ أَنْ اقْبَلْ إِلَيْنَا الْكُتُبَ وَاتَّبِعْ أَمْرَنَا وَلَا خِشْيَةَ مِنَ الْعَذَابِ ﴾ [فصلت، آية : ٣] فهذا القرآن نزل بلسان عربي مبين .

ومن ناحية أخرى كتاب الله شفاء لما في الصدور ﴿ قَدْ جَاءَ تَكْوِينُ مَوْعِظَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [يونس؛ آية : ٥٧] ولا يمكن أن نستنبط منه طرق الشفاء والوقاية لما في الصدور إلا بإرجاع اللفظ إلى أصله العربي . وقد تعرض كتاب الله تعالى في كثير من آياته لما يحيي قلوب المؤمنين ويشفي صدورهم ، وعالج القلب مما يعلق

به، كما عالج النفس مما يشينها ، حتى يكون المسلم صالحاً لتلقي أوامر الله التي تجعله يسيطر بروحه على بدنه، ويسمو بنفسه فوق حسه، ويحسن الوفاق بين قلبه ولبه ، فإذا هو سليم القلب ، لديه من نور البصيرة ما يجعله موطن الرحمة الربانية في دنياه والنعمة الباقية في أخراه ، إذ لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله بقلب سليم .

وليس القرآن هو المصدر الوحيد لدين الله ، ذلك أن الله عز وجل أوحى إلى نبيه الكريم بوحى آخر غير القرآن ، هو السنة النبوية الشريفة ؛ فهي كالقرآن سواء بسواء من حيث الأصل ، فهما مصدرا الإسلام لا يختلف في ذلك مؤمنان .

ويقدم لنا القرآن الحقائق الكونية والأحكام ، سواء كانت خلقية أو عملية . وكذلك السنة فهي مبيّنة لهذه الأحكام ، والباحث في نصوص الوحي بحاجة إلى أسس يتبعها ليخرج بعد البحث بمعنى حقيقي متكامل وشامل لما استفسر عنه ، فهناك قواعد أساسية لكل باحث في كتاب الله ، وقواعد أخرى تفرضها طبيعة البحث ، ومن أهم القواعد الأساسية :

أولاً : إخلاص النية وابتغاء الحق ؛ وهو أمر نفسي لا يطلع عليه إلا الله ، ولا يصفو هذا المقصد إلا برقي القلب في شعب الإيمان ، فإذا التجأ الباحث إلى الحق - تبارك وتعالى - يطلب منه ابتغاء معرفة الحق وحده ؛ سيهديه الله ويعلمه ، خاصة إذا تقرب إليه بكثرة النوافل . وهذا دأب سلفنا الصالح رحمهم الله ؛ وعلى سبيل المثال قال الإمام محمد بن إسماعيل البخاري ، صاحب الصحيح : (خرّجت كتاب الصحيح من زهاء ستمائة ألف حديث في ست عشرة سنة ،

وما وضعت فيه حديثاً إلاً اغتسلت وصليت ركعتين^(١) .

فهذا السلوك الخلقى مع الخالق لا بد أن يثمر في قلب الإنسان حياة راقية ، تدفعه إلى مواصلة البحث في القرآن الكريم والسنة المشرفة ؛ اللذين بهما تحيا القلوب وتشفى مما يصيبها من وصب الدنيا . وجدير بمن كانت نيته خالصة لله تعالى أن ينفع المسلمين بما يتوصل من نتائج .

ثانياً : النظر في القرآن جملة واحدة : فالقرآن يفسر بعضه بعضاً ، فعلى سبيل المثال إذا أردنا أن نعرف القلب المتقي فلا ننظر للفظه في آية واحدة أو عدد منها إنما الرجوع لكامل مواطن المادة في القرآن ، وبقدر الاستطاعة في السنة ، والرجوع للمفسرين والمحدثين فنسخرج بمعنى حقيقي للتقوى ومرتبها بالنسبة لمراتب حياة القلب وكيفية نموها في الإنسان ، ومتى يكتسبها العبد ، ومتى تكون هبة من الله تبارك وتعالى ، وما هي العلامات الظاهرة في الإنسان المتصف بهذه الصفة ، وتأثيرها على حياة الفرد والمجتمع في العبادات والمعاملات والأحكام الشرعية ، فنستطيع أن نجتمع بحثاً متكاملًا عن التقوى .

فهي عملية إحصاء شامل لا تغفل فيه آية واحدة^(٢) .

(١) صحيح البخاري : أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري «ت : ٢٥٦ هـ» الطبعة السلطانية ١٣١١ هـ عن النسخة اليونانية : تصوير عالم الكتاب : المقدمة ص (٨) .

(٢) ذكر الدكتور فاروق الدسوقي في الجزء الأول من كتابه : «القضاء والقدر في الإسلام» ، قواعد منهجية للباحث عن الحقيقة في القرآن والسنة ، حريّ بالباحث أن يطلع عليها ، وفيه توسع في شرح هاتين القاعدتين .

ثالثاً : الرجوع إلى لسان القرآن: فالقرآن نزل بلسان عربي ﴿ وَإِنَّهُ لَنَزِيلٌ
رَبِّيَ الْعَلَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ

بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴾ [الشعراء ؛ آية : ١٩٢ - ١٩٥] فكل
عبارة أو اسم في اللغة العربية يوجب اختلاف المعنى ولا
بد ، وإن كان بينهما تقارب إلا أن هناك فوارق تظهر للباحث .

قال أبو هلال العسكري^(١) : (الشاهد على أن اختلاف
العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني أن الاسم كلمة
تدل على معنى دلالة الإشارة ، وإذا أشير إلى الشيء مرة
واحدة فعرف ؛ فالإشارة إليه ثانية وثالثة غير مفيد ، وواضع
اللغة حكيم لا يأتي فيها بما لا يفيد ، فإن أشير منه في الثاني
والثالث إلى خلاف ما أشير إليه في الأول كان صواباً ، فهذا
يدل أن كل اسمين يجريان على معنى من المعاني وعين من
الأعيان في لغة واحدة ؛ فإن كل واحد منهما يقتضي خلاف
ما يقتضيه الآخر وإلا لكان الثاني فضلاً لا يحتاج إليه ، وإلى
هذا ذهب المحققون) .

وقال : (جميع ما جاء في القرآن وعن العرب ، من لفظين
جارين مجرى ما ذكرناه ، من العقل واللب والمعرفة والعلم
والكسب والجرح والعمل والفعل ، معطوفاً أحدهما على
الآخر ، فإنما جاز هذا فيها لما بينهما من الفرق في
المعنى ، ولولا ذلك لم يجز عطف زيد على أبي عبد الله إذا

(٢) أبو هلال العسكري : الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري عالم
بالأدب ، توفي ٣٩٥ هـ ، الأعلام (٢/١٩٦) .

كان هو هو^(١) .

رابعاً : عدم العدول باللفظ من الحقيقة إلى المجاز ؛ وخاصة في كتاب الله تعالى وسنة رسوله . فالله تبارك وتعالى أنزل الكتاب شفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين .

فمعانيه أشرف المعاني ، وألفاظه أفصح الألفاظ وأبينها وأعظمها .

فإذا وردت صفة في القرآن الكريم أو السنة المشرفة ولا نجد دليلاً على نقل هذه الصفة عن موضوعها في اللغة ، فلا يصح حملها على غير الحقيقة لأن الله تعالى قال : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم ؛ آية : ٤] فكل خطاب خاطبنا الله تعالى به أو رسوله ﷺ فهو على موضوعه في اللغة ، إلا اللهم إن وجد نص أو إجماع علماء على أن هذه الصفة قد نقلها الله تعالى أو رسوله ﷺ عن موضوعها إلى معنى آخر ، خاصة ونحن نجد أن العلماء اختلفوا في أصل وقوع المجاز في اللغة .

قال أبو الحسن الأمدي^(٢) : (اختلف الأصوليون في اشتغال اللغة على الأسماء المجازية : فنفاه الأستاذ أبو إسحاق^(٣) - يعني أبا

(١) الفروق اللغوية : ص (١١ - ١٢) أبي هلال العسكري ، تحقيق حسام الدين القدسي .

(٢) أبو الحسن الأمدي : علي بن محمد بن سالم التغلبي ، أبو الحسن سيف الدين الأمدي - أصولي باحث ، توفي سنة ٦٣١ هـ ، الأعلام (٣٣٢/٤) .

(٣) محمد بن محمد بن أحمد تاج الدين الاسفرايني عالم بالنحو ، ت ٦٨٤ هـ ، الأعلام (٣١/٧) .

إسحاق الإسفرائيني - ومن تابعه ، وأثبتته الباقون وهو الحق^(١) .

وقد ردّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية^(٢) بقوله : (إن أراد بالباقيين من الأصوليين كل من تكلم في أصول الفقه من السلف والخلف فليس الأمر كذلك - إلى أن قال - فمعلوم أن أول من عُرف أنه جرّد الكلام في أصول الفقه هو الشافعي ، وهو لم يقسم الكلام إلى حقيقة ومجاز ، بل لا يعرف في كلامه مع كثرة استدلاله وتوسعه ومعرفته الأدلة الشرعية أنه سمى شيئاً منه مجازاً ، ولا ذكر في شيء من كتبه ذلك لا في الرسالة ولا في غيرها .

وحينئذ فمن اعتقد أن المجتهدين المشهورين وغيرهم من أئمة الإسلام وعلماء السلف قَسَموا الكلام إلى حقيقة ومجاز كما فعله طائفة من المتأخرين : كان ذلك من جهله وقلة معرفته بكلام أئمة الدين وسلف المسلمين^(٣) .

وقد فصل رحمه الله في الفتاوى أدلة المثبت والنافي ورد على القائلين بالمجاز . وعلى سبيل المثال ؛ أنقل ردّه على قول الأمدّي رحمه الله : (كيف وأن أهل الأعصار لم تزل تتناقل في أقوالها وكتبها عن أهل الوضع تسمية هذا حقيقة ، وهذا مجاز)^(٤) .

فقال : (هذا مما يعلم بطلانه قطعياً ، فلم ينقل أحد قط عن أهل الوضع أنهم قالوا : هذا حقيقة وهذا مجاز ، وهذا معلوم

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٦١/١) المسألة الثانية .

(٢) أحمد بن عبد الحلّيم بن عبد السلام الحراني = شيخ الإسلام ، توفي سنة ٧٢٨ هـ ، الأعلام (١٤٤/١) .

(٣) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠ / ٤٠٠ - ٤٠٤) .

(٤) الإحكام (٦٢/١) .

بالاضطرار أن هذا لم يقع من أهل الوضع ، ولا نقله عنهم أحد ممن نقل لغتهم ، بل ولا ذكر هذا أحد عن الصحابة الذين فسروا القرآن وبيّنوا معانيه وما يدلّ في كل موضع ، فليس منهم أحد قال : هذا اللفظ حقيقة وهذا مجاز ، ولا ما يشبه ذلك ، لا ابن مسعود وأصحابه ولا ابن عباس وأصحابه ، ولا زيد بن ثابت وأصحابه ، ولا من بعدهم ، ولا مجاهد^(١) ولا سعيد بن جبير^(٢) ، ولا عكرمة^(٣) ، ولا الضحاك^(٤) ، ولا طاووس^(٥) ، ولا السدي^(٦) ، ولا قتادة^(٧) ولا غير هؤلاء ، ولا أحد من أئمة الفقه ؛ كالأئمة الأربعة وغيرهم ، ولا الثوري^(٨) ولا الأوزاعي^(٩) ولا الليث بن سعد^(١٠) ، ولا غيره ،

-
- (١) مجاهد بن جبر أبو الحجاج المكي المخزومي من الطبقة الثالثة من التابعين ، توفي سنة ١٠١ هـ السيوطي : طبقات الحفاظ (٤٢) .
- (٢) سعيد بن جبير بن هشام : أبو محمد ، تابعي مفسر كوفي ، روى عن ابن عباس ، توفي سنة ٩٤ هـ . ابن حجر : تهذيب التهذيب (١١/٤) .
- (٣) عكرمة مولى ابن عباس أبو عبد الله المدني إمام في التفسير ، توفي عام ١٠٥ هـ . طبقات الحفاظ (٤٣) .
- (٤) الضحاك بن مزاحم البلخي الخراساني مفسر ، ت : ١٠٥ هـ ، الأعلام (٢١٥/٣) .
- (٥) طاووس بن كيسان اليماني أبو عبد الرحمن الحميري من كبار التابعين ، توفي ١٠٦ هـ . طبقات الحفاظ (٤١) .
- (٦) إسماعيل بن عبد الرحمن السدي ، تابعي سكن الكوفة ، ت : ١٢٨ هـ ، النجوم الزاهرة (٣٠٨/١) .
- (٧) قتادة بن دعامة السدوسي البصري ، أحد الأعلام ، روى عن أنس ، ت ١٠٦ هـ ! طبقات الحفاظ (٤١) .
- (٨) الثوري : سفيان بن سعيد بن مسروق ، ت ١٦١ هـ ، الأعلام (١٠٤/٣) .

وإنما وجد في كلام أحمد بن حنبل لكن بمعنى آخر ، كما أنه وجد في كلام أبي عبيدة معمر بن المثنى^(١) بمعنى آخر .

ولم يوجد أيضاً تفسير الكلام إلى حقيقة ومجاز في كلام أئمة النحو واللغة كأبي عمرو بن العلاء^(٢) ، وأبي عمرو الشيباني^(٣) ، وأبي زيد^(٤) ، والأصمعي^(٥) ، والخليل^(٦) ، وسيبويه^(٧) ، والكسائي^(٨) ، والفراء^(٩) ، ولا يعلمه أحد من هؤلاء عن العرب^(١٠) .

= (٩) الأوزاعي : عبد الرحمن بن عمر بن محمد ، ت ١٥٧ هـ ، الأعلام (٣/٣٢٠) .

(١٠) الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي ، ت ١٧٥ هـ ، الأعلام (٥/٢٤٨) .

(١) أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي البصري ، ت ٢٠٩ هـ ، الأعلام (٧/٢٧٢) .

(٢) أبو عمرو بن العلاء : زيان بن عمار التميمي المازني البصري ، ت ١٥٤ هـ ، الأعلام (٣/٤١) .

(٣) أبو عمرو الشيباني : إسحاق بن مرار ، لغوي ، ت ٢١٥ هـ ، الأعلام (٣/١٨١) .

(٤) أبو زيد : سعيد بن أوس الأنصاري ، ت ٢١٥ هـ ، الأعلام (٣/٩٢) .

(٥) الأصمعي عبد الملك بن قريب - أبو سعيد ، ت ٢١٦ هـ ، الأعلام (٤/١٦٢) .

(٦) الخليل بن أحمد الفراهيدي ، ت ١٧٠ هـ ، الأعلام (٢/٣١٤) .

(٧) سيبويه : عمر بن عثمان بن قنبر ، إمام النحو ، ت ١٧٩ هـ ، إنباء الرواة (٢/٣٤٦) .

(٨) الكسائي : علي بن حمزة ، ت ١٨٩ هـ ، إرشاد المبتدي ص (١٥٠) .

(٩) الفراء : يحيى بن زياد النحوي ، ت ٢٠٧ هـ ، الأعلام (٨/١٤٥) .

(١٠) مجموع الفتاوى (٢٠/٤٥١ - ٤٥٢) .

وقد سار على هذا المنوال تلميذه ابن القيم^(١) وذكر في الصواعق المرسله ردود كثيرة بعنوان : (ذكر الطواغيت الأربع التي هدم بها أصحاب التأويل الباطل معاقل الدين .

الطاغوت الثاني : قولهم إن آيات الصفات مجازات لا حقيقة لها)^(٢) .

وفي الفصل التاسع في وظائف المتأول قال رحمه الله : (لما كان الأصل في الكلام هو الحقيقة والظاهر ، كان العدول به عن حقيقته وظاهره مخرجاً له عن الأصل ، فاحتاج مدعي ذلك إلى دليل يسوّغ إخراجه عن أصله ، فعليه أربعة أمور لا تتم له دعواه إلاّ بها - أذكرها باختصار - :

الأمر الأول : بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي تأوله في ذلك التركيب الذي وقع فيه ، وإلاّ كان كذباً على اللغة منشئاً وضعاً من عنده ، فإن اللفظ قد لا يحتمل ذلك المعنى لغة .

الأمر الثاني : وبيّن تعين ذلك المعنى ثانياً ، فإنه إذا أُخرج عن حقيقته قد يكون له معان ، فتعين ذلك المعنى يحتاج إلى دليل .

الأمر الثالث : إقامة الدليل الصارف للفظ عن حقيقته وظاهره ، فإن دليل المدعي للحقيقة والظاهر قائم ، فلا يجوز

(١) شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية ، توفي ٧٥١ هـ . مقدمة الصواعق المرسله .

(٢) الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة : شمس الدين محمد أبي بكر بن قيم الجوزية - تحقيق الدكتور علي بن محمد الدخيل الله (٢/٦٣٢) فما بعد) .

العدول عنه إلاً بدليل صارف يكون أقوى منه .

الأمر الرابع : الجواب عن المعارض ، فإن مدعي الحقيقة قد أقام الدليل العقلي والسمعي على إرادة الحقيقة^(١) .

وقد حقق ذلك الشيخ محمد الأمين الشنقيطي^(٢) في كتاب بعنوان : «منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز» فقال فيه : (والذي ندين لله به ويلزم قبوله كل منصف محقق أنه لا يجوز إطلاق المجاز في القرآن مطلقاً على كلا القولين .

أما على القول بأنه لا مجاز في اللغة أصلاً وهو الحق . فعدم المجاز في القرآن واضح .

وأما على القول بوقوع المجاز في اللغة العربية فلا يجوز القول به في القرآن^(٣) . وقد رتب كتابه رحمه الله على مقدمة وأربعة فصول وخاتمة ، ففي المقدمة ذكر الخلاف في وقوع المجاز في أصل اللغة وأنه لا يجوز في القرآن على كلا القولين .

وفي الفصل الأول بين أنه لا يلزم من جواز الشيء في اللغة جوازه في القرآن وذكر أمثلة لذلك .

وفي الفصل الثاني أجاب عن آيات زعموا أنها من المجاز نحو قوله تعالى ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ الآية [سورة الكهف؛ الآية : ٧٧] .

وفي الفصل الثالث أجاب عن إشكالات تتعلق بنفي المجاز ونفي بعض الحقائق ، ويشتمل على أمور لها تعلق بالموضوع .

(١) الصواعق المرسله (١/٢٨٨ - ٢٩٣) .

(٢) محمد الأمين محمد المختار الشنقيطي صاحب «أضواء البيان» ، ت ١٣٩٣ هـ ترجمته في آخر «أضواء البيان» .

(٣) منع المجاز ص (٨) .

وفي الفصل الرابع حقق المقام في آيات الصفات مع نفي
المجاز عنها .

وذكر في الخاتمة وجه مناظرة النافي لبعض الصفات بالطرق
الجدلية .

والمهم أن موضوع المجاز في القرآن يحتاج إلى دراسة دقيقة
فبعض كتب التفاسير أكثر من المجاز وعلى سبيل المثال أبو
القاسم الزمخشري^(١) رحمه الله صاحب الكشاف قسم كل أحوال
القلوب من قبيل المجاز فقال في تفسير قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى
قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾
[البقرة ؛ الآية : ٧] :

(فإن قلت : ما معنى الختم على القلوب والأسماع وتغشية
الأبصار . قلت : لا ختم ولا تغشية ثم على الحقيقة وإنما هو من
باب المجاز ، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه ، وهما : الاستعارة
والتمثيل . . .)^(٢) .

فلو حملنا اشمزاز القلب وإكنانه وريبه وتقطيعه وإشراجه وما
يصاب به من العمى والران والطبع ثم الختم عليه ، وهي كلها أعلى
من أن تكون مرضاً أو قل مرضاً متقدماً ، وهي مراحل موت القلب ؛
وحملناها على المجاز وأنه لا ثم شيء من ذلك ، وهي كلها أحوال
قلوب يخبرنا الله بها ، فما هي الفائدة التي نجنيها من ذكرها في
القرآن ؟ .

(١) أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الزمخشري ، معتزلي ، صاحب
الكشاف ، توفي ٣٨٠ هـ . سير أعلام النبلاء (١٥١/٢٠) .
(٢) الكشاف (٢٦/١) .

وكذلك فسر قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة ؛ الآية : ١٠] .

فقال عفا الله عنه : (واستعمال المرض في القلب يجوز أن يكون حقيقة ومجازاً . فالحقيقة أن يراد الألم كما تقول : في جوفه مرض ، والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب : كسوء الاعتقاد والغل والحسد والميل إلى المعاصي والعزم عليها واستشعار الهوى والجبن والضعف ، وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبيهة بالمرض ، كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائص ذلك . والمراد هنا ما في قلوبهم من سوء الاعتقاد والكفر أو من الغل والحسد والبغضاء ، لأن صدورهم كانت تغلي على رسول الله ﷺ والمؤمنين غلاً وحنقاً . . .)^(١) .

فهنا نجده حدد المرض بالعلم المشاهد الذي تعرفه الأطباء ، أما أمراض القلوب من الإثم والصغو والزيف والغل والغيظ وغيرها كثير يظهر في ثنايا البحث فاعتبرها من قبيل المجاز . ثم هو رحمه الله لم يفرق بين أمراض النفس وأمراض القلب وكأنها شيء واحد ، وكأني به يرى حديث النكتة السوداء الوارد في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا تاب صقل منها ، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه فذلك الران . . . » الحديث^(٢) .

وأيضاً ما ورد في حديث حذيفة عن رسول الله ﷺ : «إن

(١) الكشف (٣٢/١) .

(٢) المستدرک علی الصحیحین فی الحدیث : أبي عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري ، كتاب الإيمان (٥/١) وقال : حديث صحيح .

الفتن تعرض على القلوب حتى يعود القلب أسود مرباداً كالكوز
مُجْحِيًا»^(١) .

كأنني به يحمل هذه الألفاظ على المجاز وكأن القلب مجرد
مضخة لا يتأثر بشيء من هذه الواردات ، والأخذ بهذه المعاني
يحرمانا كثيراً من جواهر القرآن ودرره . ولو تتبعنا تفسيره لوجدنا هذا
منواله ، وإن كان تفسيره بلغ الغاية في البيان والكشف عن أسرار
القرآن ، فهو إمام في النحو واللغة والبيان إلا أنه سار في تفسير
الأحوال على مذهب الاعتزال .

وتتبع من قال بالمجاز في كتاب الله يخرجنا عن المقصود إذ
الهدف توضيح مبدأ سير البحث وتوضيح قواعده .

خامساً : عدم الاعتماد في تفسير كلام الله وتوضيح سنة رسوله
ﷺ على أقوال غير المسلمين . لأن البحث في كتاب الله عبادة ،
والعبادة تسبقها نية الإخلاص لله تعالى وطلب العون منه وتوكلاً
عليه ، فيلهم الله المسلم الصواب على قدر إيمانه ، فإن وصل إلى
مرتبة التقوى مثلاً منح من العلم ما يستحقه أهل هذه المرتبة كما قال
تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمِكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾
[البقرة ؛ الآية : ٢٨٢] .

وكلما ارتقى القلب فتح الله عليه علماً لم يكن يعلمه من
قبل ، فالموحى إليه يعلم أكثر من المحدث ، والمحدث يعلم أكثر
من الملهم ، والملهم يعلم أكثر من غيره .

فعلى الباحث أن يسأل أهل لا إله إلا الله عن معاني كتاب الله

(١) يأتي نصه وتخريجه في باب أمراض القلوب .

وسنة رسوله ﴿ فَسَأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل ؛ الآية : ٤٣ والأنبياء ؛ الآية : ٧] .

قال ابن عباس : أهل الذكر أهل القرآن^(١) . وقال ابن زيد^(٢) : أراد بالذكر القرآن ، أي فاسألوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن .

قال جابر الجعفي^(٣) : لما نزلت هذه الآية قال علي رضي الله عنه : نحن أهل الذكر ، وقال سفيان^(٤) : هم أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبى ﷺ^(٥) .

فلا بد أن يؤخذ معنى كلام الله عن المسلم العالم العدل الثقة الثبت ، فأنوار الوحي لا تلج القلب المؤلم . أما الأمور المادية القائمة على التجربة ، فهي للخلق عامة ، لا مانع من الاستئناس بقول من بحثها أو اكتشفها ، أما درر المعاني فلا تكون في قلب عاص مطبوع على قلبه ﴿ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة ؛ الآية : ٩٣] .

-
- (١) أ - الجامع لأحكام القرآن «تفسير القرطبي» (١٠٨/١٠) .
ب - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم (١٥٠/١٢) .
(٢) ابن زيد : أحمد بن محمد بن أحمد بن زيد من علماء الحنابلة . توفي ٨٧٠ هـ ، الأعلام (٢٣٠/١٢) .
(٣) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي تابعي من فقهاء الشيعة . ت : ١٢٨ هـ ، الأعلام (١٠٥/٢) .
(٤) سفيان بن عيينة بن أبي عمران : محدث الحرم المكي ثقة ، توفي ١٩٨ هـ ، تهذيب التهذيب (١١٧/٤) .
(٥) تفسير القرطبي (٢٧٢/١١) .

فمن تكدر قلبه بالظلمات والشهوات ، لا بد أن تحجب عنه
أنوار العلوم ، لأن القلوب كالأواني : ما دامت مملوءة بالماء لا
يدخلها الهواء ، والقلب المشغول بغير الله لا تدخله المعرفة بجلال
الله^(١) .

(١) سيأتي تفصيل ذلك في القلب والمعرفة .

موضوعات البحث الرئيسية

- الباب الأول : القلب والألفاظ المقاربة له .
- الباب الثاني : مراحل حياة القلوب .
- الباب الثالث : القلب المريض .
- الباب الرابع : مراحل موت القلب .
- الباب الخامس : القلب والمشاعر والإرادة .
- الباب السادس : القلب والمعرفة .

الباب الأول

القلب والألفاظ المقاربة له

- الفصل الأول : تعريف القلب .
- الفصل الثاني : الألفاظ المقاربة للقلب .

الفصل الأول

تعريف القلب

- المبحث الأول : معاني القلب في اللغة العربية .
- المبحث الثاني : معاني القلب في القرآن الكريم .

المبحث الأول معاني القلب في اللغة العربية

القاف واللام والباء أصلان صحيحان .
أحدهما يدل على خالص الشيء وشريفه .
والآخر قلب الإنسان وغيره ، سمي به لأنه أخلص شيء فيه
وأرفعه .

وخالص كل شيء وأشرفه قلبه^(١) .
(والقلب : تحويل الشيء عن وجهه . . . وقلَّب الأمور :
بحثها ونظر في عواقبها . . . وفي التنزيل العزيز ﴿ وَقَلَّبُوا
لَكَ الْأُمُورَ ﴾ [التوبة ؛ آية ٤٨] .

وتقلَّب في الأمور وفي البلاد : تصرف فيها كيف شاء . وفي
التنزيل العزيز ﴿ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ [غافر : آية ٤]
معناه : فلا يغررك سلامتهم في تصرفهم فيها ، فإن عاقبة أمرهم
الهلاك .

(١) معجم مقاييس اللغة (١٧/٥) .

ورجل قُلْبٍ : يتقلب كيف شاء .
وقوله تعالى : ﴿ نُنَقِّلُ فِيهِ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ [النور: آية
٣٧] .

قال الزجاج معناه : ترجف وترحف من الجزع والخوف .
والمنقلب : مصير العباد إلى الآخرة ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَنَمُوا
أَيُّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء : آية ٢٢٧] .

والقلب : مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط (١) . . . وقوله تعالى
﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : آية ١٩٤] .

قال الزجاج (٢) : معناه نزل به جبريل ، عليه السلام ، عنك
فوعاه قلبك . . . قال الفراء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى
لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : آية ٣٧] أي عقل .

وقال : وجائز في العربية أن تقول : . . . وما قلبك
معك . . . ما عقلك معك . . . وقال بعضهم : سمي القلب قلباً
لتقلبه ، وأنشد :

ما سمي القلب إلا من تقلبه والرأي يصرف بالإنسان أطوارا
وروي عن النبي ﷺ أنه قال : « لا ومقلب القلوب » (٣) .

(١) النياط : عرق علق به القلب من الوتين ، فإذا قطع مات صاحبه . نان
العرب (٤١٨/٧) .

(٢) الزجاج = إبراهيم بن السري بن سهل أبو إسحاق الزجاج نحوي ، توفي
٣١١ هـ ، إنباه الرواة (١٥٩/١) .

(٣) صحيح الإمام البخاري كتاب التوحيد : باب (١١) .

وقال الله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْعَدَّتْهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ ﴾ [الأنعام : آية

[١١٠] (١) .

ويطلق القلب على معينين :

أحدهما : أمر حسي ملموس جسماني مشاهد ، وخير من يعرفه لنا ذوي الاختصاص في العلوم الطبية بعامة وعلم وظائف الأعضاء بخاصة فقالوا :

هو عضو عضلي مجوف موضوع في باطن التجويف الصدري الأيسر شكله مخروطي غير منتظم قاعدته إلى أعلى وقمته إلى أسفل ، والذي لا يزيد في وظيفته عن مضخة تضخ الدم إلى أنحاء الجسم (رغم الأهمية القصوى لهذه المضخة) (٢) .

ولقد استطاع الإمام أبو حامد الغزالي (٣) أن يعبر بكل وضوح عن هذين المعنيين فقال : (لفظ القلب يطلق لمعنيين :

أحدهما : اللحم الصنوبري الشكل المودوع في الجانب الأيسر من الصدر ، وهو لحم مخصوص ، وفي باطنه تجويف ، وفي ذلك التجويف دم أسود هو منبع الروح ومعدنه .

ولسنا نقصد الآن شرح شكله وكيفيته إذ يتعلق به غرض

(١) لسان العرب (١/٦٨٥) ، مادة «قلب» .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين (٧/٩٠٩) ، محمد فريد وجدي ؛ كتاب المعرفة ، جسم الإنسان (٦٨) ، شركة إنماء النشر والتسويق ؛ الموسوعة العلمية الحديثة ، الجسم البشري (٥/١٠١) ، ميتشل ولسن ؛ قاموس القلب الطبي (١٥) ، محمد رفعت .

(٣) محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي ، ت ٥٠٥ هـ ، الأعلام (٧/٢٢) .

الأطباء ولا يتعلق به الأغراض الدينية ، وهذا القلب موجود للبهائم بل هو موجود للميت ، ونحن إذا أطلقنا لفظ القلب في هذا الكتاب (أي كتاب إحياء علوم الدين) لم نعن به ذلك ، فإنه قطعة لحم لا قدر له ، وهو من عالم الملك والشهادة ، إذ تدركه البهائم بحاسة البصر فضلاً عن الأدميين .

والمعنى الثاني : هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق ، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان ، وهو المدرك العالم العارف من الإنسان ، وهو المخاطب والمعاقب والمعاتب والمطالب ، ولها علاقة مع القلب الجسماني . . وقد تحيرت عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته ، فإن تعلقه به يضاهاى تعلق الأعراض بالأجسام والأوصاف بالموصوفات أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة^(١) .

ونكاد نرى شبه إجماع بين العلماء على هذا التعريف^(٢) .

وقال الجرجاني^(٣) : (اللطيفة هي كل إشارة دقيقة المعنى تلوح للفهم لا تسعها العبارة كعلوم الأذواق)^(٤) .

(١) إحياء علوم الدين (٣/١٣٥٠) .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص (١٤) . التعريفات ص (١٧٨) . إتحاف السادة المتقين (٧/٢٠٢) ، بشرح إحياء علوم الدين . غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/١٥٩) .

(٣) علي بن محمد بن علي المعروف بالشريف الجرجاني ، من كبار العلماء بالعربية ، توفي ٨١٦ هـ ، الأعلام (٥/٧) .

(٤) التعريفات ص (١٩٢) .

المبحث الثاني معاني القلب في القرآن الكريم (*)

ذكر العلماء أن القلب في القرآن الكريم على ثلاثة أوجه :

الأول : بمعنى العقل :

ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾
[ق : آية ٣٧] أي عقل يتدبر به ، فكُنِّي بالقلب عن العقل لأنه
موضعه^(١) .

الثاني : بمعنى الرأي والتدبير :

ومنه قوله تعالى : ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ﴾ [الحشر :
آية ١٤] .

أي تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين وهم مختلفون غاية
الاختلاف ، لا تستوي قلوبهم ولا يتعاونون بنيات مجتمعة ، لأن الله

(*) لم أجد بعد البحث - على قدر جهدي - أوجهاً متعددة للقلب في السنة
النبوية مثلما تطرقت كتب الوجوه والنظائر للمادة في القرآن الكريم .

(١) تفسير القرآن العظيم = تفسير ابن كثير (٤/٢٢٩) ، وكذلك تفسير
القرطبي (١٧/٢٣) .

ناصر حزبه وخاذل أعدائه من اليهود والمنافقين^(١) .

الثالث : بمعنى حقيقة القلب الذي في الصدر بعينه :

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ

الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

أي أن الآفة ببصائر قلوبهم لا بأبصار عيونهم ، وهي الآفة التي كل آفة دونها .

وتكاد تتفق كتب الأشباه والنظائر على هذه الأوجه الثلاث^(٢) .

(١) الكشاف (٨٣/٤) ، زاد المسير في علم التفسير (٢١٨/٨) .

(٢) بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٢٨٩/٤) : مجد الدين محمد يعقوب الفيروز آبادي .

نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر ص (٤٨٣) : أبي الفرج ابن الجوزي ، دراسة وتحقيق محمد عبد الكريم كاظم الراضي .
إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم ص (٣٨٨) ، الحسين بن محمد الدامغاني ، تحقيق عبد العزيز السيد الأهدل .

الفصل الثاني الألفاظ المقاربة للقلب

- المبحث الأول : الفؤاد وعلاقته بالقلب .
- المبحث الثاني : اللب ومعانيه في اللغة والوحي .
- المبحث الثالث : العقل ومعانيه في اللغة والوحي .
- المبحث الرابع : الصدر ومعانيه في اللغة والوحي .

المبحث الأول الفؤاد وعلاقته بالقلب

ومن الألفاظ المقاربة للقلب : الفؤاد .
والفاء والألف والذال أصل صحيح يدل على حمى وشدة
حرارة، من ذلك فادت اللحم : شويته .
ومما هو من قياس الباب : الفؤاد ، سمي بذلك لحرارته^(١) .
ومن ثم يُقال للقلب الفؤاد إذا اعتبر فيه معنى التفؤد أي
التوقد^(٢) .
وفي قول آخر أن أصل الفؤاد الحركة والتحرك، ومنه
اشتق الفؤاد لأنه ينبض ويتحرك كثيراً ، ورجحه الزبيدي^(٣) عن
الفيروز أبادي^(٤) .

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٤٦٩) .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص (٣٨٦) .

(٣) الزبيدي : محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الزبيدي الملقب
بمرتضى ، علامة باللغة والحديث، توفي ١٢٠٥ هـ ، الأعلام (٧/٧٠) .

(٤) الفيروز أبادي : محمد بن يعقوب بن محمد مجد الدين =

وقال : هذا أظهر لعدم تخلفه ومرادفته للقلب^(١) .

(والفؤاد : القلب ، وقيل وسطه ، وقيل الفؤاد غشاء القلب
والقلب حبه وسويداؤه)^(٢) .

الفؤاد في القرآن الكريم :

ذكر الله تبارك وتعالى الفؤاد في القرآن الكريم في ستة عشرة
موضعاً .

في مثل قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا
تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ
تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : آية ٧٨] .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية : (والأفئدة وهي العقول
التي مركزها القلب على الصحيح وقيل الدماغ ، والعقل به يميز بين
الأشياء : ضارها ونافعها)^(٣) .

كما ذكر الفؤاد في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ
وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [المؤمنون : آية ٧٨] .

ويقال نشأ ينشأ : إذا ربا وشبَّ ، ومنه نشأ السحاب إذا ارتفع
وبدا^(٤) .

= الفيروز أبادي ، من أئمة اللغة والأدب ، توفي ٨١٧ هـ ، الأعلام
(١٤٦/٧) .

(١) تاج العروس ، من جواهر القاموس (٤٤٨/٢) .

(٢) لسان العرب (٣٢٩/٣) .

(٣) تفسير ابن كثير (٥٧٩/٢) .

(٤) لسان العرب (١٧٣/١) .

فالله يذكر عباده بنعمه عليهم بأن جعل لهم السمع والأبصار والأفئدة ، وهي العقول والفهوم ، التي يذكرون بها الأشياء ، ويعتبرون بما في الكون من الآيات الدالة على وحدانية الله وأنه الفاعل المختار لما يشاء^(١) .

وقد اتصف الفؤاد بصفات مغايرة للقلب منها :

الفراغ كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرَاغًا ۚ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ۗ ﴾ [القصص : آية ١٠] .

والفراغ : الخلاء أي خالياً من الصبر ، وتفريغ الظروف إخلاؤها^(٢) (فالحق تبارك وتعالى يخبر عن فؤاد أم موسى حين ذهب ولدها في البحر أنه أصبح فارغاً ، أي من كل شيء من أمور الدنيا إلا من موسى . قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ، والضحاك ، والحسن البصري^(٣) وقتادة وغيرهم)^(٤) .

كما اختص الفؤاد بالرؤى :

قال تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۗ ﴾ [النجم : آية ١٠ ، ١١] .

(أي اتفق فؤاد الرسول ﷺ ورؤيته على الوحي الذي أوحاه الله إليه ، وتواطأ عليه سمعه وبصره وقلبه ، وهذا دليل على كمال

(١) تفسير ابن كثير (٣/٢٥٢) .

(٢) لسان العرب (٨/٤٤٥) .

(٣) الحسن بن أبي الحسن يسار البصري مولى زيد بن ثابت ، توفي سنة ١١٠ هـ ، طبقات الحفاظ ص (٣٥) .

(٤) تفسير ابن كثير (٣/٣٨١) .

الوحي الذي أوحاه الله إليه ، وأنه تلقاه منه تلقياً لا شك فيه ولا شبهة ولا ريب ، فلم يكذب فؤاده ما رأى بصره ولم يشك في ذلك .

ويحتمل أن المراد بذلك : ما رأى ﷺ ليلة أسري به من آيات الله العظيمة وأنه تيقنه حقاً بقلبه ورؤيته ، وهذا هو الصحيح في تأويل الآية الكريمة^(١) .

واتصف الفؤاد بالتثبت :

كما قال تعالى : ﴿ وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [هود : آية ١٢٠] .

(أي ونقص عليك من أنباء الرسل الأشياء التي ثبتت به فؤادك . قال ابن عباس : ثبتت نسكن ، وقال الضحاك : نشد . وقال ابن جريج^(٢) : نقوي)^(٣) .

وعوم المعاني لا تخلو من الطمأنينة ، ففيها تطيب لقلب رسول الله ﷺ .

واتصف بالخلو والهواء :

قال تعالى : ﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ﴾

(١) «تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان» عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، تحقيق محمد زهري النجاري ، إدارة البحوث ١٤٠٤ هـ .

(٢) ابن جريج : عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج ، فقيه الحرم المكي ، توفي ١٥٠ هـ ، الأعلام (٤/١٦٠) .

(٣) تفسير البحر المحیط (٥/٣٧٤) .

وَأَفْدَتْهُمْ هَوَاءَهُمْ ﴿ [إبراهيم : آية ٤٣] ، أي لا تغني شيئاً من شدة الخوف^(١) . والهواء كل فرجة بين شيئين ، كما بين أسفل البيت إلى أعلاه وأسفل البئر إلى أعلاها ، ويُقال : هوى صدره يهوي إذا خلا ؛ والهواء : الجبان لأنه لا قلب له^(٢) .

واتصف الفؤاد بالصغو :

وقال تعالى : ﴿ وَلِنَصْغِي إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ ﴾ [الأنعام : آية ١١٣] .

والصغو : الميل . صغا إليه يصغي : أي مال ، وصغا الرجل إذا مال على أحد شقيه ، وأصغى إليه رأسه : أماله^(٣) .

وقد اشترك مع القلب في هذه الصفة كما في قوله تعالى :

﴿ إِنَّ نُؤُوبًا إِلَى اللَّهِ فَعَدَّ صَغَتْ قُلُوبِكُمْ ﴾ [التحريم : آية ٤] .

فلكل من القلب والفؤاد اختيار وميل .

واتصف بالتقليب :

كما في قوله تعالى : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْعِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ

يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [الأنعام : آية ١١٠] أي نصرفها من رأي إلى

رأي .

(١) تفسير القرطبي (٣٧٧/٩) .

(٢) لسان العرب (٣٧٠/١٥) .

(٣) لسان العرب (٤٦١/١٦) ، بصائر ذوي التمييز (٤١٦/٣) ، المفردات

ص (٢٨٢) .

والتقليب كما يكون للفؤاد فهو حالة من حالات القلب والبصر
أيضاً ، كما في قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ
وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور : آية ٣٧] .

كما اتصف الفؤاد بالهوى والميل :

قال تعالى : ﴿ فَأَجْعَلْ أَفْعِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ ﴾ [إبراهيم :
آية ٣٧] .

(أي تنزع ، يُقال : هوى نحوه إذا مال ، وهوت الناقة تهوي
هويأ فهي هاوية إذا عدت عدواً شديداً كأنها في هواء بئر : وقوله
تعالى : ﴿ تهوي إليهم ﴾ مأخوذ منه)^(١) .

والفؤاد لا قيمة له ولا فائدة منه لمن لا يتعظ كما في قوله
تعالى : ﴿ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْعِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾
[الأحقاف : آية ٢٦] فاشترك مع القلب في الصغور والتقليب ،
وانفرد ببقية الخصائص والأحوال .

ونسبت إليه الرؤية والإصغاء والفراغ ، وفعل الله في الفؤاد
الثبوت والميل والتقليب .

الفؤاد في السنة المشرفة :

ورد في مسند أحمد من حديث علي بن أبي طالب - رضي الله
عنه - قال : «بعثني رسول الله ﷺ قاصياً إلى اليمن . . فذكر

(١) تفسير القرطبي (٣٧٣/٩) .

الحديث وفيه :قال له رسول الله :«إن الله مثبت قلبك وهاد فؤادك»^(١) .
وتثبيت الله للقلب انفردت به السنة وهي موضحة للقرآن ،
بينما القرآن ذكر التثبيت كفعل من أفعال الله في الفؤاد ، من ذلك
قوله تعالى : ﴿ وَكَلَّا تَقْصُ عَلَيكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَحْنِيَّتْ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾
[هود : آية ١٢٠] .

ومثلها هداية الفؤاد وردت في السنة فعلاً من أفعال الله للفؤاد
بينما في القرآن وردت الهداية للقلب كما في قوله تعالى : ﴿ مَا
أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن :
آية ١١] .

والسنة المشرفة ميّزت بين حالات القلب وحالات الفؤاد .
ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال :
سمعت النبي ﷺ يقول : «جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة وأضعف
قلوباً - وفي رواية - ألين قلوباً وأرق أفئدة»^(٢) .

والرقة : ضد القسوة والشدة .

واللين : بمعنى السكون والوقار والخشوع^(٣) .

(١) مسند أحمد = المسند (١/١٤٩) ، وسنن أبي داود - كتاب القضاء ،
حديث (٣٥٨٢) وأخرجه الترمذي مختصراً وقال : حديث حسن (عون
المعبود ٥٠٠/٩) .

(٢) صحيح مسلم (١/٧٣) كتاب الإيمان ، باب تفاضل أهل الإيمان فيه
ورجحان أهل اليمن فيه .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر مادة رق (٢/٢٥٢) ، مادة لين
(٤/٢٨٦) .

وكل هذه المعاني من أعمال القلوب ، فدل ذلك أن الفؤاد وإن كان مغايراً للقلب إلا أنه جزء منه اختصر ببعض الأحوال .

فالقلب كالوعاء كما في حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : «القلوب أوعية بعضها أوعى من بعض» الحديث^(١) .

(ومثل الفؤاد في القلب كمثل الحدقة في سواد العين ، وكمثل المسجد الحرام في داخل مكة ، وكمثل المخدع والخزانة في البيت ، وكمثل الفتيلة في موضعها وسط القنديل ، وكمثل اللب في داخل اللوز . وهذا الفؤاد موضع المعرفة وموضع الخواطر وموضع الرؤية ، وكلما يستفيد الرجل يستفيد فؤاده أولاً ثم القلب ، والفؤاد في وسط القلب كما أن القلب في وسط الصدر مثل اللؤلؤة في الصدف)^(٢) .

(١) مسند أحمد (١٧٧/٢) ، وإسناده حسن . مجمع الزوائد (١٥١/١٠) .

(٢) بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ص (٣٨) .

المبحث الثاني اللب ومعانيه في اللغة والوحي

اللام والباء : أصل صحيح يدل على لزوم وثبات وعلى خلوص وجودة .

فالأول : ألبَّ بالمكان إذا أقام به .

والمعنى الآخر : اللبُّ معروف من كل شيء ، وهو خالصه وما ينتقى منه ، ولذلك سمِّي العقل لباً ، ورجل لبيب ، وخالص كل شيء لبابه^(١) ولب الرجل ما جعل في قلبه من العقل^(٢) .

ورد أيضاً أن اللب هو العقل^(٣) وبه قال النووي^(٤) أن المراد كمال العقل^(٥) .

(١) مقاييس اللغة (٢٠٠/٥) .

(٢) لسان العرب (٧٢٩/١) .

(٣) القاموس المحيط ص (١٧٠) ، تاج العروس (٤٦٤/١) .

(٤) النووي : يحيى بن شرف بن مري الحزامي النووي محيي الدين ، علامة

بالفقه والحديث ، توفي ٦٧٦ هـ ، الأعلام (١٤٩/٨) .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان (٦٦/٢) .

وقال ابن حجر^(١) : اللب أخص من العقل وهو الخالص منه^(٢) . ويسمى اللب لباً لأنه خلاصة الإنسان ، أو لأنه لا يسمى بذلك إلا إذا خلص من الهوى وشوائب الأوهام ، فهو خالص ما في الإنسان من معانيه ، كاللباب واللّب من الشيء^(٣) .

وقيل : ما زكى من العقل . فكل لب عقل وليس كل عقل لباً .

اللب في القرآن الكريم :

ذكرت هذه المادة ستة عشر مرة في القرآن الكريم ، وقد بين تعالى صفة المستحقين لهذا التويج .

قال تعالى : ﴿ إِن فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران : آية ١٩٠ ، ١٩١] .

ففي الآية حث العباد على التفكير في السموات والأرض والتبصر بآياتها وتدبر خالقها ، لأن فيها من الآيات العجيبة ما يبهر الناظرين ويقنع المتفكرين ويجذب أفئدة الصادقين ، وبنه العقول النيرة على جميع المطالب الإلهية ، وخصّ أولو الألباب وهم : أهل

(١) ابن حجر : أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني ، من أئمة العلم ، ت ٨٥٢ هـ ، الأعلام (١/١٧٨) .

(٢) فتح الباري ، شرح صحيح البخاري (١/٤٠٥) .

(٣) تاج العروس (١/٤٦٤) ، المفردات في غريب القرآن ص (٤٤٦) .

العقول لأنهم هم المنتفعون بها ، الناظرون إليها بعقولهم لا بأبصارهم (١) .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ

أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَذَّكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْعَيْثَ ﴾ [الرعد : آية ١٩ ، ٢٠] .

فلا يتذكر ويتفكر إلا أولو العقول الرزينة والآراء الكاملة ، الذين هم لب العالم وصفوة بني آدم ، ولن تجد أحسن من وصف الله لهم بقوله : الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون العهد الذي عاهدوا الله عليه (٢) .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا

إِلَى اللَّهِ هُمُ الْبَشَرِيُّ فَبَشِّرْ عِبَادَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: آية ١٧-١٨] .

فهذه صفات المؤمنين وقد نعتهم الله بذلك بقوله : ﴿ فَاتَّقُوا

اللَّهَ يَتَّوَلَى الْأَلْبَابِ الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الطلاق : آية ١٠] ، وهم أيضاً

قالوا : ﴿ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ

فَءَامِنَّا ﴾ [آل عمران : آية ١٩٣] .

وقد امتازوا عن غيرهم بالتذكر ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[البقرة : آية ٢٦٩] .

(١) تيسير الكريم الرحمن (١/٤٧٣) ، بتصرف .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٤/١٠٢) بتصرف .

اللب في السنة :

ورد في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري وفيه : «ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب لب الرجل الحازم من إحداهن»^(١) .

وقال ابن حجر في شرحه للحديث : اللب أخص من العقل ، وهو الخالص منه . وقال النووي : المراد كمال العقل .

(ولكن اللب في الفؤاد كمثل نور البصر في العين ، وكمثل نور السراج في فتيلة القنديل ، وكمثل الدهن المكنون في داخل لب اللوز)^(٢) .

ومن مرادفات القلب : العقل :

قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

(١) صحيح البخاري (٧٨/١) كتاب الحيض ، باب (٦) ، صحيح مسلم (١٣٢/١) كتاب الإيمان ، وسيرد في العقل .
(٢) بيان الفرق ص (٣٨) .

المبحث الثالث العقل ومعانيه في اللغة والوحي

العين والقاف واللام أصل واحد يدل عظمه على حبسة في الشيء أو ما يقارب الحبسة ، من ذلك العقل وهو الحابس عن ذميمة القول والفعل^(١) .

والعقل : نقيض الجهل ، يُقال : عقل يعقل عقلاً إذا عرف ما كان يجهله قبل .

والعقل : الحجر والنهي .

وفي قول آخر : التثبت في الأمور .

والعقل : القلب ، والقلب العقل^(٢) .

وقال الفيروز أبادي : العقل : العلم ، أو هو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها ، أو العلم بخير الخيرين وشر الشرين ، أو مطلق الأمور ، أو القوة بها يكون التمييز بين القبح والحسن ، واقتصر كثيرون من علماء اللغة على أن العقل

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٦٩) .

(٢) لسان العرب (١١/٤٥٩) ، تاج العروس (٨/٢٧) .

هو العلم^(١) .

ولكن هناك فرق بين العلم والعقل .

فالعقل : هو العلم الأول الذي يزجر عن القبائح ، وكل من كان زاجره أقوى كان أعقل .

وسمي العقل عقلاً لأنه يمنع صاحبه عن الوقوع في القبيح ، وهو من قولك : عقل البعير إذا شده فمنعه من أن يثور ، ولهذا لا يوصف الله به^(٢) .

بينما العلم : هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة ، ويكون مجملاً ومفصلاً^(٣) .

وخلاف العلم الجهل ، وخلاف العقل الحمق^(٤)

وللعقل ألفاظ مردافة كاللب والحجر والنهى والحلم والحجى .

العقل في القرآن الكريم :

لفظ العقل اسم ليس له وجود في القرآن الكريم ، وإنما استخدم القرآن ما تصرف منه بصيغة الفعل على النحو التالي :

١ - عقلوه : وردت في موضع واحد في قوله تعالى : ﴿ أَفَنظَمُونَ

أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ

يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : آية ٧٥] .

(١) القاموس المحيط ص (١٣٣٦) ، تاج العروس (٢٥/٨) .

(٢) الفروق اللغوية ص (٦٥) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٦٢) .

(٤) الفروق اللغوية ص (٦٦) .

٢ - تعقلون : وردت في أربعة وعشرين موضعاً في مثل قوله تعالى :
﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : آية ٤٤] وأيضاً في مثل قوله تعالى :
﴿ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة :
آية ٢٤٢] .

٣ - نعقل : وردت في موضع واحد في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا
لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك : آية ١٠] .

٤ - يعقلها : وردت في موضع واحد في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ
الْأَمْثَلُ نُضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت
آية ٤٣] .

٥ - يعقلون : وردت في اثنين وعشرين موضعاً في مثل قوله تعالى :
﴿ صُمُّ بَكْمٌ عُمَى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : آية ١٧١] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : آية ٢٢] .

العقل في السنة :

وردت أحاديث كثيرة في فضل العقل ، ولا يكاد يوجد لفظ
المصدر في حديث صحيح إلا ما ورد في الصحيحين عن أبي سعيد
الخدري قال : خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى
فمر على النساء فقال : «يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر
أهل النار . فقلن : وبم يا رسول الله قال : تكثرن اللعن وتكفرن

العشير ، ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم
من إحدانكن . قلنا : وما نقصان عقلنا وديننا يا رسول الله ؟ قال :
أليس شهادة المرأة نصف شهادة الرجل ؟ قلن : بلى . قال : هذا
من نقصان عقلها . . . الحديث^(١) .

قال ابن حجر : ومن فوائد الحديث : أن العقل يقبل الزيادة
والنقصان ، وليس المقصود بذكر النقص في النساء لومهن على ذلك
لأنه من أصل الخلقة^(٢) .

وقال النووي نقلاً عن الإمام أبو عبد الله المازري^(٣) رحمهم
الله : (أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل : تنبيه منه
ﷺ على ما وراءه وهو ما نبه الله تعالى في كتابه بقوله : ﴿أَنْ تَضَلَّ
إِحْدَهُمَا فَتُذَكَّرَ إِحْدَهُمَا الْأُخْرَى﴾ [البقرة : آية ٢٨٢] . أي أنهن
قليلات الضبط)^(٤) .

وأما ما عدا ذلك كحديث :

«أول ما خلق الله العقل فقال له : أقبل ، فأقبل» .

فقد قال ابن تيمية : (اتفق أهل المعرفة بالحديث على أنه
ضعيف بل هو موضوع على رسول الله ﷺ وقد ذكر الحافظ أبو حاتم

(١) صحيح البخاري ، كتاب الحيض (٧٨/١) ، صحيح مسلم كتاب الإيمان
(١٣٢/١) ، النووي (٦٥/٢) ورواه مسلم من طريق عبد الله بن عمر
وعن أبي هريرة وأبي سعيد الخدري .

(٢) فتح الباري (٤٠٦/١) .

(٣) أبو عبد الله المازري : محمد بن علي بن عمر التميمي ، محدث من
فقهاء المالكية ، توفي ٥٣٦ هـ ، الأعلام (٢٧٧/٦) .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي (٦٧/٢) كتاب الإيمان .

البستي^(١) وأبو الحسن الدارقطني^(٢) والشيخ أبو الفرج ابن الجوزي^(٣) وغيرهم أن الأحاديث المروية عن النبي ﷺ في العقل لا أصل لشيء منها وليس في روايتها ثقة يعتمد^(٤).

معنى العقل :

بالتبع في التعريفات اللغوية والأحاديث النبوية نجد أن العقل ليس هو عينا قائمة بنفسها .

يقول ابن الجوزي : العقل يطلق بالاشتراك على أربعة معان :

أحدها : الوصف الذي يفارق به الإنسان البهائم ، وهو الذي استعد لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الخفية الفكرية ، وهو الذي أراده من قال : غريزة ، وكأنه نور يقذف في القلب يستعد به لإدراك الأشياء .

والثاني : ما وضع في الطباع ، من العلم بجواز الجائزات واستحالة المستحيلات .

والثالث : علوم تستفاد من التجارب تسمى عقلاً .

-
- (١) أبو حاتم البستي : محمد بن حبان بن أحمد التميمي ، علامة محدث ، توفي ٣٥٤ هـ ، طبقات السبكي (٢/١٤١) .
- (٢) أبو الحسن الدارقطني : علي بن عمر بن أحمد الشافعي ، إمام عصره في الحديث ، توفي ٣٨٥ هـ ، طبقات السبكي (٤/٣١٤) .
- (٣) أبو الفرج ابن الجوزي : عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي ، علامة في الحديث والتاريخ ، توفي ٥٩٧ هـ ، الأعلام (٣/٣١٦) .
- (٤) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد ص (١٧١) ، أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية ، تحقيق الدكتور موسى بن سليمان الدويش .

والرابع : منتهى قوة الغريزة ، التي تقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة^(١) .

وتقسيم ابن الجوزي ينحصر في ثلاث معان فالأول والثاني بمعنى واحد ، وإبدال كلمة الإرادة بالغريزة أنسب لأن الغريزة : هي الطبيعة^(٢) . والطبيعة : السجية ، وهي ماركب فينا من المظعم والمشرب وغير ذلك^(٣) .

والفرق بين الإرادة والشهوة : أن الإنسان قد يشتهي ما هو كاره له كالصائم يشتهي الماء ويكرهه ، وقد يريد الإنسان ما لا يشتهي كشرب الدواء المر والحمية والحجامة وما يسيل ذلك ، وشهوة القبيح غير قبيحة ، وإرادة القبيح قبيحة فالفرق بينهما بين^(٤) .

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية :

(العقل في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكلام الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين وسائر أئمة المسلمين هو أمر يقوم بالعاقل سواء سمي عرضاً أو صفة ، ليس هو عيناً قائمة بنفسها ، سواء سمي جوهرأً أو جسماً أو غير ذلك)^(٥) .

ومعنى هذا أنه ليس عند الإنسان عضو مستقل يسمى العقل .

(١) الأذكياء ص (١٠) .

(٢) القاموس المحيط ص (٦٦٧) .

(٣) القاموس المحيط ص (٩٦٠) .

(٤) الفروق اللغوية ص (٩٩) .

(٥) مجموع الفتاوى (٢٧١/٩) .

المبحث الرابع الصدر ومعانيه في اللغة والوحي

الصاد والبدال والراء أصلان صحيحان أحدهما يدل على خلاف الورد ، والآخر صدر الإنسان وغيره .

فالأول قولهم : صدر عن الماء . وصدر عن البلاد ، إذا كان وردها ثم شخص عنها .

وأما الآخر فالصدر للإنسان والجمع صدور^(١) .

والصدر : أعلى مقدّم كل شيء وأوله ، حتى إنهم يقولون : صدر النهار والليل وصدر الشتاء والصيف^(٢) .

والصدر من الإنسان والحيوان ما دون العنق إلى فضاء الجوف ، وعند الأطباء : قفص عظمي غضروفي يتضمن الآلات الرئيسية للتنفس والدورة^(٣) .

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/٣٣٧) .

(٢) لسان العرب (٤/٤٤٥) ، تاج العروس (٣/٣٢٨) .

(٣) دائرة المعارف (١٠/٧٠٤) .

الصدر في القرآن الكريم :

ولكن القرآن أثبت له أفعال تصدر منه ، وصفات يكتسبها ، وأفعال ترد عليه من الحق تبارك وتعالى ، وأفعال تؤثر فيه من الخلق .

فأثبت له الانشراح فقال تعالى : ﴿ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ ﴾ [النحل : آية ١٠٦] .

كما أن هذه الصفة فعل الله في العبد كما في قوله تعالى : ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : آية ٢٢] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الانشراح : آية ١] وقوله : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ [الأنعام : آية ١٢٥] . والشرح : التوسعة والفتح والفهم والكشف^(١) .

ومعنى أن يشرح صدره للإسلام (أي يسره وينشطه ويسهله)^(٢) والإسلام مقره الصدر وهو بداية النور ، قال تعالى : ﴿ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ [الزمر : آية ٢٢] . فمقر الإسلام عند المسلم صدره .

فالإسلام والإيمان نور الصدر والقلب وبداية النور علامات الخير والفلاح (فشرح الصدر مقدمة لسطوع الأنوار الإنهية في القلب)^(٣) .

(١) لسان العرب (٢/٤٩٨) ، القاموس المحيط ص (٢٨٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٧٤) .

(٣) التفسير الكبير (٣٨/٢٦) للفخر الرازي .

ضيق الصدر :

كما أثبت الله للصدر حالة الضيق قال تعالى على لسان موسى عليه السلام : ﴿ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي ﴾ [الشعراء : آية ١٣] .
وكما في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرَكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ [الحجر : آية ٩٧] .

وقوله : ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ ﴾ [هود : آية ١٢] .

ثم إن الضيق أيضاً من أفعال الله في الصدور ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام : آية ١٢٥] .

والضيق ضد الاتساع ، والضيق الشك والبخل والعسرة^(١) .

وضيق الصدر المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾ معناه : هو الذي لا يتسع لشيء من الهدى ولا يخلص إليه شيء مما ينفعه من الإيمان ولا ينفذ فيه^(٢) .

وضيق الصدر للمؤمنين انقباض وغم مما يشاهد من أفعال لا ترضي الحق أو توصل الضرر إلى نفسه أو الآخرين .

وقد فسر ابن كثير قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمَكُرُونَ ﴾ [النحل : آية ١٢٧] بالغم^(٣) .

(١) القاموس المحيط ص (١١٦٥) .

(٢) تفسير ابن كثير (١٧٥/٢) .

(٣) تفسير ابن كثير (٥٩٢/٢) .

حرج الصدور:

وأوضح الحق أن الحرج مكانه الصدر كما في قوله تعالى :
كُنْتُ أَنْزِلُ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴿ [الأعراف: آية ٢] .
وفي مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ
ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ [الأنعام : آية ١٢٥] وهو
فعل الله في القلب ، وهذه من صفات النفوس .

كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا
قَضَيْتَ ﴾ [النساء : آية ٦٥] .

والحرج : المكان الضيق الكثير الشجر ، ويأتي بمعنى
الإثم^(١) .

وفسر القرطبي قوله تعالى : ﴿ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾
[الأعراف : آية ٢] أي لا يضيق صدرك بالإبلاغ^(٢) .

وقوله : ﴿ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيْقًا حَرَجًا ﴾ [الأنعام : آية ١٢٥] .

إن الحرج شدة الضيق وفسره ابن عباس فقال : (الحرج
موضع الشجر الملتف فكأن قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة . كما
لا تصل الراعية إلى الموضع الذي التف شجره)^(٣) .

(١) القاموس المحيط ص (٢٣٤) .

(٢) تفسير القرطبي (١٦٠/٧) .

(٣) تفسير القرطبي (٨١/٧) .

الصدر محل الكبر :

كما أوضح الحق أن الصدر مقر الكبر فقال تعالى : ﴿إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّاكِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر : آية ٥٦] .
والكبر من أفعال النفوس بدليل قوله تعالى : ﴿لَقَدْ أَسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾ [الفرقان : آية ٢١] .

الكبر معظم الشيء ، والإثم القبيح من الذنوب ، والتجبر ،
والعظمة^(١) .

كما اختص الصدر بالحصر كما في قوله تعالى : ﴿أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَالُوا لَكُمْ أَوْ يُقَالُوا قَوْمُهُمْ﴾ [النساء : آية ٩٠] .

والحصر - بالتحريك - ضيق الصدر ويأتي بمعنى البخل ،
والعي في الكلام وعدم القدرة على الكتابة ، والكتوم للسر^(٢) .

والحصر : حبس مع تضيق ، يُقال : حصرهم في البلد^(٣) .

وفسر القرطبي قوله تعالى : ﴿حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ﴾
بالضيق^(٤) .

ومن حالات الصدر الرهبة . كما قال تعالى : ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ

(١) القاموس المحيط ص (٦٠٢) .

(٢) القاموس المحيط ص (٤٨٠) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٩٣) .

(٤) تفسير القرطبي : (٣٠٩/٥) .

رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِّنَ اللَّهِ ﴿ [الحشر : آية ١٣] .

والرهبة : الخوف^(١) وتأتي بمعنى الخشية ، وفَسَّرَ القرطبي
الرهبة بالخوف والخشية^(٢) ، ولكن الرهبة أشد من الخوف ؛ (فهي
طول الخوف واستمراره ومن ثم قيل للراهب راهب لأنه يديه
الخوف)^(٣) .

كما جعل الله الابتلاء لما تكنه الصدور قال تعالى : ﴿وَلِيَبْتَلِيَ
اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ﴾ [آل عمران : آية ١٥٤] أي يختبر ما فيها من نفاق وإيمان
وضعف إيمان ، ويمحص ما في قلوبكم من وساوس الشيطان وما
تأثر عنها من الصفات غير الحميدة^(٤) .

والابتلاء : الاختبار والامتحان^(٥) ويكون بالسراء كما بالضرء .
ومعنى قوله تعالى : ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي ليختبر
صبركم ، وقيل : ليقع منكم مشاهدة ما علمه غيباً^(٦) .

ونسب الله تعالى الغل إلى الصدر ، وهو أيضاً سبحانه الذي
ينزعه ، فقال : ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلٍ يَّجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾
[الأعراف : آية ٤٣] .

(١) القاموس المحيط ص (١١٨) .

(٢) تفسير القرطبي (٣٥/١٨) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٢٠٠) .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (٤٤١/١) ، التفسير الكبير (٥٠/٩) .

(٥) المفردات ص (٦١) ، القاموس المحيط ص (١٦٣٢) ، التفسير الكبير

(١٣١/٣١) ، تفسير القرطبي (٨/٢٠) .

(٦) تفسير القرطبي (٢٤٣/٢) .

وكقوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: آية ٤٧].

والغل مقره الصدر، فإن زاد وصل إلى القلب، فقال تعالى على لسان عباده المؤمنين: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الحشر: آية ١٠].

والغل اسم جامع للغش والعداوة والضغن والحقد والحسد^(١).

وأيضاً الصدر محل وسوسة الشيطان قال تعالى: ﴿ أَلَّذِي يُوسَّسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس: آية ٥].

والوسوسة فعل الشيطان في النفس ونسبها الله إلى النفس فقال تعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُ مَا تُوَسَّسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق: آية ١٦].
(والوسوسة: حديث النفس والشيطان بما لا نفع فيه ولا خيب)^(٢).

أو هو الخطرة الرديئة، وأصله من الوسواس وهو صوت الحلي والهمس الخفي).

كما وأن الصدر مكان إخفاء الأسرار قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ

(١) لسان العرب (٥٠١/١١)، النهاية في غريب الحديث (٣/٣٨١)، القاموس المحيط ص (١٣٤٣).

(٢) القاموس المحيط ص (٧٤٨).

تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُوْرِكُمْ أَوْ تَبْدُوْهُ يَعْلَمُهُ اللهُ ﴿ [آل عمران : آية ٢٩] .
وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا تُخْفِي صُدُوْرُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران :
آية ١١٨] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُوْرُ ﴾
[غافر : آية ١٩] .

واشتركت النفس في هذه الخاصية كما في قوله تعالى : ﴿ وَتُخْفِي
فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ [الأحزاب : آية ٣٧] .
وكقوله : ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوْا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوْهُ ﴾ [البقرة :
آية ٢٨٤] .

ولو تتبعنا أحوال وصفات النفس لوجدناها تدور في الصفات
السابقة ، واستقلت بصفات أخرى مغايرة للصدر ، لا مجال لسردها
في هذا البحث .

العلاقة بين الصدر والقلب :

(فالصدر بالنسبة للقلب بمنزلة بياض العين في العين ، ومثل
صحن الدار في الدار ، ومثل الذي يحوط بمكة ، ومثل موضع الماء
في القنديل ، ومثل القشر الأعلى من اللوز الذي يخرج اللوز منه إذا
يبس في الشجر . فهذا الصدر موضع دخول الوسواس والآفات ،
كما يعيب بياض العين آفة البثور وسائر علل الرمذ)^(١) .

(والذي يدخل في الصدر قلما يشعر به في حينه ، وهو موضع

(١) بيان الفرق ص (٣٥) .

دخول الغل والشهوات والمُنَى والحاجات ، وإنه يضيق أحياناً وينشرح أحياناً ، وهو موضع ولاية النفس الأمانة بالسوء ، ولها فيه مدخل وتتكلف أشياء وتتكبر وتظهر القدرة من نفسها .

وهو موضع نوز الإسلام ، وموضع حفظ العلم المسموع ؛ الذي يتعلم من علم الأحكام والأخبار .

وإنما سمي صدرًا لأنه صدر القلب وأول مقامه ، كصدر النهار هو أوله ، وكصحن الدار الذي هو أول موضع منها ، ويصدر منه وساوس الحوائج ، وفكر الاشتغال تصدر منه إلى القلب أيضاً إذا استقرت وطالت المدة^(١) .

فلا انفكاك بين الصدر والقلب فكل منهما مرتبط بالآخر ، وإن استقل كل واحد منهما بصفات مغايرة عن الآخر ففي تفريعهما تشابه ، فانشراح الصدر يؤدي إلى خشوع القلب وهدايته ويمهد لنزول السكينة فيه ، كما وأن ضيق الصدر قد يؤدي بصاحبه إلى عمى القلب .

ومما أطلقه العرب على القلب الروع والخلد والجنان^(٢):

الرُّوع : وهو بالضم القلب ، أو موضع الفزع منه أو سواده ، والذهن والعقل^(٣) .

والرُّوع : الخلد^(٤) .

(١) بيان الفرق ص (٣٥ - ٣٦) .

(٢) اكتفيت بشرح موجز لهذه الألفاظ باعتبار أنها لم تستخدم في اللغة العربية كدلالة على القلب بصفة أساسية .

(٣) القاموس المحيط ص (٩٣٥) .

(٤) المفردات ص (٢٠٨) .

وفي حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : «أخبروني عن شجرة مثلها مثل المؤمن ؟ فجعل القوم يذكرون شجراً من شجر البوادي ، قال ابن عمر : وألقي في نفسي - أروعى - أنها النخلة . . » الحديث^(١) .

قال النووي : والرُّوع هنا بالضم الرء وهو النفس ، والقلب ، والخلد .

والخلد : بالتحريك : البال ، والقلب ، والنفس^(٢) .

والخلد : اسم للجزء الذي يبقى من الإنسان على حالته : فلا يستحيل ما دام الإنسان حياً ، استحالة سائر أجزائه^(٣) .

والجنان : القلب : سمي به لاستتاره في الصدر ، أو لحفظه الأشياء ، أو لكونه مستوراً عن الحاسة ، ويطلق على الرُّوع والروح لأن الجسم يجنّها .

وسمي القلب جناناً لأن الصدر أجنّه^(٤) .

(١) صحيح مسلم ، كتاب صفات المنافقين (٤/٢١٦٥) . حديث رقم (٦٤) .

(٢) القاموس المحيط ص (٣٥٧) .

(٣) المفردات ص (١٥٤) .

(٤) القاموس المحيط ص (١٥٣٢) ، المفردات ص (٩٨) . لسان العرب (٩٣ / ١٣) ، والمصباح المنير في غريب الشرح الكبير نذرفعي ص (١١٢) ، ومعجم مقاييس اللغة (١ / ٤٢١) .

الباب الثاني مراحل حياة القلوب

- الفصل الأول : الفطرة والقلب .
- الفصل الثاني : القلوب الحية ودرجات الايمان .
- الفصل الثالث : أفعال الله في القلوب .

الفصل الأول الفطرة والقلب

- المبحث الأول : الفطرة وعلاقتها بالقلب .
- المبحث الثاني : تعرض الفطرة للانحراف
وأثر ذلك على القلب .

المبحث الأول الفطرة وعلاقتها بالقلب

في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة - رضي الله عنه -
قال : قال النبي ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو
ينصرانه أو يمجسانه . . . » الحديث^(١) .

الحق تبارك وتعالى هياً القلوب على قبول الهدى في أصل
الجبلة ، تقبل الحق وترضاه وتميل إليه ، فهو محبب إلى النفوس ،
خلق الإنسان في أحسن تقويم ، نفخ فيه من روحه ، هياًه لخلافة
الأرض ، وخلق له جنة عرضها السموات والأرض ، أعطاه من
الحرية قدراً ، فتسلط عليه الشيطان من هذا القدر ، فأعطاه قدرة
الدفاع قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ
شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾
[النحل : آية ٧٨] .

(١) صحيح البخاري : كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي ، وباب ما قيل
في أولاد المشركين . انظر فتح الباري (٣/٢٤٥) ، صحيح مسلم رقم
(٢٦٥٨) في القدر .

فالسمع والبصر يمدّان الفؤاد بما يتطلبه الإدراك فتستيقظ الفطرة إلى معرفة الله ، تتذكر العهد الممكنون في عالم الغيب المستكن فيها قبل أن تظهر إلى عالم الشهادة .

(إن العهد الذي أخذه الله على ذرية بني آدم هو عهد الفطرة . فقد أنشأهم مفطورين على الاعتراف له بالربوبية وحده ، أودع هذا فطرتهم فهي تنشأ عليه حتى تنحرف عنه بفعل فاعل يفسد سواءها ويميل بها عن فطرتها)^(١) .

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنَيِّ آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ نَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَهِيَ كُنَّا بِمَفْعَلِ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: آية ١٧٢، ١٧٣] .

فهو ميثاق أقدم من الرسل والرسالات لا سبيل إلى إنكاره . فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقاً ودينياً له ، لكن يعرض لها ما يفسدها ، ومعرفة الحق تقتضي محبته ومعرفة الباطل تقتضي بغضه ، لما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل . فالإقرار به فطرياً ضرورياً في حق من سلمت فطرته لا تحتاج إلى أدلة ولا براهين ، فهو أشد رسوخاً في القلوب من أي شيء آخر .

(١) في ظلال القرآن (١٣٩٣/٩) سيد قطب .

المبحث الثاني تعرض الفطرة للانحراف وأثر ذلك على القلب

الفطرة تتعرض لعوامل الانحراف ، ففي صحيح مسلم عن عياض بن حمار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «يقول الله : إني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً»^(١) .

فشياطين الإنس والجن يعتمدون على نقط الضعف الموجودة في التكوين البشري ، فيحولون الفطرة عن المنهج القويم ، ولهم في ذلك طريقان :

الأول : طريق الشبهات : فيصدونهم عن اتباع الحق بإثارة الشبهات وتشكيكهم في أصول الإيمان وخصائصه قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ

(١) صحيح مسلم ، كتاب الجنة ، باب (١٦) ، حديث (٢٨٦٥) ، (٢١٩٧/٤) .

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا
وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿ [آل عمران : آية ٧] .

الثاني : طريق الشهوات التي تصد القلب عن الاتباع .
فاليهود يعرفون رسول الله ﷺ كما يعرفون أبناءهم . ولا يتبعونه بما
في نفوسهم من الحسد والكبر الذي يوجب بغض الحق ومعاداته ،
والإنسان ضعيف بطبعه ، قال تعالى : ﴿ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴾
[النساء : آية ٢٨] فينتهز الشيطان نقطة الضعف ، فهو يجري في
الإنسان مجرى الدم ، فإذا لم يكن للعبد عاصم من الحق ، أمناه
الشيطان مما هو محبب للنفس ، فيترك ما أمره الله من التكليف قال
تعالى : ﴿ خَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ
يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴾ [مريم : آية ٥٩] .

فطالما ضيعوا الصلاة التي هي عماد الدين وميزان العمل
والإخلاص لرب العالمين ؛ كانوا لما سواها من دينهم أضيع وله
أرفض ، والسبب اتباع شهوات النفس .

فالشيطان بلغ من حقه بعد طرده ولعنته أن يغوي من البشر
كل من لا يلجأ إلى حمى الله ، فيمضي الإنسان بالأمنيات الكاذبة في
طريق الغواية ؛ من لذة كاذبة ، وسعادة موهومة .

وشعور الإنسان بأن هذا الشيطان عدوه القديم ؛ يثير في نفسه
على الأقل الحذر من الوقوع في الفخ الذي نصبه العدو ، فيبقى في
صراع ومعركة دائمة ، فإما أن يكون من حزب الله ولياً من أوليائه ،
وإما أن يكون ولياً للشيطان ، لا ثالث لهما ، وليس هناك وسط .

ومن يجعل الله مولاه فقد فاز ونجى ، ومن يجعل الشيطان

مولاه فقد خسر وهلك ، ولكن حالة استهواء من أحد الطريقتين هي التي تنحرف بالفطرة البشرية عن الإيمان والتوحيد إلى الكفر والشرك ، ولولا هذا الاستهواء لمضت الفطرة في طريقها . ولكن الإسلام هو هادي الفطرة وحاديها ، أي أن الإسلام بداية حلقة السلسلة يرتقي منه الشخص إلى مرتبة أعلى ، فالإسلام وحده مدلول شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فهو في البدء مدلول اعتقاد أن البشر في هذه الأرض خاضعين للناموس الإلهي الواحد الذي يصرفهم ويصرف الأرض كما يصرف الكواكب والأفلاك ، وما تدركه منه العقول وما يقصر عنه إدراك البشر .

فالإسلام بمعناه العملي مرتبة دون الإيمان أوضحها الحق بقوله تعالى : ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّا قُلٌّ لَّمَ تُوْمِنُوْا وَلَكِنْ قُوْلُوْا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيْمَانُ فِي قُلُوْبِكُمْ ﴾ [الحجرات : آية ١٤] .

فهو اعتراف باللسان وبه يحقن الدم . ثم يتدرج في دائرة الإسلام حتى تتم الدائرة ، فإن اقترنت الطاعة مع اعتراف اللسان ، بدأت التكاليف بالأهم فالمهم من الأركان الخمس : صلاة ، زكاة ، صيام ، حج ، ومن بداية التعبديات تبدأ حركة ذات مراحل ، كل مرحلة لها وسائل مكافئة لمقتضياتها وحاجاتها ، وكل مرحلة تسلم إلى المرحلة التي تليها ، فمتى تحرر الإنسان من عبودية الأرض وانتقل إلى عبودية إله الأرض والسماء ؛ لا بد أن تختفي الأهواء شيئاً فشيئاً فيحى القلب ، وتبدأ مرحلة الإيمان .

الفصل الثاني

القلوب الحية ودرجات الايمان

- المبحث الأول : القلب مقر الايمان .
- المبحث الثاني : القلب السليم .
- المبحث الثالث : خشوع القلب .
- المبحث الرابع : تقوى القلوب .
- المبحث الخامس : القلب واللين .
- المبحث السادس : القلب المخبت .
- المبحث السابع : وجل القلب .
- المبحث الثامن : القلب المنيب .
- المبحث التاسع : القلب المطمئن .
- المبحث العاشر : الغين على القلب .
- المبحث الحادي عشر : توضيح مكان القلب المعنوي من الانسان .

المبحث الأول القلب مقر الايمان

تبدأ هذه المرحلة بنهاية القلق والتيه إلى بداية التصور الناصع للقلب البشري ، فهو استمسك بالعروة الوثقى قال تعالى : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ﴾ [البقرة : آية ٢٥٦] وهي حقيقة التوحيد استقبالا كاملا مباشرا للخلق مع الخالق ، استقبال معرفة نابع من القلب ، اعتقاد ووفاء بالفعل (فمن الناس من نور لا إله إلا الله في قلبه كالشمس ، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري ، وآخر كالسراج العظيم ، وآخر كالسراج المضيء ، وآخر كالسراج الضعيف ، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بإيمانهم بين أيديهم على هذا المقدار ، بحسب ما في قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علما وعملا ، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم ؛ أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته) (١) .

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص (٣٧٦) الإمام أبو جعفر الطحاوي ، تحقيق جماعة من العلماء ، تخريج : ناصر الدين الألباني .

وهذه الأنوار المتدرجة تدخل في طبقتي الإيمان والإحسان ، حيث يكون ما هو كالسراج الضعيف أدنى درجة من درجات الإيمان ، وما هو كالشمس أعلى درجة من درجات الإحسان .

فالقلب محل الإيمان قال تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِقَوْلِهِمْ وَهُمْ لَا يَحْزَنُونَ قُلُوبُهُمْ ﴾ [المائدة : آية ٤١] .

والإيمان ضد الكفر ، وهو بمعنى التصديق وضده التكذيب ، والتصديق يقين يحسن به العبد ويشعر به ، وهو درجات يبدأ بالدخول وينتهي بالعبد إلى أعلى مراتب الطمأنينة ، فيرسخ في القلب . قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا دَخَلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : آية ١٤] .

الفرق بين الاسلام والايمان :

إن الإسلام إظهار الخضوع والقبول لما يأتي به النبي ﷺ فإن كان مع ذلك إظهار اعتقاد وتصديق بالقلب وعمل بالجوارح ؛ فذلك الإيمان الذي يُقال للموصوف به هو مؤمن مسلم ، فالمؤمن مبطن من التصديق مثل ما يظهر .

(والأصل في الإيمان الدخول في صدق الأمانة التي ائتمنه الله عليها ، فإذا اعتقد التصديق بقلبه كما صدق بلسانه ، فقد أدى الأمانة فهو مؤمن)^(١) .

والإيمان نور الله في القلب ، يشرق عليه فتشرق به النفس ،

(١) لسان العرب (٣/٢١) .

ويشرق به الكيان البشري عامة ، ولا بد للمركب من الطينة الغليظة
ومن النفخة الإلهية من روح الله ؛ أن تشرق عليه هذه النفخة ، وإلا
كان جسداً من لحم ودم .

ولا بد للنفس البشرية أن يشرق عليها النور النابع من القلب ؛
لترى الطريق فتحذر من الشبهات والشهوات ، ولا بد للفترة من
الإيمان لتزداد معرفة بالخالق ، والقلب مقر الإيمان قال تعالى :
﴿ أَوْلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ ﴾ [المجادلة : آية ٢٢] .

(أي كتب له السعادة وقررها في قلبه ، وزين الإيمان في
بصيرته . قال السدي^(١) : (كتب في قلوبهم الإيمان : جعل في
قلوبهم الإيمان)^(٢) .

وأثبت الحق أن الإيمان يدخل القلوب قال تعالى : ﴿ وَكَمَا
يَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات : آية ١٤] .
وأن القلب يطمئن به قال تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ
مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ﴾ [النحل : آية ١٠٦] .

وقد تولى الله تزيين الإيمان ليقبله القلب وينفتح له ، كما في
قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾
[الحجرات : آية ٧] .

فنور لا إله إلا الله يزيد في القلب إشراقاً إذا عني به . قال

(١) السدي : إسماعيل بن عبد الرحمن السدي ، تابعي ، صاحب التفسير ،
توفي ١٢٨ هـ ، النجوم الزاهرة (١/٣٠٨) .
(٢) تفسير ابن كثير (٤/٣٢٩) .

تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَرَادَتْهُمُ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة : آية ١٢٤] .

والحياة التي يريدتها الله لا بد أن يشرق فيها نور الله ، فالله نور السموات والأرض ، فمن حرم من نور الله أصبح في ظلمات . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور : آية ٤٠] .

والنور واحد لا يتعدد في كتاب الله ، وليس له جمع في الذكر الحكيم للدلالة على مصدره الواحد ، بعكس طرق الضلال ؛ فهي ظلمات بعضها فوق بعض ، وكل ما أتى به رسول الله ﷺ فهو نور يهدي به الله من يشاء من عباده . قال تعالى : ﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴾ [المائدة : آية ١٥] .

والقرآن نور ، قال تعالى : ﴿ فَأَلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ﴾ [الأعراف : آية ١٥٧] .

قال ابن كثير^(١) في تفسير النور في الآية إنه (القرآن وأنوحي الذي جاء به مبلغاً إلى الناس)^(٢) .

والإيمان نور وكل ما جاء من الهدى فهو نور ، فهو حياة القلب قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور : آية ٤٠] .
ومقر هذه الأنوار قلب المؤمن ، فهو مقر الإيمان ومقر

(١) ابن كثير : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي ، حافظ مؤرخ فقيه ، توفي ٧٧٤ هـ ، الأعلام (١/٣٢٠) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٢٥٤) .

القرآن . قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشعراء : آية ١٩٣ ، ١٩٤] .

فإذا تمكن الإيمان من قلب شعّ نوره على الحواس .

القلب موطن الخير :

والإيمان مفتاح كل خير ، مفتاح هداية القلب قال تعالى :

﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن : آية ١١] .

والإيمان حاجز ضد مكاييد الشيطان قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ

لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [النحل : آية ٩٩] .

مهما وسوس فإن القلب العامر بالإيمان يتأبى أن ينساق معه وينقاد إليه ، وقد يخطيء ولكن سرعان ما يتدارك ويعود إلى رشده ويتوب .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ

تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : آية ٢٠١] .

والإيمان كله خير ، وكل بوادهه خير ، وقد ارتبط الخير بالقلب

في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلٌّ لِّمَن فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمُ

اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴾ [الأنفال : آية ٧٠] .

(والخير ضد الشر ، وجمعه خيور)^(١) .

(والخير ما يرغب فيه الكل كالعقل مثلاً ، والعدل ،

(١) لسان العرب (٤/٢٦٤) .

والفضل ، والشيء النافع ، قيل : والخير ضربان .
خير مطلق : وهو أن يكون مرغوباً فيه بكل حال وعند كل
أحد ، كما قال رسول الله ﷺ : «الحياء كله خير» (١) .
والثاني : خير وشر مقيدان : وهو أن يكون خيراً لواحد شراً
لآخر ، كالمال : خيراً لزيد وشرراً لعمر (٢) .
والخير ورد في القرآن على ثمانية أوجه ، منها الخير بمعنى
الإيمان كقوله تعالى : ﴿إِن يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ (٣) .

فالقلب الذي فيه خير مهما قل ؛ لا بد وأن يفتح للإيمان لأن
الشيء يميل إلى شاكلته ، فالفطرة التي لم تـدنس ولم تنحرف هي
الخير ، فإذا جاءها الإيمان أيقظ فيها أجهزة الاستقبال والتلقي
والاستجابة لنور الله .

كل هذه الأمور مجتمعة تدل على : أن قلب صاحبها سليم
خال من الدغل ، والشر ، والشرك ، والكفر ، والضلال ظاهره
كباطنه ، وسره تنطق به جارحته .

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان (٦١) .
(٢) المفردات ص (١٦٠) ، بصائر ذوي التمييز (٥٧٢/٢) .
(٣) الوجوه والنظائر ص (١٦٨) .

المبحث الثاني القلب السليم

(السين واللام والميم - معظم بابه من الصحة والعافية ،
فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى)^(١) .

والسلامة : البراءة . يُقال سلم من الأمر سلامة : نجا ، ومنه
قوله تعالى : ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ [طه : آية ٤٧] أي
من اتبع هدى الله سلم من عذابه وسخطه .

ورجل سليم : أي سالم ، والجمع سلماء ، ومنه قوله تعالى :
﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : آية ٨٩] أي سليم من
الكفر^(٢) .

كما قيل في معنى السليم : هو الذي لم يشرك بالله قط^(٣) .
وأيضاً قيل في معنى السليم : إنه المعافى^(٤) .

(١) مقاييس اللغة (٣/٩١) .

(٢) لسان العرب : (٣٣٧/٨) .

(٣) تأويل مشكل القرآن ص (٣٣٨) أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة .

(٤) الأضداد ص (٣٨) ، عبد الملك بن قريب الباهلي الأصمعي ، الأضداد =

ووردت هذه المادة كصفة من صفات القلب في موضعين من الذكر الحكيم .

الأول : في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ تَى اللَّهُ يِقْلَبِ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء : آية ٨٨ ، ٨٩] .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الصافات : الآيتان ٨٣ ، ٨٤] .

ومما ورد من أدعية رسول الله ﷺ قوله : «أَسْأَلُكَ قَلْباً سَلِيماً»^(١) .

ونجد في معنى القلب السليم أقوالاً كثيرة منها :

أنه سلامة القلب من الشك في توحيد الله والبعث بعد الموت ، وهو قول مجاهد وقتادة والضحاك وغيرهم من أئمة التفسير ، واختاره ابن جرير الطبري^(٢) ^(٣) .

= ص (١١٤) سهل بن محمد بن عثمان السجستاني ، نشرها أوغست هفتر .

(١) سنن النسائي (٥٤/٣) في السهو ، باب : نوع آخر من الدعاء ، مسند أحمد (١٢٥/٤) ، سنن الترمذي رقم (٣٤٠٤) ، وفيه : كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ ، وَحَسْنَ عِبَادَتِكَ ، وَأَسْأَلُكَ قَلْباً سَلِيماً . وَلِسَاناً صَادِقاً» وقال : في إسناده ضعف .

(٢) محمد بن جرير بن يزيد الطبري ، المؤرخ والمفسر ، توفي ٣١٠ هـ ، طبقات السبكي (١٣٥/٢) .

(٣) جامع البيان (٨٧/١٩) ، تفسير القرطبي (١١٤/٧) .

ومدار هذا المعنى على الشرك ، أما الذنوب فلا يسلم منها
أحد .

وقيل : صاحب القلب السليم هو الذي لم يلعن شيئاً قط^(١) .

وأيضاً قيل : إنه قلب المؤمن لأن قلب المنافق مريض لأن الله
قال عنهم ﴿ في قلوبهم مرض ﴾^(٢) وهو قول سعيد بن المسيب^(٣) .

كما قيل إنه القلب الخالص ، أو هو الخالي من البدعة
المطمئن إلى السنة . وهناك أقوال ذكرها الإمام القرطبي وغيره في
تفاسيرهم .

ولكن نبي الله إبراهيم عليه السلام يصرح أنه لا ينجو من

عذاب الله إلا صاحب القلب السليم ، كما قال تعالى عنه : ﴿ وَلَا
تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾
[الشعراء : آية ٨٧ - ٨٩] .

والحق لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، فلا
بدء أن يكون القلب السليم هو قلب كل مؤمن ، فهو بذلك أول
درجات الإيمان ، بهذا القلب استنكر إبراهيم قومه على عبادة
الأصنام واستبشع أفعالهم ، وبهذا القلب انتهت حيرته في بداية أمره
واستقرت في معرفة الخالق جل جلاله ، فهو قلب الفطرة التي بدأت
تصقل وتضيء بعد أن شغ عليها نور الإيمان .

(١) جامع البيان (٢٣/٦٩) .

(٢) جامع البيان (٢٣/٦٩) .

(٣) سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي ، أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ،
توفي ٩٤ هـ ، الأعلام (٣/١٠٢) .

وارتقى قلب إبراهيم عليه السلام ، وارتقى إبراهيم بقلبه
الحي حتى استحق الخلة بعد النبوة . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا
مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ
إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء : آية ١٢٥] .

(فلا أحد أحسن من دين من جمع بين الإخلاص للمعبود وهو
إسلام الوجه لله الدال على استسلام القلب وتوجهه وإنابته
وإخلاصه ، وتوجه الوجه وسائر الأعضاء لله ، وهو مع هذا
الإخلاص والاستسلام متبع لشريعة الله مائلاً عن الشرك إلى
التوحيد)^(١) .

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/١٧٨) .

المبحث الثالث خشوع القلب

ولكن الحق تبارك وتعالى يريد من العبد أن يرتقي إلى مرتبة أعلى من القلب السليم ، يريد أن يخشع لذكر الله وتهزه كلمات الله .

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنَسُوا ﴾ [الحديد : آية ١٦] .

والشاهد في هذه الآية الكريمة : أن الموجّه إليهم الخطاب هم مؤمنون ولكنهم لم تخشع قلوبهم بعد ، مما يدل على أن الخشوع هو الدرجة الأعلى التي تلي درجة القلب السليم ، والتي توصلنا إلى أنها أول درجات الإيمان وأدنى مراتب حياة القلوب .

فما هو الدافع لهذه القلوب أن ترتقي إلى مرتبة أعلى في دائرة الإيمان ؟ إنه الخشوع ، ولكن خشوع القلب ، فأحكام الله تكاليف قال تعالى : ﴿ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : آية ٤٥] .

ومما صح من أدعية رسول الله ﷺ أنه كان يقول في دعائه :
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ»^(١) .

والخشوع في اللغة التظامن ، يُقال خشع إذا تظامن وطأطأ رأسه^(٢) وكل ساكن خاضع خاشع . والتخشع التذلل ، يُقال : خشع سنام البعير إذا أفضى وذهب شحمه وتطأطأ شرفه^(٣) .
فهو يدور حول اللين والسهولة والانخفاض والذل والسكون^(٤) .

وقد ذكر سبحانه وتعالى الخشوع في كتابه في سبعة عشر موضعاً ، وأثبت في آية سورة الحديد خشوع القلب ، فمن الممكن أن يكتسب العبد هذه المنزلة إذا أخلص النية لله ، وصغى لذكر الله حتى تمكن من قلبه (وأوصل أهل التفسير الذكر في القرآن إلى عشرين وجهاً ، منها : التوحيد والصلوات الخمس وصلاة الجمعة والقرآن والثناء على الله وغيرها)^(٥) .

ولكن العلامة المميزة هي حب الصلاة والصبر على كل ما أتى من عند الله . قال تعالى : ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : آية ٤٥] .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الذكر ، باب (١٨) ، حديث (٧٣) . تسلسل (٢٧٢٢) .

(٢) مقاييس اللغة (١٨٢/٢) .

(٣) لسان العرب (٧٢/٨) ، تاج العروس (٣١٨/٥) .

(٤) مدارج السالكين (٥٥٨/١) ، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، ونزهة الأعين النواظر ص (٢٧٦) .

(٥) نزهة الأعين النواظر ص (٣٠١) .

فإنها سهلة خفيفة ؛ لأن الخشوع وخشية الله ورجاء ما عنده
يوجب له فعلها منشرحاً صدره ، لترقبه للثواب وخشيته من العقاب .
بخلاف من لم يكن كذلك ؛ فإنه لا داعي له يدعوه إليها ،
وإذا فعلها صارت من أثقل الأشياء عليه .

والمادة وردت في القرآن الكريم على أربعة أوجه :

أحدها : التواضع . ومنه قوله تعالى ﴿ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ
وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة : آية ٤٥] يعني المتواضعين .
والثاني : الخوف . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهْبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ [الأنبياء : آية ٩٠] .

الثالث : سكون الجوارح ، ورمي البصر إلى موضع
السجود ، ومنه قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ
خَاشِعُونَ ﴾ [المؤمنون : آية ١ - ٢] .

الرابع : الذل والتذلل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ
الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه : آية ١٠٨] ، وقوله
تعالى : ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ﴾ الغاشية : آية ٢] ، وقوله تعالى :
﴿ خَاشِعَةً أَبْصَرَهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ [القلم : آية ٤٣] (١) .

وقال الراغب (٢) : الخشوع : الضراعة ، وأكثر ما يستعمل

(١) إصلاح الوجوه والنظائر ص (١٥٨) ، نزهة الأعين النواظر ص (٢٧٦) .
(٢) الراغب : الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني ، أديب من الحكماء
العلماء ، ت ٥٠٢ هـ ، الأعلام (٢/٢٥٥) .

الخشوع فيما يوجد على الجوارح^(١) . والوجوه السابقة كلها قريبة من تعريف الراجب .

تعريف الخشوع في أقوال العلماء :

مدار الخشوع : تحقيق حقيقة الإيمان في القلب ؛ ليتجرد من التعلق بغير الله ، ويتجه حقيقة لمالك السموات والأرض الذي خاطبه ، فهو أعلم بحاله ومداخله ليخرجه من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان .

لهذا نجد تعريفات متعددة للعلماء في معنى الخشوع :

فالخشوع : فعل يرى فاعله أن من يخضع له فوقه وأنه أعظم منه ، ولا يكون إلا مع خوف الخاشع من المخشوع له ، ولا يكون تكلفاً ، ولهذا يضاف إلى القلب فيقال : خشع قلبه^(٢) .

الثاني : الخشوع والخضوع والتواضع : بمعنى واحد وهو الانقياد للحق^(٣) .

الثالث : الخوف الدائم في القلب^(٤) .

الرابع : الاستسلام للحُكمين ، أي الحُكم الديني الشرعي فيكون معناه عدم معارضته برأي أو غيره ، والحكم القدري وهو عده تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض^(٥) .

(١) المفردات في غريب القرآن ص (١٤٨) .

(٢) الفروق اللغوية ص (٢٠٦) .

(٣) التعريفات ص (٩٨) .

(٤) المرجع السابق نفسه .

(٥) بصائر ذوي التمييز (٢/٥٤٢) .

الخامس : قيام القلب بين يد الرب بالخضوع والذل^(١) .

السادس : خمود نيران الشهوة ، وسكون دخان الصدر ، وإشراق نور التعظيم في القلب^(٢) .

السابع : تذلل القلوب لعلام الغيوب^(٣) .

الثامن : الخشوع : خضوع القلب وطمأننته وسكونه لله تعالى وانكساره بين يديه ذلاً وافتقاراً وإيماناً به وبلقائه^(٤) .

الفرق بين الخشوع والخضوع :

ولكن تعريف الخشوع بالخضوع فيه تسامح ؛ إذ أن الخضوع ورد مرتين في الذكر الحكيم على غير سياق المدح ، فقال تعالى :

﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب: آية ٣٢].

وقال تعالى : ﴿ إِن نَّشَأْنُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا

خَاضِعِينَ ﴾ [الشعراء : آية ٤] .

والخضوع هو التطامن والتطاطؤ ، ولا يقتضي أن يكون معه خوف ، ولهذا لا يجوز إضافته إلى القلب فيقال خضع قلبه ، وقد يجوز أن يخضع الإنسان تكلفاً من غير أن يعتقد أن المخضوع له فوقه ، ولا يكون الخشوع كذلك^(٥) .

(١) مدارج السالكين (١/٥٥٨) .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المرجع السابق نفسه .

(٤) تيسير الكريم الرحمن (١/٨٣) .

(٥) الفروق اللغوية ص (٢٠٦) .

والخشوع محله القلب ، وثمرته على الجوارح ، وهي
نظيره^(١) .

وليس مقصوراً على القلب ؛ بل كل ما في الإنسان له حالة
خشوع ، كالسمع والبصر والمخ والعظم والعصب والوجه
والأصوات ، وكذلك الجماد كالأرض والجبل ، أوضح ذلك القرآن
والسنة ، سواء كان ذلك في الدنيا أو عند البعث .

فمن خشوع الأصوات يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَخَشَعَتِ
الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ [طه : آية ١٠٨] .

وعن الأبصار قال تعالى : ﴿ خَشِيعَةً أَبْصَرُهُمْ يَرَهِقُهُمْ ذُلًّا ﴾ [القلم :
آية ٤٣] ، ومثلها في [المعارج : آية ٤٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلُوبٌ
يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ أَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴾ [النازعات : آية ٩] .
وعن الوجوه قال تعالى : ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ وَجُوهُ
يَوْمَئِذٍ خَشِيعَةٌ ﴾ [الغاشية : آية ٢] .

وعن بقية الجوارح ورد في الحديث الصحيح عن علي بن أبي
طالب - رضي الله عنه - عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا ركع قال :
«اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَلَكَ أَسْلَمْتُ ، خَشِعَ لَكَ سَمْعِي
وَبَصْرِي وَمَخِي وَعَظْمِي وَعَصْبِي . . . » الحديث^(٢) .

(١) مدارج السالكين (١ / ٥٥٨) .

(٢) صحيح مسلم ، كتاب المسافرين ، باب (٢٦) حديث (٢٠١) ، وأخرجه
أبوداود ، في كتاب الصلاة (١١٩) .

وعن الجماد قال تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: آية ٢١] ، وقال تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً﴾ [فصلت: آية ٣٩].
 وسواء كان المقصود من الخشوع حسياً أو معنوياً ؛ فالمقصود التذلل والسكون مع الحق تبارك وتعالى ، وعدم الفتور والتكاسل .
 وفسره الألوسي بأنه : (الانقياد التام لأوامر الله ونواهيه ، والعكوف على العمل بما فيها من الأحكام ، من غير توان ولا فتور)^(١) .

مكانة الخشوع :

أول ما تفقد هذه الأمة الخشوع ؛ فقد ورد في حديث حذيفة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «أول ما تفقدون من دينكم الخشوع ، وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة»^(٢) .
 فالخشوع أول ما يرفع من القلوب ، تتلوه أعمال الجوارح ، كعقد انفرط فتتابع نظمه ، فيذهب الخشوع تكون العبادة بغير روح .

وبذهاب الخشوع يذهب العلم ؛ ففي حديث أبي الدرداء قال : كنا مع رسول الله ﷺ فشرح ببصره إلى السماء ثم قال : «هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدرُوا منه على شيء»

(١) روح المعاني (٢٧/١٨٠) ، تفسير أبي السعود (٥/٢٧٧) .

(٢) المستدرک (٤/٤٦٩) كتاب الفتن والملاحم ، وقال : صحيح الإسناد ، ووافقه الذهبي في التلخيص : تلخيص المستدرک ، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي ، بهامش المستدرک .

وفي الحديث : «إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس؟
الخشوع ، يوشك أن تدخل مسجد جماعة فلا ترى فيه رجلاً
خاشعاً»^(١) .

قال الترمذي : هذا حديث حسن غريب ، وروى بعضهم هذا
الحديث عن عبد الرحمن بن جبير بن نفيير عن أبيه ، عن عوف بن
مالك ، عن النبي ﷺ .

ونلاحظ فيما سبق : أن رسوخ الإيمان وثبوت العبد على أوامر
الله ؛ لا بد له من الصبر على الطاعة ، حتى يبدأ القلب في
الخشوع درجة بعد أخرى ، فقد يخشع مرة تليها ثانية ، فتكرار هذه
الحالة لا بد أن تصبح صفة من صفات القلب الملازمة له ؛ فيحترم
أوامر الله ويعظمها بقلبه ، وتعظيم شعائر الله دليل على أن القلب
ارتفع إلى مرتبة أعلى من الخشوع وهي التقوى . قال تعالى : ﴿ ذَلِكْ
وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : آية ٣٢] .

(١) سنن الترمذي ، أبي عيسى محمد عيسى بن سورة المتوفى ٢٩٧ هـ ،
كتاب العلم (٣٢/٥) ، تحقيق إبراهيم عطوة عوض .

المبحث الرابع تقوى القلوب

التقوى مكانة ومرتبة يرتقي إليها المؤمن ، يؤمر بها العبد حتى قبل دخوله الإسلام ، ويراد بها الحث على الطاعة وإفراد الله بالتوحيد كما هي دعوة الأنبياء . قال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا نُنْفُونَ ﴾ [الشعراء : آية ١٠٦] .

وكقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا نُنْفُونَ ﴾ [الشعراء : آية ١٢٤] ولكن تقوى القلوب وردت في القرآن في موضعين :
الأول : في قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعْرًا لِلَّهِ فَإِنَّهُ مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : آية ٣٢] .

والثاني : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ [الحجرات : آية ٣] .
والواو والقاف والياء : كلمة واحدة تدل على دفع شيء عن شيء بغيره^(١) .

(١) مقاييس اللغة (٦/١٣١) .

(والتقوى : اسم من وقى ، يُقال وقاه الله : صانه وحفظه
وكلاه ، ووقيت الشيء إذا صنته وسترته عن الأذى)^(١) .

(ووقاه الله السوء يقيه وقاية بالكسر أي حفظه)^(٢) .

(والتقوى اعتماد المتقي ما يحصل به الحيلولة بينه وبين ما
يكرهه) .

فالمتقي هو المحترز مما اتقاه^(٣) .

(والتقوى أكثر مدحة من الإيمان^(٤)) ؛ لأن الإيمان قد يتخذه
غيره ، والتقوى لا يتخللها غيرها ؛ ويقارب التقوى الورع ؛ إلا أن
الفرق بينهما : أن التقوى أخذ عدة والورع دفع شبهة ، والتقوى
متحقق السبب والورع مظنون السبب ، والورع تجاف بالنفس عن
الانبساط فيما لا يؤمن عاقبته)^(٥) .

(ويسمى الخوف تارة تقوى والتقوى خوفاً ؛ حسب تسمية
مقتضى الشيء بمقتضيه والمقتضى بمقتضاه)^(٦) .

أما في عرف الشرع :

(فالتقوى حفظ النفس عما يؤثم ، وذلك بترك المحذور ،
ويتم ذلك بترك بعض المباحات)^(٧) في رأي البعض .

(١) لسان العرب (٤٠١/١٥) ، تاج العروس (٣٩٦/١٠) .

(٢) المصباح المنير ص (٦٦٩) .

(٣) نزهة الأعين النواظر ص (٢١٩) .

(٤) الفروق اللغوية ص (١٨٣) .

(٥) نزهة الأعين النواظر ص (٦٦٩) .

(٦) المفردات في غريب القرآن ص (٥٣٠) .

(٧) المفردات في غريب القرآن ص (٥٣١) .

(وقيل : العمل بطاعة الله على نور من الله رجاء رحمة الله ، وترك معاصي الله على نور من الله مخافة عذاب الله) (١) .

(وورد أنها الاحتراز بطاعة الله عن عقوبته ، وهو صيانة النفس عما تستحق به العقوبة من فعل أو ترك) (٢) .

وأيضاً : (فهي عبارة عن كمال التوقي عما يضره في الآخرة) (٣) .

التقوى في أقوال المفسرين :

وذكر أهل التفسير أن التقوى في القرآن على خمسة أوجه :

أحدها : التوحيد ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء : آية ١٣١] .

الثاني : الإخلاص ، ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمِ شَعْرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : آية ٣٢] ، وقوله تعالى ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَمَّحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ﴾ [الحجرات : آية ٣] .

الثالث : العبادة والطاعة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴾ [النحل : آية ٢] ، وقوله تعالى : ﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ نُنْقُونَ ﴾ [النحل : آية ٥٢] .

(١) الدر المنثور في التفسير بالمأثور (١/٦١) ، للإمام عبد الرحمن جلال الدين السيوطي .

(٢) التعريفات ص (٦٥) .

(٣) تفسير أبي السعود (١/٤٨) .

الرابع : ترك المعصية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَتُوا الْبَيْوتَ
مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ ﴾ [البقرة : آية ١٨٩] أي اتركوا خلاف أمره .
الخامس : الخشية ، ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ﴾
[النساء : آية ١] ، وقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾
[الشعراء : آية ١٠٦] (١) .

وقد ذكر القاضي أبو السعود (٢) في تفسيره أن للتقوى ثلاث
مراتب :

الأولى : التوقي عن العذاب المخلد بالتبرؤ عن الكفر ، وعليه
قوله تعالى : ﴿ وَالزَّمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى ﴾ [الفتح : آية ٢٦] .

الثانية : التجنب عن كل ما يؤثم من فعل أو ترك حتى الصغائر
عند قوم ، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع ، وهو المعنى بقوله
تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى ءَامَنُوا وَأَتَقُوا ﴾ [الأعراف : آية ٩٦] .

الثالثة : أن يتنزه عن كل ما يشغل سره عن الحق عز وجل ،
ويتبتل إليه بكليته ، وهي التقوى الحقيقية المأمور بها في قوله
تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ﴾ [آل عمران : آية
١٠٢] (٣) .

(١) نزهة الأعين النواظر ص (٢٢٠) ، بصائر ذوي التمييز (٢/٣٠٠) .
إصلاح الوجوه والنظائر ص (٤٩٤) .

(٢) أبو السعود : محمد بن محمد العمادي الحنفي ، الإمام المفسر ،
ت ٩٨٢ هـ ، شذرات الذهب (٨/٣٩٨) .

(٣) تفسير أبي السعود (١/٤٨) .

وقد ذكر الله هذه المراتب في قوله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا ءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [المائدة : آية ٩٣] .

فربط التقوى الثالثة بالإحسان - وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك - أمر قلبي ، والإحسان مرتبة أعلى من الإيمان (١) .

فأصحاب هذه المرتبة : ذكر الحق تبارك وتعالى أنه يحبهم ، فهي خير الزاد وخير لباس يلبسه القلب .

بعض صفات المتقين :

فالقلب المتقي لا بد من صفات اكتسبها من أثر التقوى ظهرت على الجوارح ، والحق تبارك وتعالى ذكر في كتابه الكريم فقال تعالى : ﴿الَّذِينَ كَانُوا لَا يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ إِذِ انزَلَتْ عَلَيْهِمْ مِّن قِبَلِكُمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ بِهِ حَرَجٌ وَلَا حِزَابٌ وَمَا كَانُوا مِنَ اللَّهِ يَخَافُونَ إِذْ يَأْتِيهِمُ الذِّكْرُ وَتَأْتِيهِمُ السَّخَابَةُ رَوَابِدٌ مِن سَحَابٍ مِّمَّنْ يَنزِلُ فِي أَيِّ صَاحِدٍ مِّنْهُم مِّمَّنْ يَخْتَفُونَ إِذْ يَأْتِيهِمُ الذِّكْرُ وَتَأْتِيهِمُ السَّخَابَةُ رَوَابِدٌ مِن سَحَابٍ مِّمَّنْ يَنزِلُ فِي أَيِّ صَاحِدٍ مِّنْهُم مِّمَّنْ يَخْتَفُونَ إِذْ يَأْتِيهِمُ الذِّكْرُ وَتَأْتِيهِمُ السَّخَابَةُ رَوَابِدٌ مِن سَحَابٍ مِّمَّنْ يَنزِلُ فِي أَيِّ صَاحِدٍ مِّنْهُم مِّمَّنْ يَخْتَفُونَ إِذْ يَأْتِيهِمُ الذِّكْرُ وَتَأْتِيهِمُ السَّخَابَةُ رَوَابِدٌ مِن سَحَابٍ مِّمَّنْ يَنزِلُ فِي أَيِّ صَاحِدٍ مِّنْهُم مِّمَّنْ يَخْتَفُونَ ؟﴾ .

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : آية ١ - ٤] .

(١) التفسير الكبير (٨٤/١٢) الألوسي (١٨/٧) أبو السعود (١١٨/٢) وغرائب القرآن (٩٧ / ١٧) .

وقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا
السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَالْكِبَاطِ مِنَ الْعَقِيطِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ
وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا
لِدُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرَ الدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوْا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ
يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : آية ١٣٣ - ١٣٥] .

وأيضاً في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ
وَضِيَاءَ وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ
السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴾ [الأنبياء : آية ٤٨ - ٤٩] .

وكما في قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَا سَأَلْتَهُم
طَلِيفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : آية
٢٠١] .

وقوله تعالى : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسَنَ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ
فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ ﴾ [الأحزاب : آية ٣٢] .

فالتقوى يستطيع الإنسان أن يكتسبها ؛ لذا اقترنت بالصبر في
أكثر من موضع في كتاب الله . قال تعالى : ﴿ وَإِن تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا
لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً ﴾ [آل عمران : آية ١٢٠] ، وقال تعالى :
﴿ بَلَىٰ إِن تَصَبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ ﴾ [آل عمران : آية ١٢٥] .
وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ

الْمُحْسِنِينَ ﴿ [يوسف : آية ٩٠] .

وهناك ترابط بين الصبر والتقوى والرحمة والأعمال الصالحة في غير موضع من كتاب الله وسنة رسوله ، فتتأجج تقوى القلوب لا تحد بحد ، ولا بد لمن هو في هذه المكانة أن تسطع على قلبه أنوار رحمة الله ، والرحمة فعل الله في القلوب^(١) .

وهي أثر من آثار التقوى ، يستفيد القلب منها اللين ، فبرحمة الله التي نزلها في قلوب عباده يلين القلب من أثر الخشية ، والخشية أثر من آثار المعرفة امتاز بها العلماء ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : آية ٢٨] .

فلا يصل القلب إلى مرتبة حتى يأتي بالتي قبلها ، ولا يرتفع من الأدنى إلى الأعلى إلا من رحم ربك .

(١) سنفرد أفعال الله في القلوب بباب مستقل ومنه الرحمة .

المبحث الخامس القلب اللين

ذكر الله اللين في كتابه في أربع مواضع :

الأول : في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي نَقَّشَ مِنْهُ جُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : آية ٢٣] .

والثاني : قوله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : آية ١٥٩] .

الثالث : في قصة موسى وهارون عندما أرسلهما الله إلى فرعون ، فقال تعالى ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيْتِنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه : آية ٤٤] .

والرابع : في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَجَالُ أُوْبَى مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّالَةُ الْحَدِيدَ ﴾ [سبأ : آية ١٠] .

اللام والياء والنون كلمة واحدة «وهي اللين» : ضد الخشونة .

ويُقال : هو في لِيان من عيش، أي نعمة، وفلان ملينة : أي
لين الجانب^(١) .

واللين يكون على وجهين : لين في الأجسام : كلين الشمع
والحديد وغيره .

ولين في المعاني : كلين الطبع ولين القول^(٢) .

والملاينة : المداهنة ، والألين : اللين^(٣) .

ولين القلب ضد الغلظة ، قال تعالى : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا

الْقَلْبِ لَآتَفَضْنَا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران : آية ١٥٩] .

وقد تجلّى لين القلب في موقف الصديق - رضي الله عنه - مع
أسرى بدر عندما قال رسول الله ﷺ ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟
فقال أبو بكر - رضي الله عنه - : يا رسول الله ؛ قومك وأهلك
استبقهم واستأن بهم لعل الله أن يتوب عليهم ؛ وفي الحديث فقال
رسول الله ﷺ : «إن الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون أليين من
اللين ، وإن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من
الحجارة ، وإنما مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم عليه السلام قال :
من تبغني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم . . . الحديث^(٤)

(١) مقاييس اللغة (٢٢٥/٥) غرائب القرآن ص (٤٥٧) لسان العرب
(٣٩٤/١٣) .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٤/٤٧٢) .

(٣) تاج العروس (٣٣٨/٩) .

(٤) مسند أحمد (٣٨٣/١) حياة الصحابة (١٠٥/٢) محمد يوسف
الكاندهلوي ، والحديث إسناده صحيح . البداية : ابن كثير (٢٩٨/٣) .

وهذا مدح في حق عمر - رضي الله عنه - فهي شدة قلب في الحق .

وعلاوة لين القلب اتباع هدي المصطفى ﷺ . ففي حديث أبي أمامة رضي الله عنه قال : أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال لي : «يا أبا أمامة ! إن من المؤمنين من يلين لي قلبه»^(١)

وقال الطبري في تفسير قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الزمر : آية ٢٣] : يعني إلى العمل بما في كتاب الله والتصديق به^(٢) . ولكن إضافة إلى الاتباع ، فللقرآن وقع على القلب المتقي العالم فيؤثر فيه بالخشية واللين والوجل والاطمئنان .

كما أن بعض القلوب فطرت على اللين ، أو هي امتازت بعناية الرحمة التي وهبها الله ، فكان اللين سجية لها ، كحديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «أناكم أهل اليمن ؛ هم أرق أفئدة وألين قلوباً»^(٣) .

فإذا كان القلب ليناً لا بدّ للفؤاد أن يرق ، فيتقد ويعي ما يصل إليه من الحق ، فيكسب خير الآخرة إضافة لكسبه خير الدنيا ؛ بالإلفة واجتماع الكلمة له ، بعد اجتماع القلب معه مع سكينته

(١) مسند أحمد (٢٦٧/٥) والحديث إسناده جيد ورجاله ثقات . الأحاديث الصحيحة للألباني (١٠٩٥) .

(٢) جامع البيان (٢٣/٢١١) .

(٣) صحيح البخاري (١٢٢/٥) ، كتاب المغازي باب (٣٤) باب قدم الأشعريين وأهل اليمن . وفي عمدة القاري (٣١/١٨) للإمام بدر الدين محمد بن محمود العيني المتوفى ٨٥٥ هـ .

واطمئنان ، وذاك نور على نور .

وهذه الأنوار لها في قلوب أهل العلم حالات أُخر ، فإذا ازداد
علماً من أثر اتقاد القلب وصاحبهُ تقوى ؛ أدى إلى الإخبات .

المبحث السادس القلب المخبت

الخبث ورد في القرآن الكريم في ثلاث مواضع :

الأول : في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَآخَبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [هود :
آية ٢٣] .

والثاني : في قوله تعالى : ﴿ فَالْهَٰكُمُ إِلَٰهُ وَحِدٌ فَلَهُ ءَاسَلِمُوا وَبَشِّرِ
الْمُخْبِتِينَ ﴾ [الحج : آية ٣٤] .

والثالث : في قوله تعالى : ﴿ وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ
الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحج : آية ٥٤] .

وكان من دعاء رسول الله ﷺ فيما رواه عنه ابن عباس - رضي
الله عنهما - : «اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي لَكَ شَاكِرًا ، لَكَ ذَاكِرًا ، لَكَ رَاهِبًا ،
لَكَ مَطْوَعًا ، إِلَيْكَ مَخْبِتًا - أو منيبًا . . » الحديث^(١) . إسناده حسن

(١) سنن أبي داود (٨٤/٢) حديث رقم (١٥١٠) ، عون المعبود ، شرح سنن
أبي داود (٣٧٦/٤) رقم (١٤٩٦) .

وله شواهد . كنز العمال (٣٧٢٩) .

فما هو الخبت ؟ :

الخبت كلمة عربية محضة تطلق على ما اتسع من بضون الأرض ، وجمعه أخبات ، وخبوت .

وقال ابن الأعرابي : الخبت ما اطمأن من الأرض واتسع (١) .

وقيل : الخبت ما اطمأن من الأرض وغمض ، فإذا خرجت منه أفضيت إلى سعة .

وقيل : الخبت الوادي العميق الوطىء ، ممدود ، ينبت ضروب العضاة .

وقيل : الخبت الخفي المطمئن من الأرض ، فيه رمل (٢) .

قال الشاعر الجاهلي ضمرة بن ضمرة في قصيدة طويلة منها :

ولجندب سهل البلاد وعذبها ولي الملاح وخبتهن المجدب (٣)

والخبت : ما انخفض من الأرض (٤) ، أو هو المطمئن من الأرض فيه رمل (٥) .

= سنن الترمذي كتاب الدعوات باب (١٠٣) . حديث (٣٥٥١) .
(٥٥٤/٥) وقال : حديث حسن صحيح .

(١) لسان العرب (٢٧/٢) .

(٢) لسان العرب (٢٧/٢) ، تاج العروس (٥٤٠/١) .

(٣) خزانة الأدب ولب لسان العرب (٣٨/٢) عبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق عبد السلام محمد هارون .

(٤) التفسير القيم ، للإمام ابن القيم ص (٣١٠) ، جمعه : محمد أويس الندوي ، تحقيق محمد حامد الفقي .

(٥) التفسير القيم (٤٠/٢) ، (٥٢/١١) .

فأصل الكلمة يدل على المكان المنخفض من الأرض^(١) ، أو الاستواء من الخبت وهو الأرض المستوية الواسعة^(٢) .

وقد وردت في القرآن الكريم على وجهين :

الأول : أختبوا يعني أخلصوا ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَأَخْبَتُوا

إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ [هود : آية ٢٣] يعني أخلصوا ، ومثلها في [الحج : آية ٣٤] ﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴾ يعني المخلصين .

الثاني : الإخبات : القبول ، ومنه قوله تعالى في سورة

[الحج : آية ٥٤] ﴿ فَتَخَبَّتْ لَهُمُ قُلُوبُهُمْ ﴾ يعني فتقبل له صدورهم^(٣) .

ولكن الراغب الأصفهاني اعتبر الخبت بمعنى اللين والتواضع والخشوع وذكر الآيات الثلاث في باب واحد ، وكأن الوجه الثاني بمعنى الأول^(٤) وكذلك الفيروز أبادي في البصائر^(٥) وابن الأثير في النهاية^(٦) .

واختلف أهل التفسير في معنى الإخبات .

(فقال مجاهد : هو الطاعة .

وروي عن ابن عباس والضحاك : أنه التواضع والخضوع .

(١) مدارج السالكين (٣/٢) .

(٢) أحكام القرآن (٢١/٩) .

(٣) إصلاح الوجوه والنظائر ص (١٥٣) .

(٤) المفردات في غريب القرآن ص (١٤١) .

(٥) بصائر ذوي التمييز (٥٢١/٢) .

(٦) النهاية في غريب الحديث (٤/٢) .

كما روي عن قتادة ومقاتل^(١) أنه الإخلاص^(٢).

وجميع هذه الأقوال تدور على معنى السكون إلى الله وتتضمن معنى الطمأنينة ، وهو أول مراتبها . فتقوى القلوب تؤدّي إلى العمل الصالح ، فيلين القلب ، ويثمر الإخبات الذي يكون حالة من حالات القلب الحي ، ثم يصبح صفة من صفاته ، فهو صفة العلماء العاملين الصابرين على ما أصابهم مستسلمين للطاعة بعدم الاعتراض على قضاء الله ، وعبادته بتفان وانقياد والإنفاق في مرضاته ، فهو تحول مطلق وتفان تام للحق تبارك وتعالى .

وقال ابن القيم : (اعلم أنه متى استقرت قدم العبد في منزلة الإخبات وتمكن فيها ؛ ارتفعت همّته وعلت نفسه عن خطفات المدح والذم ، فلا يفرح بمدح الناس ولا يحزن لذمهم ، هذا وصف من خرج عن حظ نفسه وتأهل للفناء في عبودية ربه ، وصار قلبه مطرحاً لأشعة أنوار الأسماء والصفات ، وباشر حلاوة الإيمان واليقين قلبه)^(٣) .

وقال أيضاً : (النفس جبل عظيم شاق في طريق السير إلى الله عزّ وجلّ ، وكل سائر لا طريق له إلا على ذلك الجبل فلا بد أن ينتهي إليه ، ولكن منهم من هو شاق عليه ، ومنهم من هو سهل عليه ، وإنه ليسير على من يسره الله)^(٤) .

(١) مقاتل : مقاتل بن سليمان الأزدي ، مفسر ، توفي ١٥٠ هـ ، الأعلام (٢٨١/٧) .

(٢) جامع البيان (٢٤/٢ ، ١٦١/١٧) الدر المشور (٤١٤/٤ ، ٤٩/٦) الجامع لأحكام القرآن (٢١/٩) ، روح المعاني (١٥٤/١٧) .

(٣) مدارج السالكين (٦/٢) .

(٤) مدارج السالكين (٨/٢) .

ولكن صفاء القلب من دون الذنوب العظام ، والتفكر في قدرة الله ، والتفاني في طاعته بعمار الدنيا والآخرة ، وجعل الدنيا طريق الآخرة بإيمان كامل ، ويقين صادق ، ومداومة على الطاعة في الحدود المشروعة ، سينقله من مرتبة الإخبات إلى مرتبة الوجل ، لأن المخبت إذا ذكر الله وجل قلبه .

المبحث السابع القلب الوجل أو وجل القلب

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿فَاللَّهُكُمْ إِلَهُ وَحْدَهُ فَلَهُ اسْلِمُوا أُوشِرِ
الْمُخِيتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ
وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الحج : آية ٣٤ - ٣٥] .

وذكر الله سبحانه وتعالى «الوجل» في كتابه الكريم في أربعة
مواضع في ثلاث منها أثبت الوجل للقلب :

فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ
وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال :
آية ٢] .

وقال تعالى : ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِرِينَ عَلَىٰ مَا
أَصَابَهُمْ﴾ [الحج : آية ٣٥] .

وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ
رَاجِعُونَ﴾ [المؤمن : آية ٦٠] .

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنِدَّاهُمْ عَنْ ضَيْفِ ابْرَاهِيمَ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ قَالُوا لَأَنُوجِلَ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [٥١ - ٥٣] .

وفي حديث العرياض بن سارية - رضي الله عنه - قال : صلى بنا رسول الله ﷺ ذات يوم ثم أقبل علينا بوجهه ، فوعظنا موعظة بليغة ذرّفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب . . الحديث^(١) .

الوجل في كلام العرب :

إذا عدنا إلى معاجم اللغة لوجدنا أن الوجل هو : الفرع والخوف . يُقال : وجل وجللاً^(٢) أو هو استشعار الخوف^(٣) .

واستشهد بقول الشاعر :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل على آينا تعدو المنية أول

وقال البغدادي^(٤) في الخزانة : هو الخوف^(٥) .

(ولكن الخوف هو : توقع الضرر المشكوك في وقوعه ، ومن

(١) سنن أبي داود رقم (٤٦٠٧) باب لزوم السنة ، سليمان بن الأشعث السجستاني ، ت ٢٧٥ هـ ، تعليق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، والترمذي في العلم رقم (٢٦٧٨) باب (١٦) وإسناده صحيح . وأخرجه أحمد في المسند (٤/١٢٦ ، ١٢٧) .

(٢) لسان العرب (١١/٧٢٢) القاموس المحيط ص (١٣٧٩) تاج العروس (٨/١٥٣) .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص (٥١٣) .

(٤) البغدادي : عبد القادر بن عمر البغدادي ، علامة بالأدب والتاريخ ، ت ١٠٩٣ هـ ، الأعلام (٤/٤١) .

(٥) خزانة الأدب (٨/٢٨٩) ، (١/٦١) .

يتيقن الضرر لم يكن خائفاً له . وكذلك الرجاء لا يكون إلا مع الشك ، ومن تيقن النفع لم يكن راجياً له^(١) فعلى هذا يكون الخوف خلاف الرجاء .

(أما الوجل خلاف الطمأنينة ، وجل الرجل يوجل ويوجل وجلاً إذا قلق ولم يطمئن . ويُقال : أنا من هذا على وجل ومن ذلك على طمأنينة ، ولا يُقال : على خوف في هذا الموضع .

وفي القرآن الكريم قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج : آية ٣٥] .

أي إذا ذكرت عظمة الله وقدرته لم تطمئن قلوبهم إلى ما قدموه من الطاعة ، وظنوا أنهم مقصرون ، فاضطربوا من ذلك وقلقوا ، فليس الوجل من الخوف في شيء ، وخاف متعد ، ووجل غير متعد وصيغتهما مختلفتان أيضاً ، وذلك يدل على فرق بينهما في المعنى^(٢) .

فالوجل مقترن بالعمل الصالح وهو البذل والعطاء ، وقد يكون من الإجلال والمهابة لعظمة الله وسلطانه ، أو لوعده ووعيده ، ومحاسبته لخلقه وإدانتهم^(٣) .

وقد يقول المؤمن في تهجده «الله أكبر» مستحضراً لمعنى كبرياء الله فينتفض ويقشعر جلده ، ولا يوجد الوجل في كتاب الله عند وصف جهنم وذكر الحساب والجزاء ، والوجل يكتسبه المؤمن

(١) الفروقات اللغوية ص (١٩٩) .

(٢) الفروقات اللغوية ص (٢٠٢) .

(٣) تفسير المنار (٥٨٩/٩) .

بزيادة تلاوة كتاب الله واستشعار مكانة الله في قلبه ، بخلاف الخوف فإنه أمر نفسي . قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ [طه : آية ٦٧ - ٦٨] وهو عام في حق الله ومن خلقه .

فوجل القلب مكانة عالية (روي أن الحسن سأل رجل وقال : أمؤمن أنت ؟ فقال : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألني عن إيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، فأنا مؤمن ، وإن كنت تسألني عن قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ فوالله لا أدري أمنهم أنا أم لا) (١) .

والعبد الحي إذا ذكر العقاب لا يأمن من الوقوع في المعاصي ، فهو في حالة وجل ، ويوضح ذلك أن أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - قالت : سألت رسول الله ﷺ عن قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَاءً تَوْأَمًا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون : آية ٦٠] .

«قالت عائشة : هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : لا . يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات» (٢) .

فإذا استصغر العبد عبادته ، واستقل كل طاعة بجانب لاء الله ونعمائه ، إضافة إلى استشعار جلال الله وعظمته وهيبته : تمكن من

(١) التفسير الكبير (١٥/١٢٢) .

(٢) سنن الترمذي (٥/٣٢٧) ، كتاب التفسير ، باب : ومن سورة المؤمنين ، حديث رقم (٣١٧٥) . وله شواهد .

قلبه ، فأشفق أن يلقي الله وهو مقصر في حقه ، فازداد مسارعة في الخيرات بسبب يقظة القلب الوجل ، وهو أمر في حدود طاقة الإنسان واستطاعته ، وهو علامة من علامات تيقظ العبد يرى أنه مقصر في جانب الله (لأن الوجل هو بذكر العقاب)^(١) فتكثر منه الشفقة ، فيكثر من التوبة والاستغفار والتأسف على ما حصل منه ، وهذه الأفعال ترفعه إلى درجة الإنابة .

(١) التفسير الكبير (٤٩/١٩) .

المبحث الثامن القلب المنيب

إنابة القلب وردت في موضع واحد في قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ
الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ
بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق : آية ٣١ - ٣٣] .

والإنابة رجوع وتسليم لله تعالى ، ولكنها قد تكون منسوبة
للذات الإنسانية ، والإنابة حال لها كما في مثل قوله تعالى : ﴿وَإِذَا
مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ عَوَّارَهُمْ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: آية ٣٣] وهذه لا ترفع العبد عن مرتبته
بل ربما أوصلته إلى الضلال ، إنما الإنابة إذا وقعت في القلب رفعته
منزلة أعلى اتصف بها أنبياء الله عليهم السلام .

والإنابة كلمة واحدة تدل على اعتياد مكان ورجوع إليه^(١) .
وانتاب الرجل القوم انتياباً إذا قصدهم وأتاهم مرة أخرى ،
وأنا ب فلان إلى الله أقبل وتاب ورجع إلى الطاعة^(٢) .

(١) مقياس اللغة (٥/٣٦٧) .

(٢) لسان العرب (١/٧٧٥) ، تاج العروس (١/٤٩٦) .

والإنابة الرجوع إلى الطاعة ، فلا يُقال لمن رجع إلى المعصية أنه أناب ، والمنيب اسم مدح كالمؤمن والمتقي^(١) .

والإنابة الدعاء ، وكأن معناها : عليه توكلت وله أدعو^(٢) .

والملاحظ من المعنى اللغوي أن المادة تدور حول الرجوع ومعنى القصد ، والمعنى الاصطلاحي في القرآن هو الرجوع إلى الله والتوبة إليه . ولعل أبو هلال العسكري منع وصف العائد إلى المعصية بالإنابة لأنها وردت في القرآن مقصورة على الرجوع إلى الله .

وصف الحق بها أبا الأنبياء فقال تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ

لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴾ [هود : آية ٧٥] .

والأواه كثير التأسف والتأوه على ما وقع فيه كثير من الناس في الذنوب ، وهي صفة تدل على الشفقة عند من يشاهد الشدائد على الغير ، فإنه ينيب ويتوب ويرجع إلى الله تعالى في إزالة العذاب عنهم^(٣) ، فمن كان لا يرضى بوقوع غيره في الشدائد فمن باب أولى أنه لا يرضى بوقوع نفسه فيها ، ولا طريق إلى صون النفس عن الوقوع في عذاب الله إلا بالتوبة ، فوجب فيمن هذا شأنه أن يكون منيباً .

والمنيب : الراجع إلى الله تعالى^(٤) ، وإبراهيم كان راجعاً

(١) الفروق اللغوية ص (٢٥٠) ، تفسير القرطبي (٧٣/٥) .

(٢) فتح القدير (٥١٩/٢) ، محمد بن علي الشوكاني .

(٣) روح المعاني (١٠٤/١٢) .

(٤) فتح القدير (٥١٢/٢) .

إلى الله تعالى في أموره كلها^(١) .

وكما ورد على لسان شعيب في قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود : آية ٨٨] أي (أرجع إلى الله فيما أنا بصدده)^(٢) .

فإذا توكل العبد على الله واستسلم له ؛ تأكد له معرفة المعاد ، فيعلم علم يقين أن لا مرجع للخلق إلا إلى الله تعالى . فصاحب هذه الحالة فوض جميع أموره إلى ما يختاره الله له من قضائه وقدره وعلم أن إليه الرجوع في الآخرة .

كما أنه امتاز بالتفكير في آيات الله والتذكر أنها دلالة من دلالات الخالق جلت عظمته ، كما في قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُرِيكُم آيَاتِهِ وَيُنزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴾ [غافر : آية ١٣] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَا وَالْقِيَامَ فِيهَا رَوْسِيًّا وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ [ق : آية ٧ - ٨] .

وامتاز بالاستغفار وكثرة الصلاة إذا انتابه أمر وطن أنه ابتلي فلم يستطع ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : آية ٢٤] ، ثم يقول تعالى : ﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَازْفَنِيًّا وَحُسْنِ مَعَابٍ ﴾ ، فكان الحق تبارك وتعالى وعد من أذن واستغفر بقلب منيب ؛ فجزاؤه القربة بعد المغفرة

(١) تفسير القرطبي (٧٣/٥) .

(٢) روح المعاني (١٢١/١٢) .

والوعد بالجنة ، ووصفهم تبارك وتعالى بأنهم أولو الألباب ، فهم يسرون بهدى من الله ، ونور الإيمان بين جوانحهم .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ أَتْلُوبُونَ ﴾ [الزمر : آية ١٧ - ١٨] .

فالإنابة إلى الله تعالى هي كثرة الرجوع إليه عز وجل بعد الذنوب ، أو بعد الغفلة ، فهي من صفات القلوب الحية العامرة بالإيمان ، بل هي درجة عليا من درجات الإيمان ، وكأن الحلم والأناة وكثرة التأوه ؛ مظهر خلقي سلوكي لدافع قلبي باطني عند المؤمن هو الإنابة .

وقد تكون حالة لازمة لكل مؤمن قلبه عامر بالإيمان ، فيرتقي بها إلى مكانة عليا في مراتب الإيمان ، وتلازمه هذه الحالة حتى تكون صفة من صفات القلب ، فيسكن القلب بها إلى الحق وقوف الحق ، فترفعه إلى مرتبة الاطمئنان .

المبحث التاسع القلب المطمئن

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ أَلَّهِ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنْابَ
الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا يَذَكِّرُ اللَّهُ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾
[الرعد : آية ٢٧ - ٢٨] فيبين الإنابة والطمأنينة صلة وثيقة .

قال ابن فارس : الطاء والميم والنون أصيل بزيادة همزة ،
يُقال : اطمأن المكان يطمئن طمأنينة . وطامت منه : سكنت (١) .
يُقال : اطمأن إلى كذا اطمئناناً وطمأنينة بالضم : سكن إليه
ووثق به ، فهو مطمئن ، والنفس المطمئنة التي اطمأنت
بالإيمان (٢) .

والمادة موضوعة للسكون بعد الانزعاج (٣) .

(والفرق بين الطمأنينة والسكينة أن كل منهما تستلزم

-
- (١) مقاييس اللغة (٤٢٢/٣) ، لسان العرب (٢٦٨/١٣) .
(٢) تاج العروس (٢٧٠/٩) ، المغرب في ترتيب المعرب ص (٢٩٤) الإمام
ناصر بن عبد السيد المطرزي ، ت ٦١٦ هـ .
(٣) بصائر ذوي التمييز (١٦٥/٢) ، المفردات ص (٣٠٧) .

الأخرى ، لكن استلزام الطمأنينة للسكينة أقوى من العكس ، ثم إن الطمأنينة أعم من السكينة وهي على درجات : طمأنينة القلب بذكر الله ، وهي طمأنينة الخائف إلى الرجاء ، والضجر إلى الحكم ، والمبتلى إلى المثوبة .

والطمأنينة سكون أمن فيه استراحة أنس ، والسكينة : صولة تورث خمود الهيبة ، والسكينة تكون حيناً بعد حين ، وانضماماً لا تفارق صاحبها ، وكأنها نهاية السكينة^(١) .

وقد ورد الاطمئنان في القرآن على ثلاثة أوجه :

الأول : بمعنى السكون والقرار .

قال تعالى : ﴿ وَلَٰكِن لِّيَطْمِئِنَّ قَلْبِي ﴾ [البقرة : آية ٢٦٠] ^(٢) يعني ليسكن قلبي إذا نظرت إليه .

وكقوله تعالى : ﴿ وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا ﴾ [المائدة : آية ١١٣] يعني

تسكن قلوبنا إذا رأينا المائدة .

وكقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ [الرعد : آية ٢٨] أي تسكن قلوبهم ، ومثلها قوله تعالى : ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد : آية ٢٨] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنَطْمِئِنَّ قُلُوبِكُمْ بِهِ ﴾ [آل عمران : آية ١٢٦] يعني تسكن ، نظيرها في سورة الأنفال يوم بدر قوله تعالى ﴿ وَلِنَطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبِكُمْ ﴾ [الأنفال :

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/٥١٧) .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٢/١٦٥) .

آية ١٠ [١] .

الثاني : بمعنى الميل والرضا .

كقوله تعالى : ﴿ وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾ [يونس :

آية ٧] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأَيْمَنِ ﴾ [النحل : آية ١٠٦] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴾ [الحج : آية

[١١] .

وأيضاً قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنِّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً

مَرْضِيَّةً ﴾ [الفجر : آية ٢٧] .

الثالث : بمعنى الإقامة التي هي ضد السفر .

ومن هذا الوجه قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا اطْمَأَنَّتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾

[النساء : آية ١٠٣] أي إذا أقمتم فأتوا الصلاة .

وكقوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةً يَمْشُونَ

مُطْمَئِنِّينَ ﴾ [الإسراء : آية ٩٥] أي مقيمين^(٢) .

والقلب المطمئن هو الذي يستكين لكلام الله المعجز الذي لا

يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا

وَنَطَّمَيْنُ قُلُوبَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ الْاَبْدِكِرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد :

آية ٢٨] .

(١) الوجوه والنظائر ص (٢٩٨) .

(٢) نفس المصدرين السابقين .

والاطمئنان أتى بصيغة المضارع لإفادة دوامه وتجديده^(١) ،
فكلما سمع كلام الله خشع وسكن .

كما أن الطمأنينة ترد على صاحب القلب الحي عند اشتغاله
بالطاعات ؛ ليقينه في صدق وعد الله ، وأن محمداً ﷺ صادق في
كل ما أخذ عنه ، وهذه صفة الصفوة الطاهرة ، فهي منكة ينميه
العبد حتى لا يفارقه .

يقول الفخر الرازي^(٢) : إن القلب كلما وصل إلى شيء فإنه
يطلب الانتقال منه إلى حالة أخرى أشرف منها ، لأنه لا سعادة في
عالم الأجسام إلاً وفوقها مرتبة أخرى في اللذة والغبطة ، أما إذا
انتهى القلب والعقل إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهية والأضواء
الصمدية ، بقي واستقر فلم يقدر على الانتقال منه البتة ، لأنه ليس
هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منها وأكمل ، فلهذا قال
تعالى : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُصِيبُنَّ الْعَذَابُ الَّذِي لَمْ يَرْجُوا سَعَادَةً لَّهُمْ لَأَنَّهُمْ
كَانُوا كَافِرِينَ﴾^(٣) .

وفي الآية إشعار بأن الكفرة ليست لهم قلوب تفقه وأفندتهم
هواء ، حيث لم يطمئنوا بذكر الله تعالى ، ولم يعدوه آية وهو أظهر
الآيات وأبهرها^(٤) .

وسبب الطمأنينة (نور يفيضه الله تعالى على قلب المؤمن
بسبب ذكره ، فيذهب ما فيها من القلق والوحشة)^(٥) .

(١) الألويسي (١٤٩/١٣) ، تفسير أبي السعود (٢٢٢/٣) .

(٢) الفخر الرازي : محمد بن عمر بن الحسن التيمي أبو عبد الله ، الإمام
المفسر ، ت ٦٠٦ هـ ، الأعلام (٣١٣/٦) .

(٣) التفسير الكبير (٥٠/١٩) .

(٤) أبو السعود (٢٢٢/٣) ، روح المعاني (١٤٩/١٣) .

(٥) روح المعاني (١٥٠/١٣) .

فذكر الله تعالى أفضل الأعمال الصالحة ، وخير الذكر القرآن الكريم ، ثم ما ورد عن رسول الله ﷺ بسند صحيح من تسبيح وتهليل ودعاء وتنفل بأنواع العبادات المشروعة ، يرتقي بها الإنسان إلى درجات القلب ومراتبه المتفاوتة .

ومهما بلغ العبد من درجات الكمال فلا بد له من لحظات يشعر فيها بالتقصير في جانب الحق تبارك وتعالى ، وخاصة من ازداد تعظيم الجلال في قلبه ، ورسول الله ﷺ وهو الذي بلغ السماوات العلى وحاز على أعلى مراتب الطمأنينة ، تعتريه حالة اختص بها تزيده قرباً بزيادة استغفاره ، وهي حالة الغين .

المبحث العاشر الغين على القلب

أخرج الإمام مسلم وأبو داود عن الأغر المزني ، وكانت له صحبة ، أن رسول الله ﷺ قال : «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»^(١) .

والغين : قريب من الغيم ، والغيم : كلمة تدل على ستر شيء لشيء . يُقال : غامت السماء ، والغيم : العطش وحرارة الجوف ، لأنه شيء يغشى القلب ، ومثل ذلك الغين فيقال : غين على قلبه ؛ كأن شيئاً غشيه ، غطى عليه وألبس^(٢) .

وهذه المادة لم ترد في القرآن الكريم ، إنما وردت في السنة مرة واحدة ، حالة تغشى قلب المصطفى ﷺ فيستغفر الله .

وسرد الامام النووي أقوال العلماء فقال :

(١) صحيح مسلم كتاب الذكر ، باب استحباب الاستغفار ، عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣٧٩/٤) ، كتاب الوتر ، باب في الاستغفار ، حديث رقم (١٥٠١) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤/٤٠٦ ، ٤٠٧) ، لسان العرب (١٣/٣١٦) ، النهاية (٣/٤٠٣) .

- ١ - المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان شأنه الدوام عليه ، فإذا فتر عنه أو غفل عدّ ذلك ذنباً واستغفر منه .
- ٢ - وقيل هو همّه بسبب أمته ، وما اطلع عليه من أحوالها بعده ؛ فيستغفر لهم .
- ٣ - وقيل سببه اشتغاله بالنظر في مصالح أمته وأمورهم ، ومحاربة العدو ومداراته ، وتأليف المؤلفة ونحو ذلك ، فيشتغل بذلك من عظيم مقامه ، فيراه ذنباً بالنسبة إلى عظيم منزلته .
- ٤ - وقيل : يحتمل أن الغين هو السكينة التي تغشى قلبه ، ويكون استغفاره إظهاراً للعبودية وملازمة الخشوع^(١) .
- وذكر العظيم أبادي صاحب «عون المعبود» بعض أقوال للعلماء في هذا الشأن لا تخرج عما ذكره الإمام النووي . وهذه حالة ترد على رسول الله ﷺ تدعوه إلى الاستغفار ، وقدره أعلى من أن يخوض فيه مثلي أو يستنبط معناه ، ولو وردت في غيره ﷺ لأدليت بدلوي .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢٤/٩) .

المبحث الحادي عشر توضيح مكان القلب المعنوي من الانسان

ومما مرّ ؛ يتضح أن القلب هو أشرف ما في الإنسان وأرفعه ، فليس هو مضخة فقط تضخ الدم ، إنما هناك لطيفة رحمانية هي حقيقة الإنسان ، لها بهذا القلب الحي تعلق وثيق ، ولا نقول هناك قلبان للإنسان ، إنما هو قلب واحد قال تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب : آية ٤] ولكن هناك ما هو منظور لنا بالمشاهدة ، وهناك ما هو معلوم لنا بعلم الله تعالى الذي أنزله على رسوله ﷺ .

والدليل على أن القلب المعنوي في باطن القلب الحسي أو هو ، ما ورد في صحيح مسلم من حديث أنس بن مالك «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه ، فشق عن قلبه فاستخرج القلب ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده في مكانه»^(١) . وكان يُرى أثر المخيط في

(١) صحيح مسلم كتاب الإيمان ، باب الإسراء برسول الله ﷺ . انظر شرح النووي (٢/٢١٦) .

صدره ﷺ .

فالإِنسان ليس مجرد لحم ودم ودورة دموية ، إنما هو مخلوق خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وجعل له هذا القلب الصنوبري سبباً من أسباب الحياة ، ومركزاً للفؤاد واللب ، ومن جوامع الكلم قوله ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله : ألا وهي القلب»^(١) .

وصلاح الجسد يراه المادي بالسلامة من الآفات الظاهرة ، ويحمله المؤمن على السلامة من الآفات الظاهرة والباطنة ؛ لورود أحاديث كثيرة تحثنا على صلاحه والعناية به ، لأنه وعاء الإيمان والتصديق ، ومنه يشع نور التوحيد وتظهر آثاره في عيون المؤمنين ووجوههم .

بصلاح هذه المضغة غمر الإيمان قلوب صحابة رسول الله ﷺ فكانوا سادة الدنيا ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً .

عندما كان هذا القلب مليئاً بالإيمان ؛ كانت آثاره تظهر على الجوارح حباً في الله وتفانياً فيه ، يحبون الموت كما يحب غيرهم الحياة ، فوهبهم الله عز الدنيا والآخرة ؛ لأنهم تدرجوا في دائرة الإيمان ، وتحرروا من عبودية الأرض ، وانتقلوا إلى عبودية الله وحده لا شريك له ، هذا التدرج هو حقيقة القلب الذي به يرتقي الإنسان المؤمن ، أما غير المؤمن فليس له في هذه المراحل نصيب .

فمتى دخل الإيمان القلوب غمرها بنوره وزادها القرآن

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، باب (٣٩) ، والترمذي وغيره .

صقلاً ، فتبدأ المرحلة الأولى بسلامة القلب وخلوه من برائن الشرك والضلال ، يعتلي بعدها إلى مرتبة الخشوع فتسكن نيران الشهوة ويشرق نور التعظيم في القلب .

تليها الثالثة بالتقوى ، وفيها يصون العبد نفسه عما يؤثم ، فيعمل بطاعة الله رجاء رحمته ، فهي توحيد وعبادة وخشية فيتبتل إلى الله بكلّيته ، فيجد للعبادة راحة ولذة فيلين قلبه في الله ، وفي الحق لا يخشى لومة لائم ، يتبع هدي المصطفى براحة نفس ولين الجانب ، تعقبه مرتبة الإخبات فيكون فيها العبد مستسلماً للطاعة غير معترض على قضاء الله بأدنى شك ، فلا تؤثر فيه نزعات الهوى وميلات الشيطان ، فيشعر قلبه بحلاوة الإيمان ، ويرغب في زيادته ، ويخشى على أعماله من النقصان ، فثمر عنده حالة الوجل ، فيزداد من الطاعة لشعوره بالتقصير ، فيقدم من الطاعات الكثير تتخللها التوبة والاستغفار والتأسف على ما حصل منه ، وكلما رأى ميلاً أو فتنة دأب على التوبة وعاد إلى الطاعة حتى يكون من المنيبين إلى الحق ، وتكون الإنابة صفة من صفات قلبه ، فيكثر من التفكير في آيات الله ويستشعر بنعمه عليه ، فهي صفات القلب العاقل الذي دأبه الخوف والرجاء حتى يتصف بالطمأنينة ، فلا يكون للفجور فيه مدخل وليس للشيطان عليه مسلك ، وقد كان صحابة رسول الله ﷺ في هذه المكانة ، والمصطفى ﷺ في أعلى الكمال .

فهذه المراتب هي من اختيار القلب باختيار العبد ، فهي أفعاله المنسوبة إليه ، قد يقف عند أولها أو يستمر إلى أعلاها ، ولكن هذه اللطيفة الربانية للحق تبارك وتعالى أفعال فيها .

الفصل الثالث أفعال الله في القلوب

- المبحث الأول : طهارة القلب .
- المبحث الثاني : تزيين الايمان في قلب العبد وكتبه .
- المبحث الثالث : القلب المهتد .
- المبحث الرابع : القلب محل الرأفة والرحمة .
- المبحث الخامس : تأليف الله للقلوب .
- المبحث السادس : السكينة .
- المبحث السابع : ربط القلوب .
- المبحث الثامن : امتحان الله للقلوب وتمحيصها .

المبحث الأول طهارة القلب

إذا أراد الله بعبده خيراً طهر قلبه من رجس الكفر وخبث الضلالة ، (والطهر نقيض النجاسة)^(١) .

والتطهر (الكف عن الإثم وما لا يجمل)^(٢) .

وقيل : الطهر : النقاء من الدنس والنجس^(٣) .

والطهارة في الأصل : الوضوء والنظافة^(٤) .

وقد ارتبطت الطهارة بالقلب في موضعين من الذكر الحكيم :

الأول : في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ

لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة : آية ٤١] .

(١) لسان العرب (٤/٥٠٦) .

(٢) تاج العروس (٣/٣٦٣) .

(٣) المصباح المنير ص (٣٧٩) .

(٤) نزهة الأعين النواظر ص (٤١٩) .

والثاني : في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا سَأَلَ الْمُؤْمِنِينَ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُمْ مِمَّنْ وَرَاءَ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ﴾ [الأحزاب : آية ٥٣] .

والمراد في الآية الثانية الطهارة من الريبة والدنس^(١) .
وآية المائدة تدل على أن الله لا يريد أن يظهر قلب الكافر ،
وعلى أن الضلال بمشيئة الله عز وجل^(٢) .
ويفهم منها : أن من أراد الله هدايته للإسلام : طهر قلبه من
دنس الشرك ، فإذا طهر القلب انشرح الصدر للإسلام وتمكن منه ،
وارتقى العبد إلى مرتبة الإيمان بتحييب الله له وتزيينه في قلبه .

(١) المفردات ص (٣٠٧) ، بصائر ذوي التمييز (٣/٥٢٨) ، الوجوه والنظائر
ص (٣٠٠) .

(٢) تفسير القرطبي (٦/١٨٢) ، روح المعاني (٦/١٣٩) .

المبحث الثاني تزيين الايمان في قلب العبد وكتبه

قال تعالى : ﴿ وَلَئِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾
[الحجرات : آية ٧] .

قال ابن كثير : أي حببه إلى نفوسكم ، وحسنه في قلوبكم^(١) .

والزین : خلاف الشين ، يُقال : تزینت الأرض بالنبات : أي حسنت وبهجت^(٢) .

والزينة بالقول المجمل ثلاث : زينة نفسية كالعلم والاعتقادات الحسنة ، وزينة بدنية كالقوة وطول القامة ، وزينة خارجية كالجمال والجاه .

وقوله تعالى : ﴿ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ فهو من الزينة النفسية^(٣) .

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٢١٠) .

(٢) لسان العرب (١٣/٢٠٢) ، والمصباح المنير ص (٢٦١) .

(٣) المفردات ص (٢١٩) .

(وتزيين الله للأشياء بإبداعها مزينة وإيجادها كذلك ، وتزيين الناس للشيء بتزويقهم أو بقولهم)^(١) .

فإذا زين الله الإيمان في قلب العبد ؛ كانت عبادته أكثر وتحمله لمشاق التكليف أتم ، فتكون العبادة والتكليف عنده أكمل ، فالإيمان يزداد في قلبه حسناً .

قال الرازي : (ليس إدراك الإيمان بالاجتهاد ، بل الله بين البرهان وزين الإيمان حتى حصل اليقين ، وبعد حصول اليقين لا يجوز التوقف)^(٢) .

لهذا نجد السلف الصالح استمر في ترقى درجات الكمال بزينة الإيمان في القلوب .

كتب الإيمان في القلب :

وبعد التزيين تأتي مرحلة التقرير أو الثبوت التي قال الحق تبارك وتعالى عنها ﴿ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ﴾ [المجادلة : آية ٢٢] .

والكاف والتاء والباء أصل صحيح واحد يدل على جمع شيء ، إلى شيء ، من ذلك الكتاب والكتابة^(٣) .

والكتاب : الفرض والحكم والقدر^(٤) .

وقال ابن كثير في تفسير الآية : (أي كتب له السعادة وقرره

(١) المفردات ص (٢١٨) .

(٢) التفسير الكبير (١٢٣/٢٨) .

(٣) معجم مقاييس اللغة (١٥٨/٥) .

(٤) لسان العرب (٦٩٩/١) ، تاج العروس (٤٤٦/١) .

في قلبه ، وزين الإيمان في بصيرته^(١) .

وقال الطبري : (كتب في قلوبهم الإيمان : أي قضى لقلوبهم الإيمان فـ [في] بمعنى اللام)^(٢) .

وذكر الألوسي في قوله ﴿كتب في قلوبهم الإيمان﴾ : (أي أثبتة الله تعالى فيها ، ولما كان الشيء يراد أولاً ثم يُقال ثم يكتب ؛ عبّر عن المبدأ بالمتتهى للتأكيد والمبالغة)^(٣) .

فمن في قلبه الإيمان ؛ لا يوادّ من حاد الله ورسوله ولو كان أباً أو ابناً أو أخواً أو عشيرة . قال تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة : آية ٢٢] .

فمتى أحب العبد الإيمان وثبت في قلبه ؛ هدى الله قلبه إلى طريق الحق دوماً وأبداً . قال تعالى : ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن : آية ١١] .

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/٣٢٩) .

(٢) جامع البيان (٢٨/٢٧) .

(٣) روح المعاني (٢٨/٣٦) ، التفسير الكبير (٢٩/٢٧٧) .

المبحث الثالث القلب المهتد

والهاء والبدال والحرف المعتل أصلان :

أحدهما التقدم للإرشاد ، والآخر بعثة لطف - واللطف ،
بالتحريك : التحفة والهدية ، وكلمة بعثة : هي المرة من
البعث - .

فالأول قولهم : هديته الطريق هداية ، أي تقدمته لأرشده ،
وكل متقدم لذلك هاد ، والأصل الآخر الهدية : ما أهديت من لطف
إلى ذي مودة^(١) .

والهدى : خلاف الضلالة ، وهي الرشاد والدلالة (بلطف إلى
ما يوصل إلى المطلوب)^(٢) .

والهدى : الطاعة والورع^(٣) .

(١) مقاييس اللغة (٤٢/٦) ، والنهية في غريب الحديث (٢٥٣/٥) ، نزهة
الأعين النواظر ص (٦٢٥) .

(٢) نزهة الأعين النواظر ص (٦٢٥) ، لسان العرب (٣٥٣/١٥) تاج العروس
(٤٠٦/١٠) النهاية في غريب الحديث (٢٥٣/٥) .

(٣) لسان العرب (٣٥٥/١٥) .

والهدي : السيرة والهيئة والطريقة^(١) .

والفرق بين الهداية والإرشاد : أن الإرشاد إني الشيء هو الطريق إليه والتبيين له ، والهداية هي التمكن من الوصول إليه^(٢) .

والهداية : الدلالة على ما يوصل إلى المطلوب ، وقد يُقال : هي سلوك طريق يوصل إلى المطلوب^(٣) .

وهداية الله للإنسان على أربعة أوجه :

الأول : الهداية العامة :

(وهي الهداية التي عم بجنسها كل مكلف ؛ من العقل والفتنة والمعارف الضرورية التي أعم منها كل شيء بقدر فيه حسب احتمالها)^(٤) كما في قوله تعالى : ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه : آية ٥٠] . أي أعطى كل شيء صلاحه ثم هداه إلى ما يصلحه .

وهذه الهداية إما تسخير وإما تعليم ، وإلى نحوه أشار بقوله تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾^(٥) [النحل : آية ٦٨] .

الثاني : هداية البيان والدلالة :

ومعناها : التعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة

(١) النهاية لابن الأثير (٥/٢٥٣) .

(٢) الفروق اللغوية ص (١٧٢) .

(٣) التعريفات ص (٢٥٦) .

(٤) المفردات في غريب القرآن ص (٥٣٨) .

(٥) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/٤٧٨) .

والهلاك ، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام ، فإنها سبب وشرط لا موجب^(١) .

كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾

[الإنسان : آية ٣] .

الثالث : هداية التوفيق والإلهام :

وهي الهداية المستلزمة للاهتداء فلا يتخلف عنها ، وهي

المذكورة في قوله تعالى : ﴿ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾

[فاطر : آية ٨] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ

اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ﴾ [القصص : آية ٥٦]^(٢) .

الرابع : الهداية في الآخرة :

وهي غاية الهدايات الثلاث ، ومنه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ

الأنهارُ فِي جَنَّاتٍ النَّعِيمِ ﴾ [يونس : آية ٩] .

وقوله تعالى : ﴿ أَحْسِرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ فَأَهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ [الصفات : آية ٢٢ ، ٢٣]^(٣) .

(١) بدائع الفوائد (٢/٣٧) ، ابن قيم الجوزية .

(٢) المصدر السابق (٢/٣٧) .

(٣) المصدر السابق (٢/٣٧) .

وطلب الهداية من أقوال النبوة ؛ ففي حديث عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول حين فرغ من صلاته : «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي» الحديث^(١) .

وروى الترمذي من حديث شهر بن حوشب قال : قلت لأم سلمة - رضي الله عنها - : يا أم المؤمنين ما أكثر دعاء رسول الله ﷺ إذا كان عندك ؟ قالت : كان أكثر دعائه «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» ، فقلت : يا رسول الله ما أكثر دعائك بهذا ؟ قال : يا أم سلمة ، إنه ليس آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله ، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ»^(٢) .

فالقلب صالح لأن يميل إلى الإيمان وصالح لأن يميل إلى الكفر بإرادة الله ، فلذا كان طلب الهداية والتوفيق أمر ضروري ، وقد ذكر الحق تبارك وتعالى هداية القلب في كتابه الكريم بقوله ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [التغابن : آية ١١] .

والآية وردت في سياق الرزايا التي تسيء العبد في النفس أو

(١) أخرجه الترمذي برقم (٣٤١٥) في الدعوات ، باب رقم (٣٠) ، وإسناده ضعيف ، وقال الترمذي : هذا الحديث غريب لا نعرف مثل هذا لابن أبي ليلي إلا من هذا الوجه ، وذكره ابن الأثير في «جامع الأصول» (٢١٤/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٥١٧) في الدعوات ، باب رقم (٩٥) وقال : هذا حديث حسن . كما أخرجه في القدر ، باب : ما جاء أن القلوب بين أصبعين ، عن أنس بن مالك ، وذكره ابن الأثير في «جامع الأصول» (٣٤٢/٤) ، (٥٣/٧) .

المال أو الولد أو الأحباب ونحوهم من قول أو فعل .

فهو في الدنيا في مرحلة ابتلاء واختبار هل يصبر على ما أصابه ، وأن كل ما أصابه بقضاء الله وقدره أم لا ؟ .

وقال المفسرون في معنى الهداية :

أولاً : يهد قلبه لليقين ، فيعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وهو قول ابن عباس - رضي الله عنهما - (١) .

ثانياً : يهد قلبه للعلم بأنها من عند الله ، فيسلم لأمر الله ويرضى به ، وهو قول علقمة (٢) (٣) .

ثالثاً : يهد قلبه للشكر عند الرخاء والصبر عند البلاء ، وهو قول أهل المعاني (٤) .

فإذا هداه فقد رحمه ، فالرحمة اقترنت بالهداية في كثير من الذكر الحكيم كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [الأنعام : آية ١٥٤] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾ [الأنعام : آية ١٥٧] .

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٥) .

(٢) علقمة بن قيس بن عبد الملك النخعي أبوشبل الكوفي ، من كبار التابعين ت ٦١ هـ ، طبقات الحفاظ ص (٢٠) .

(٣) روح المعاني (٢٨/ ١٢٤) .

(٤) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٦) .

وفي قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۝ ﴾ [آل عمران : آية ٨] .

المبحث الرابع القلب محل الرأفة والرحمة

والرحمة تنمو حين تكون الرأفة ، وكلاهما صفتان جليلتان ،
إحداهما أرق من الأخرى ، هبة من الحق تبارك وتعالى لقلوب عباده
المؤمنين ، ارتبطت بالقلب في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ
الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد : آية ٢٧] .

فلدينا ثلاث كلمات : «جعل» ، «رأفة» ، «رحمة» ، كل كلمة
لها مدلول في كلام الله وفي أقوال العرب .

أولاً : كلمة (جعل) :

لفظ عام في الأفعال كلها ، وهو أعم من فعل وصنع وسائر
أخواتها^(١) . وقد ذكر العلماء أوجهاً كثيرة لها^(٢) ؛ أوصلها
الفيروز أبادي إلى ثلاثة عشر وجهاً ، منها : الإيقاع في القلب

(١) المفردات في غريب القرآن ص (٩٤) .

(٢) المرجع السابق ص (٩٤) ، نزهة الأعين النواظر ص (٢٢٨) ، القاموس

المحيط ص (١٢٦٢) ، الوجوه والنظائر ص (١٠٦) ، بصائر ذوي التمييز

(٣٨٣/٢) ، وغيرها من مراجع اللغة .

والإلهام ، ومثاله آية (٢٧) الحديد .

وسواء أتت (جعل) في هذه الآية بمعنى خلق أو صيّر أو أنشأ وغيرها ؛ فالذي يهمننا أنها فعل الله ، وفعله جلت عظمتة أعم من أن تحصره اللغة ، وما دامت فعل الله في القلب ؛ فهي هبة إلهية قد يكون للكسب في تنميتها شيء ، وهذا الذي نريده من مادة (جعل) .

ثانياً : الرأفة :

الراء والهمزة والفاء : كلمة واحدة تدل على رقة ورحمة ، وهي الرأفة^(١) . والرأفة : الرحمة ، وقيل أشد الرحمة^(٢) .

والرأفة : مبالغة في رحمة مخصوصة من دفع المكروه وإزالة الضرر ، نقلها الزبيدي عن الفخر الرازي^(٣) . ومن أسماء الله تعالى «الرؤوف» ، ومعناه : ذو الرحمة الواسعة الشاملة لجميع خلقه ، والمتعطف عليهم والمحسن إليهم بنعمه^(٤) . وقد ورد في أنقرآن الكريم إحدى عشرة مرة .

وقد وردت «الرأفة» مرتين في كتاب الله . الأول : في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد: آية ٢٧] . والثاني : قوله تعالى في حد الزانية والزاني : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ [النور : آية ٢] .

(١) مقاييس اللغة (٢/٤٧٠) .

(٢) لسان العرب (٩/١١٢) ، المفردات في غريب القرآن ص (٢٠٨) .

(٣) تاج العروس (٦/١١٣) .

(٤) والله الأسماء الحسنى (٢١٩) ، جمع : أحمد عبد الجواد .

الثالث : الرحمة :

الراء والحاء والميم أصل واحد يدل على الرقة والعطف والرافة ، يُقال من ذلك : رحمه يرحمه ؛ إذا رَقَّ له وتعطف عليه^(١) .

والرحمة : المغفرة ، وفي بني آدم عند العرب رقة القلب وعطفه^(٢) .

والرحمة : رقة تقتضي الإحسان إلى المرحوم ، وقد تستعمل تارة في الرقة المجردة ، وتارة في الإحسان المجرد عن الرقة نحو : رحم الله فلاناً^(٣) .

وقيل : هي إرادة إيصال الخير^(٤) .

وقيل : الإنعام على المحتاج إليه^(٥) .

الفرق بين الرافة والرحمة :

الرافة أبلغ من الرحمة ، ولا تكاد تقع في الكراهة ، والرحمة قد تقع في الكراهة للمصلحة^(٦) .

قال ابن الجوزي : الرحمة في القرآن على ستة عشر وجهاً ، وأوصلها الفيروز أبادي إلى عشرين وجهاً ، بينما اقتصر الدامغاني

(١) مقاييس اللغة (٢/٤٩٨) .

(٢) لسان العرب (١٢/٢٣٠) .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص (١٩١) ، تاج العروس (٨/٣٠٥) .

(٤) التعريفات ص (١١٠) .

(٥) الفروق اللغوية ص (١٦٠) ، نزهة الأعين النواظر ص (٣٧٣) .

(٦) الفروق اللغوية ص (١٦١) ، لسان العرب (٩/١١٢) .

على أربعة عشر وجهاً .

منها الإلفة والموافقة بين أهل الإيمان كما في قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ [الحديد: آية ٢٧] .

وقال ابن الجوزي : (الرقعة) ، وقال الدامغاني (١) :

المودة (٢) ، وعموم الأوجه التي ذكروها لا تخرج عن الإنعام وإرادة إيصال الخير .

وفي حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنه - : أنه دفع لرسول

الله ﷺ صبي نفسه تققع ، وفيه : «ففاضت عيناه . فقال له سعد :

يا رسول الله ما هذا ؟ قال : هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ،

وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» (٣) .

قال ابن حجر : (وأما الرحمة التي جعلها الله في قلوب عباده

فهي من صفات الفعل ، وصفها بأنه خلقها في قلوب عباده ، وهي

رقة على المرحوم) .

ورسول الله ﷺ تاج الرحماء - وصفه الله بصفتين في آية

واحدة ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا

عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

[التوبة : آية ١٢٨] .

(١) الدامغاني : حسين بن محمد بن إبراهيم أبو عبد الله الدامغاني ، فقيه

حنفي ، ت ٤٧٨ هـ ، الأعلام (٢/ ٢٥٤) .

(٢) نزهة الأعين النواظر ص (٣٣١) ، بصائر ذوي التمييز (٣/ ٥٣) ، الوجوه

والنظائر ص (٢٠١) .

(٣) صحيح البخاري ، كتاب التوحيد ، باب (٢) ، حديث (٧٣٧٧) .

وفي حديث شق الصدر ، عن أبي بن كعب عن أبي هريرة :
«فقال له : أخرج الغل والحسد ، فأخرج شيئاً كههيئة العلقة ثم نبذها
فطرحها ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة ، فإذا مثل الذي أخرج
يشبه الفضة ، ثم هز إبهام رجلي اليمنى» الحديث^(١) .

وكتب التفاسير ذكرت شق الصدر في تفسير قوله تعالى :

﴿الْمَنْ ذَرَحَ لَكَ صَدْرَكَ﴾ (وهذا دليل قوي على أن القلب المعنوي مرتبط

بالقلب الحسي أو يكاد يكون هو) .

والرحمة خاصة بالمؤمنين ولا تنزع إلا ممن كفر بالله . ففي

حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : «سمعت أبا القاسم عليه السلام
يقول : لا تنزع الرحمة إلا من شقي»^(٢) وقال الترمذي : هذا

(١) مسند أحمد (١٣٩/٥) والحديث من زوائد عبد الله ابن الإمام أحمد

ورجاله ثقات ، وحديث شق الصدر في كتب السير بالاتفاق فهو في :

أ - سيرة ابن هشام : السيرة النبوية (١٧٦/١) أبو محمد عبد الملك بن
هشام الحميري ، ت ٢١٨ هـ .

ب - طبقات ابن سعد : الطبقات الكبرى (١١٢/١) محمد بن سعد بن
منيع البصري ، ت ٢٣٠ هـ .

ج - دلائل النبوة ومعرفة أصول صاحب الشريعة (١٣١/١) أحمد بن
الحسين البيهقي ، توثيق ، د . عبد المعطي قلعجي .

د - البداية (٢٧٥/٢) أبي الفداء الحافظ ابن كثير ، ت ٧٧٤ هـ ،
ط ١٣٩٨ هـ .

هـ - الخصائص الكبرى : كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب
(٥٤/١) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، ت ٩١١ .

(٢) سنن الترمذي (٣٢٣/٤) ، كتاب البر والصلة ، باب (١٦) . وقال
الترمذي : هذا حديث حسن .

حديث حسن .

والشقي : الكافر^(١) لقوله تعالى :

﴿يَوْمَ يَأْتِ لَاتِكُمْ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ خَلَدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ﴾ [هود: آية ١٠٥-١٠٧] .

أما ما يتراحم به غير المسلمين فهي رحمة عامة بمثل ما يتراحم البهائم ، ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «جعل الله الرحمة في مائة جزء ، فأمسك عنده تسعة وتسعين جزءاً وأنزل في الأرض جزءاً واحداً ، فمن ذلك الجزء تتراحم الخلق ، حتى ترفع الفرس حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه»^(٢) .

أما المؤمن إذا ثبت على إيمانه ، وكان من أهل التقوى ، فإنه له نصيبان من الرحمة : رحمة عامة ورحمة خاصة ، وورد هذا الوعد من الله في سياق آية سورة الحديد المثبتة أن المحبة والرافة مقرها القلب ، فقال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ ءَامِنُوا بِرَسُولِهِ ءِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ ءِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ءِ وَيَغْفِر لَكُمْ ءِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحديد : آية ٢٨] .

بهذه الرحمة المودعة في القلوب الطاهرة ؛ تكونت الإلفة

(١) نزهة الأعين النواظر ص (٣٧١) .

(٢) صحيح البخاري كتاب الأدب باب (١٩) حديث (٦٠٠٠) . فتح الباري

. (٤٣/١٠)

بينهم ، فاتفقت قلوبهم على المودة والمصافاة والتواصل ، فرقت
جوانبهم لبعضهم البعض ، فزادهم الحق تبارك وتعالى ألفة في
قلوبهم ، وإذا ائتلفت القلوب كانت الأخوة الطاهرة في الله والله .

المبحث الخامس تأليف الله للقلوب

قال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران : آية ١٠٣] .

المكمن العميق في الإنسان ؛ ذلك القلب مقر المشاعر والروابط ، يؤلف الله بينه وبين الآخر ؛ حتى تكون كتلة متآخية ، ذلول بعضها لبعض بعد النفرة والتفكك ، والحق تولى التأليف ، فلا يكون إلا لمؤمن اعتصم بحبل الله واجتمع على هداه ، وكأن الله يبين أن الألفة هبة منه لا دخل للكسب فيها ، وإن كان الكسب سبباً لها .

وذكر الحق سبحانه «الألفة» في كتابه ثمان مرات ، في خمس آيات ، ارتبط القلب بالألفة في ثلاث منها :

أولاً : قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۗ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ آل عمران: آية ١٠٣ .

ثانياً: في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدِكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: آية ٦٢ - ٦٣].

ثالثاً: في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبِهِمْ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [التوبة: آية ٦٠].

رابعاً: في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْجُوا سَعَاءَ مَا يُوعَدُونَ لِيَوْمِهِمْ ثُمَّ يُجْعَلُونَ رُكَّامًا﴾ [النور: آية ٤٣].

خامساً: في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْفُ فَرِيشٌ * إِذْ لَفِيهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ [قريش: آية ١ - ٢].

فما هو الائتلاف ، وبم يتم ، ولمن يكون ؟ :

الهمزة واللام والفاء أصل واحد يدل على انضمام الشيء إلى الشيء والأشياء الكثيرة أيضاً^(١).

وألقت الشيء وألفته بمعنى واحد : لزمته ، وألقتُ شيء : إذا أنست به ، وألقت بينهم تأليفاً : إذا جمعت بينهم بعد تفرق ، وتألف : تنظم^(٢).

وتألف فلان فلاناً : إذا داراه وآنسه وقاربه وواصله حتى

(١) مقاييس اللغة (١/١٣١) .

(٢) لسان العرب (١١/٩-١٢) .

يستميله إليه^(١) . والإلف : اجتماع مع التثام^(٢) ، والألفة : ضد الوحشة^(٣) .

وجميع معانيها تدور حول الاجتماع والاتفاق بعد الوحشة والافتراق .

وعرفها الجرجاني بأنها : اتفاق الآراء في المعاونة على تدبير المعاش^(٤) .

(والألفة تدل على الالتصاق ، ولفظ الجمع لا يدل على ذلك . فقولك : جمعت بين القوم في المجلس ؛ لا يدل على أنك ألصقت أحدهم بصاحبه ، ولا تقول : ألفتهم ؛ بهذا المعنى ، وتقول : فلان ، يؤلف بين الزانيين ؛ لِمَا يكون من التزاق أحدهما بالآخر عند النكاح ، ولذلك لا يستعمل التأليف إلا في الأجسام ، والألفة في العربية تفيد الموافقة ، والجمع لا يفيد ذلك ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴾ لأنها اتفقت على المودة والمصافاة ، ومنه قيل : الألفان والأليفان : لموافقة أحدهما صاحبه على المودة والتواصل والأنسة^(٥) .

فالألفة نوع من الرحمة سببها الإيمان ، وهي أول ما يرفع من الناس ، روى ابن جرير الطبري بسنده عن عمير بن إسحاق قال :

(١) تاج العروس (٤٣/٦) .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص (٢٠) .

(٣) بصائر ذوي التمييز (٤/٢) .

(٤) التعريفات ص (٣٤) .

(٥) الفروق اللغوية ص (١١٨) .

كنا نتحدث أن أول ما يرفع من الناس - أو قال عن الناس - : الألفة^(١) .

والتألف الذي تولى الله إيقاعه في قلوب المؤمنين مخالف للتألف الكسبي ، وهو التشاكل في الخير والشر والصلاح والفساد .

فقد روي من حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : «الأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف ، وما تناكر منها اختلف»^(٢) .

يقول القرطبي : (تشاكل أشخاص النوع الواحد وتتاسب ، بسبب ما اجتمعت فيه من المعنى الخاص لذلك النوع للمناسبة ، ولذلك نشاهد أشخاص كل نوع تألف نوعها وتنفر من مخالفها ، ثم إنا نجد بعض أشخاص النوع الواحد يتألف وبعضها يتنافر ، وذلك بحسب الأمور التي يحصل الاتفاق والانفراد بسببها)^(٣) .

فهذا أمر تساوى فيه الأمم ، فكل يعمل على شاكلته فالألفة الأولى لا تكون إلا بعد الثانية ، لهذا إذا وجد الإنسان من نفسه نفرة ممن له فضيلة أو صلاح ؛ فينبغي أن يبحث عن سبب ذلك ليتسنى له إزالته ، حتى يتخلص من الدم .

(والحديث يشير إلى معنى التشاكل في الخير والشر ، وأن الخير من الناس يحن إلى شكله ، والشرير يميل إلى نظيره ، والأرواح إنما تتعارف بضرائب طبائعها التي جبلت عليها من الخير

(١) جامع البيان (٣٦/١٠) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء باب (٢) ، انظر فتح الباري (٣٦٩/٦) .

(٣) فتح الباري (٣٧/٦) .

والشر ، فإذا اتفقت الأشكال تعارفت وتآلفت ، وإذا اختلفت تنافرت وتناكرت^(١) .

فهذا ميل بالطبع مكتسب ، ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : «المؤمن مؤلف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»^(٢) . وفعلاً لا خير في غير المؤمن . ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أيضاً عن النبي ﷺ قال : «إن للمنافقين علامات يعرفون بها : تحيتهم لعنة ، وطعامهم نهبة ، وغنيمتهم غلول ، ولا يقربون المسجد إلا هجراً ، ولا يأتون الصلاة إلا دبراً مستكبرين ، لا يألفون ولا يؤلفون ، خشب بالليل ، صخب بالنهار»^(٣) .

وكأني بهذا الحديث يحكي عن الواقع ، فالتآلف بين القلوب شبه مفقود ، إلا ما رحم ربك .

وما المعاملات الحسنة الجارية بين المسلمين إلا بقايا الألفة التي خلقها الله في قلوبهم تضيء على قدر استعدادهم العقدي ، ورحم الله صاحب الظلال إذ يقول : (إن هذه العقيدة عجيبة فعلاً . إنها حين تخالط القلوب تستحيل إلى مزاج من الحب والألفة ومودات القلوب ، التي تلين قاسيها وترقق حواشيها وتندي جفافها وتربط بينها برباط وثيق عميق رقيق ، فإذا نظرة العين ولمسة اليد ونطق الجارحة وخفقة القلب ؛ ترانيم من التعارف والتعاطف والولاء والتناصر والسماحة والهوادة ، لا يعرف سرها إلا من ألفت بين هذه

(١) عمدة القاري (٢١٦/١٥) نقلاً عن الخطابي .

(٢) مسند أحمد (٤٠٠/٢) . والحديث صحيح . الأحاديث الصحيحة للألباني (٤٢٦) .

(٣) مسند أحمد (٢٩٣/٢) . وفيه عبد الملك بن قدامة ، وثقه يحيى بن معين وغيره ، وضعفه الدارقطني . مجمع الزوائد (١١٢/١) .

القلوب ، ولا تعرف مذاقها إلا هذه القلوب) (١) .

هذه المنح الإلهية لقلوب عامرة بالإيمان ؛ أنتجت صحابة رسول الله ﷺ ومن سار على دربهم ، هذه المنح والعطايا الإلهية كالرأفة والرحمة والتآلف في قلوب أحبائه ؛ لا بد أن تثمر زيادة الإيمان وقوة اليقين ، واجتماع أحبة المصطفى أكثر ما يكون في بيوت الله ، وبيوت الله مظان نزول السكينة ، وترابطهم يشتد في ميادين القتال لإعلاء كلمة الله ؛ لأنهم أحوج ما يكونوا إلى السكينة ، فينزلها الله في قلوبهم .

(١) في ظلال القرآن (٣/١٥٤٨) .

المبحث السادس السكينة

وقد ذكر الله السكينة في كتابه في ست مواضع :

الأول : قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : آية ٢٤٨] .

الثاني : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [التوبة : آية ٢٦] .

الثالث : قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنِّي أَنزَلْتُ مَعَنَا فَا نَزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [التوبة : آية ٤٠] .

الرابع : قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح : آية ٤] .

الخامس : قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ

إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ
وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿ [الفتح : آية ١٨] .

السادس : قوله تعالى : ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ
الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح : آية ٢٦] .

وفي الآية الرابعة من سورة الفتح ؛ ذكر الحق سبحانه أنه ينزل
السكينة في قلوب المؤمنين ، وهذا مدار الباب .

والسين والكاف والنون أصل واحد يدل على خلاف
الاضطراب والحركة ، يُقال : سكن الشيء يسكن سكوناً فهو
ساكن ؛ ومن الباب : السكينة : وهو الوقار^(١) .

والسكينة : الوداعة والوقار والأمن : يُقال : رجل وديع وقور
ساكن هادئ .

وقيل : السكينة هي : الطمأنينة ، وقيل : النصر^(٢) .

وقيل : السكينة والسكن واحد ؛ وهو زوال الرعب ، وقيل :
العقل^(٣) .

فالسكينة : السكون الذي ينزله الله تعالى في قلب عبده
المؤمن عند اضطرابه من شدة المخاوف ، فلا يتزعج بعد ذلك لما
يرد عليه ، ويوجب له زيادة الإيمان وقوة اليقين والثبات . ولهذا أخبر

(١) مقاييس اللغة (٣/٨٨) .

(٢) لسان العرب (١٣/٢١٤) ، تفسير القرطبي (١٦/٢٦٤) .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص (٢٣٧) .

سبحانه وتعالى عن إنزالها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب ؛ كيوم الغار ويوم حنين^(١) .

فعلى هذا تكون السكينة موهبة غير مكتسبة ، لأن الله سبحانه أنزلها على رسوله وعلى المؤمنين في مواضع القلق والاضطراب ؛ فطمأنت قلوبهم ، ولا تنزل على غير المؤمنين .

فتفسير السكينة بمعنى الطمأنينة والوقار فيه تقريب للمفهوم ، وما الطمأنينة والوقار إلا أثراً من آثار السكينة وموجب من موجباتها ، وقد أوضحت الفارق بين الطمأنينة والسكينة في اطمئنان القلب ، فالطمأنينة أعلى من السكينة لأنها دائمة لا تفارق صاحبها ، والسكينة تكون حيناً بعد حين . نوضحها بمثال : من واجهه عدو بيده سلاح يريد هلاكه ؛ فإنه يقلق ويخاف ويضطرب . فإذا أغمد العدو سلاحه وَبَعْدَ عَنْهُ ، فإنه يسكن ما به من قلق ، فإذا لقي مكاناً آمناً فيه أمة تحميه من عدوه اطمأن وأمن ، وكان في ذلك قوة له على عدوه .

أقسام السكينة :

ورد لفظ السكينة في سورة البقرة في سياق قصة بني إسرائيل . قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة : آية ٢٤٨] .

نجد اختلاف أهل التفسير في معنى السكينة هل هي عين قائمة بنفسها ؟ أي : شيء حسي أم أمر معنوي ؟ .

فمنهم من جعلها حسية ، ومنهم من جعلها معنوية .

(١) مدارج السالكين (٢/٥٠٣) ، تاج العروس (٩/٢٣٩) .

(والنوع الحسي : للأنبياء معجزة ولملوكلهم كرامة ، وهي آية النصر تخلع قلوب الأعداء بصوتها رعباً ؛ إذا التقى الصفان للقتال)^(١) .

وقد ورد في حديث البراء - رضي الله عنه - قال : كان رجل يقرأ سورة الكهف وإلى جانبه حصان مربوط بشططين ، فتغشته سحابة فجعلت تدنو وتدنو وجعل فرسه ينفر ، فلما أصبح أتى النبي ﷺ فذكر ذلك له فقال : «تلك السكينة تنزلت على القرآن»^(٢) .

والرجل هو أسيد بن حضير - رضي الله عنه - وقد أورد له الإمام البخاري حديثاً في الكتاب نفسه ؛ باب : نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن ؛ ولكن عند قراءته لسورة البقرة ، وقد وقع لثابت بن شماس - رضي الله عنه - عند قراءته لسورة البقرة أيضاً ، كما ذكر ذلك ابن حجر - رحمه الله - عند شرحه لحديث أسيد .

ولعل هذه السكينة حسية ؛ إذ تسببت في نفر الفرس ، حتى كادت أن تصيب ابن أسيد ، وقد رآها مثل الظلة فوق رأسه ، فيها أمثال المصابيح ، عرجت إلى السماء حتى ما يراها . سواء كان ذلك ملائكة أو ما ذكره أهل التفسير .

أما المعنوية فسرها صاحب منازل السائرين^(٣) فقال : (هي

(١) مدارج السالكين (٢/٥٠٥) .

(٢) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب فضل الكهف ، انظر فتح الباري (٩/٥٧ ، ٦٣) .

(٣) منازل السائرين لعبد الله بن محمد بن إسماعيل الأنصاري الهروي الحنبلي المتوفى ٤٨١ هـ ، شرحه علماء كثير ، منهم : الإمام ابن قيم الجوزية ، عن كشف الظنون (٢/١٨٢٨) .

التي نزلت على قلبي النبي ﷺ وقلوب المؤمنين ، وهي شيء يجمع قوة وروحاً ، يسكن إليه الخائف ، ويتسلى به الحزين والضجر ، ويسكن إليه العصي والجريء والأبي (١) .

فإذا وهب الله عبداً من عباده السكينة ؛ فإن كان خائفاً سكن ، وإن كان حزيناً تسلى ، وإن كان صاحب معصية وجرأة على المخالفة والإبء استكان إليها ، ولا تعارض بين صاحب المعصية والجرأة على المخالفة وبين المؤمن ، فقد يكون المؤمن مرتكباً لبعض الآثام ، فتنزل عليه السكينة فيتوب ويرجع إلى الحق .

وقال أكثر المفسرين في نزول السكينة على قلوب المؤمنين : إنها الأمن والطمأنينة (٢) .

كما ورد في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الذي قال فيه : «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله ، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم ؛ إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة . .» الحديث (٣) .

والحديث بين أن هناك فرق بين السكينة والرحمة ، لعطف الرحمة على السكينة ، واختار الإمام النووي أنها الطمأنينة والوقار (وكلمة النزول تدل على علو شأن المنزل ، وتدل على أن القلوب منزل ومأوى لها) (٤) .

(١) مدارج السالكين (٢/٥٠٧) .

(٢) زاد المسير (٣/٤١٦) ، روح المعاني (٢٦/٩٢) .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب الذكر والدعاء باب (١١) وفي شرح النووي (١٧/٢١) .

(٤) روح المعاني (٢٦/٩٢) .

وهناك أمر معنوي أيضاً ، فقد ورد في حديث وهب السوائي قال : (خطبنا علي - رضي الله عنه - فقال : من خير هذه الأمة بعد نبينا ؟ فقلت : أنت يا أمير المؤمنين . قال : لا ، خير هذه الأمة بعد نبينا أبو بكر ، ثم عمر - رضي الله عنهما - وما نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر - رضي الله عنه -) (١) .

ويقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : (كنا نتحدث أن السكينة تنطق على لسان عمر وقلبه) (٢) .

فهذه السكينة التي تنطق على لسان المحدث : ليست كسبية إنما هبة من الله ، يظهر أثرها في إصابة القول والحكمة ، فبعد اطمئنان القلب وسكون الجوارح ؛ يكتسب العبد الوقار ، فيوفقه الله إلى إصابة القول والعمل .

وهذا نوع كسبي ومداره اللغة : وهو الاطمئنان والوقار . كم ورد في حديث أبي بريدة عن أبيه قال : إن أناساً مروا على رسول الله ﷺ بجنائز يسرعون بها ، فقال رسول الله ﷺ : ولتكن عليكم السكينة» (٣) .

وكذلك في حديث أبي موسى - رضي الله عنه - مثله (٤) .

وفي حديث عمران بن حصين قال : قال النبي ﷺ : والحياء

(١) مسند أحمد (١/١٠٦) .

(٢) مدارج السالكين (٢/٥٠٦) .

(٣) مسند أحمد (٤/٤٠٣) . في إسناده ليث بن أبي سليم القرشي فيه كلام .

الفتح الرباني (٨/٩) .

(٤) مسند أحمد (٤/٤١٢) . في إسناده ليث بن أبي سليم القرشي فيه كلام .

الفتح الرباني (٨/٩) .

لا يأتي إلا بخير» فقال بشير بن كعب : مكتوب في الحكمة إن من الحياء وقاراً ، وإن من الحياء سكينه . . الحديث^(١) ، رواه البخاري .

وقال فيه ابن حجر : إن من الحياء ما يحمله على أن يسكن عن كثير مما يتحرك الناس فيه من الأمور التي لا تليق بذئ المرءة ، والمراد من الحياء : الحياء المكتسب ، هو الذي جعله الشارع من الإيمان وهو المكلف به دون الغريزي .

والمهم في البحث هو الأمر المعنوي للسكينة التي أنزلها الله في قلوب المؤمنين ، تعطيم زيادة إيمان وثبات في الأمر ، وينزلها الله وقت الحاجة .

(١) صحيح الإمام البخاري كتاب الأدب باب الحياء حديث (٦١١٧) ، وفي فتح الباري (٥٢١/١٠) .

المبحث السابع ربط القلوب

ومن فعل الله في القلب الربط : ويحصل من الله وقت الاحتياج ، ليعلم العبد أن فوقه قوة هي قوة الله تدبر أمره وتربط على قلبه بما فيه ، فسبحان خالق القلوب العليم بأسرارها . عندما يفقد المرء وعيه وإدراكه وشعوره وإحساسه في لحظة من لحظات الفراغ فإن قدرة الله تنقذه ، تقف بجانبه تربط على قلبه .

وعندما يستمر في طغيانه وكفره لا تفلح معه دعوة الرسل ولا يعي لمنطوق الحق ، خضع للامتحان الإلهي ففشل ، ولا فائدة ترجى ولا أمل ، كان جزاؤه الربط على قلبه بما حوى .

فالربط كما يكون للمؤمن يكون لضده ، وشتان بين جراب مسك وجراب عفن . ولولا الربط على القلب ما تجرأ أصحاب الكهف أمام الطغيان . قال تعالى : ﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الكهف : آية ١٤] ولكنهم صرحوا بها ، وصرح بها من بعدهم أمم أمام طغاة الحياة ، فكان الجهاد كلمة الله هي العليا ، وكان وتم ، وما انتصر الحق ولا ثبت قدم مجاهد في معركة إلا بربط القلوب .

والربط في التنزيل ذكر في خمسة مواضع ، ارتبط بالقلب في
ثلاث منها :

الأول : في غزوة بدر الكبرى قال تعالى : ﴿ إِذِ يُغَشِّيكُمُ
الْغَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنزِلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ
عَنكُم رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾
[الأنفال : آية ١١] .

الثاني : في قصة أصحاب الكهف قال تعالى :
﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن
نَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَلَّاهَا لَقَدْ فَلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ [الكهف : آية ١٤] .

الثالث : في قوله تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أَمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ
كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [القصص : آية ١٠] .

والراء والباء والطاء أصل واحد : يدل على شد وثبات ، من
ذلك : ربطت الشيء أربطه ربطاً ، والذي يشد به : رباط .

ومن الباب الرباط : ملازمة ثغر العدو ، كأنهم قد ربطوا هناك
فثبتوا به ولازموه . ورجل رباط الجأش أي : شديد القلب
والنفس^(١) .

وأصل الرباط : الحبس ، كأن المرابط حبس نفسه على هذه

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/٤٧٨) .

والرباط : المواظبة على الأمر .

وقال ابن الأثير^(٢) : الرباط في الأصل : الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها^(٣) .

وفي الحديث الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط»^(٤) .

فالرباط في الحديث : حبس النفس على الطاعة ، فهو بمعنى المواظبة على أعمال مخصوصة ، والربط من الرباط ، ففي مرحلة معينة من مراحل القلب ، يربط الحق تبارك وتعالى على قلب العبد بما حوى ، ليكرمه بأمر أو ليخذله في الدارين .

فعندما أصبح فؤاد أم موسى فارغاً - والفؤاد كما ذكرت : جوهر القلب ولبّه ، فهو مقر العقل - دهمها من الخوف والحيرة ما سلب عقلها عندما علمت بوقوعه في يد فرعون ، ربط الله على قلبها بالصبر والثبات لتزداد صدقاً و يقيناً بوعد الله وحفظه .

-
- (١) هدي الساري ص (١٢١) ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٤١/٢) .
(٢) ابن الأثير : المبارك بن محمد بن محمد أبو السعادات ، محدث لغوي أصولي ، ت ٦٠٦ هـ ، الأعلام (٢٧٢/٥) .
(٣) النهاية في غريب الحديث (١٨٥/٢) .
(٤) رواه مسلم في كتاب الطهارة ، باب فضل إسباغ الوضوء على المكاره ، وفي شرح مسلم للنووي (١٤١/٣) .

وفي غزوة بدر الكبرى أكرم الله المجاهدين بالربط على قلوبهم .

وقال النيسابوري^(١) في «غرائب القرآن» في معنى (على) : إن القلوب امتلأت من ذلك الربط حتى كأنه علاها وارتفع فوقها^(٢) .

فغشاهم النعاس وأنزل المطر ، وثبتت أقدام المجاهدين بتبديد الرمل الذي كان بينهم وبين العدو ، وربط القلوب ، فكان لها صبر على ملاقاتة المشركين حتى تم مراد الله بنصر زمرة المؤمنة الطاهرة .

وكذلك أصحاب الكهف ، بعد إيمانهم زادهم الله هدى وربط على قلوبهم ، قال أبو السعود في معنى الآية : (أي : قوتناهم حتى اقتحموا مضايق الصبر على هجر الأهل والأوطان والنعيم والإخوان ، واجترأوا الصدع بالحق من غير خوف)^(٣) .

فالحق ربط على قلوبهم ، فألهمها الصبر على مشاق هجر الأحبة ومواجهة الأعداء ، لإظهار شعار الدين من غير مبالاة من دقيانوس الجبار^(٤) .

فالربط هبة من الحق لمن أحب ، وعقاب منه لمن عصى ، فالكافر قلبه أغلف ، ربط على غلافه . ففي حديث أبي سعيد

(١) النيسابوري : الحسن بن محمد القمي النيسابوري نظام الدين ، مفسر توفي بعد (٨٥٠) هـ ، الأعلام (٢/٢١٦) .

(٢) غرائب القرآن (٩/١٣١) .

(٣) تفسير أبي السعود (٣/٥٠٣) .

(٤) دقيانوس ، ويسمى قلدیانوس : ملك في بلاد الروم أو نينوى قبل زمن المسيح ، البداية والنهاية (٢/١١٤) .

الخدري - رضي الله عنه - الذي ذكر فيه أن رسول الله ﷺ قسم
القلوب إلى أربعة وفيه : «وقلب أغلف مربوط على غلافه» - وفسره -
ﷺ فقال : «وأما الأغلف فقلب الكافر . . » الحديث (١) .

فقلب الكافر الحقيقي هو المربوط عليه ، فلا يدخله إيمان
جزاء إصراره وعناده ، بعد معرفته للحق وصدق اليقين .

(١) مسند أحمد (١٧/٣) . وقال ابن كثير : إسناده جيد حسن (تفسير ابن
كثير ١/٥٦) .

المبحث الثامن امتحان الله للقلوب وتمحيصها

المؤمن يتقلب في نعيم الله ، ويسعد بقلبه ويسعد قلبه به ، ولا بد للقلوب المؤمنة من امتحان ولا بد لها من تمحيص ، أي القلوب يستحق أن يتدرج في هذه المراتب ، وقد امتحنت قلوب الصفة الطاهرة وكانت أهلاً للنجاح . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَسْوَأَتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلنَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [الحجرات : آية ٣] .

والمحن : الاختبار^(١) يُقال محنه : اختبره وجربه ، ومثله : امتحنه .

والمحنة : ما يمتحن به الإنسان^(٢) .

فقد امتحن الله المؤمنين أن يخفضوا عند رسول الله إذا تكلموا إجلالاً له ، أو كلموا غيره بين يديه إجلالاً له ، وامتثلوا لامتحان ؛

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/٣٠٢) ، لسان العرب (١٣/٤٠١) .

(٢) دائرة معارف القرن العشرين (٨/٤٦٠) .

فكان الصديق - رضي الله عنه - يخاطبه كأخي السرار ، والصحابة مثله ، فأخلص الله قلوبهم للتقوى .

(قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في معنى الآية : أي : طهرهم من كل قبيح) (١) .

ويقول الفخر الرازي : (من يقدم نفسه ويرفع صوته يريد إكرام نفسه واحترام شخصه ، فقال تعالى : ترك هذا الاحترام يحصل به حقيقه الاحترام ، وبالإعراض عن هذا الإكرام يكمل الإكرام لأن به تتبين تقواكم) (٢) .

فلا بد للقلوب أن تمتحن بأنواع المحن والتكاليف . قال تعالى : ﴿ فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت : آية ٣] .

ومن هذا القبيل : التمهيص لتبين الجودة من الرداءة . قال تعالى : ﴿ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذٰتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : آية ١٥٤] .

والميم والحاء والصاد أصل واحد يدل على تخليص شيء وتنقيته ، ومحص الله العبد من الذنب : طهره منه ونقاه . ومحصت الذهب بالنار : خلصته من الشوب (٣) وتمحيص الذنوب تطهيرها (٤) .

(١) تفسير القرطبي (٣٠٨/١٦) .

(٢) التفسير الكبير (١١٥/٢٨) .

(٣) معجم مقاييس اللغة (٣٠٠/٥) .

(٤) لسان العرب (٩٠/٧) .

والتمحيص : الابتلاء والاختبار^(١) .

قال ابن كثير في معنى الآية : (أي يختبركم بما جرى عليكم ، ليميز الخبيث من الطيب ، ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس : في الأقوال والأفعال)^(٢) .

والتمحيص عملية تتم في داخل القلب ، عملية كشف لمكونات شخصية الفرد ، تنقيه من الغش والشر ، تترك القلب نقياً طاهراً مستقراً على الحق لا غشاء ولا ضباب . هذا التمحيص يعرف الفرد بنفسه ليحاول إصلاحها وتطهيرها ، ويعرفه بقلبه ليصلح أعوجاجه ، فيجعله في منهج مستقيم يرتقي مراتب الإيمان خطوة تلو أخرى ، حتى يرتقي إلى الدور المقدر له ، هذا التمحيص فعل في القلب ، وفعل الله في القلوب مجهول الكنه والكيف ، معروف النتائج في القلوب الطاهرة الندية ، ينفي عنها الزيف والرياء فلا يبقى فيها غش ولا دغل ، فالمسار طويل أمامها حتى تصل إلى الكمال .

(١) تاج العروس (٤/٤٣٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (١/٤١٨) .

الباب الثالث القلب المريض

- الفصل الأول : سبب مرض القلب
- الفصل الثاني : أمراض القلوب ودركاتها.

الفصل الأول أسباب أمراض القلوب

- المبحث الأول : تعريف المرض .
- المبحث الثاني : أسباب ضعف القلب
وما يترتب على ذلك .

المبحث الأول تعريف المرض

الميم والراء والضاد : أصل صحيح يدل على ما يخرج به الإنسان عن حد الصحة في أي شيء كان منه العلة^(١) .

أو هو خروج الطبع عن حال الاعتدال^(٢) وهو نقيض الصحة ، وأصل المرض النقصان^(٣) .

وعرف أيضاً بأنه صفة توجب وقوع الضرر في الأفعال الصادرة عن موضع تلك الصفة^(٤) وهو نوعان :

الأول : مرض جسماني : وهو تغير في النسيج أو عضو أو مجموع يوجب تشوشاً في عمله ، أو يمنع إتمام وظيفة من الوظائف الجسدية^(٥) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ ﴾

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/٣١١) ، المفردات ص (٤٦٦) .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٤/٤٩٢) .

(٣) لسان العرب (٧/٢٣١) .

(٤) التفسير الكبير (٢/٦٤) .

(٥) دائرة معارف القرن العشرين (٨/٧٣٧) .

[البقرة : آية ١٨٤] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور : آية ٦١ ، الفتح : آية ١٧] .

والثاني : (مرض نفساني : وهو عبارة عن الظلم والجهل والجبن والبخل والنفاق ، وغيرها من الرذائل الخلقية والسجايا الخبيثة)^(١) .

كما قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : آية ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَيَقُولَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ [المدثر : آية ٣١] .

وذكر أهل التفسير أن المرض في القرآن على ثلاثة أوجه^(٢) :

أحدها : مرض البدن . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ﴾ [البقرة : آية ١٩٦] .

الثاني : الشك . ومنه قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : آية ١٠] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ ﴾ [التوبة : آية ١٢٥] .

الثالث : الفجور . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَيَطْمَعُ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : آية ٣٢] .

ومنها : ﴿ لَيْنَ لَزِينَتِهِ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾

(١) المفردات ص (٤٦٦) ، بصائر ذوي التمييز (٤/٤٩٢) .

(٢) نزهة الأعين النواظر ص (٥٤٦) ، إصلاح الوجوه والنظائر ص (٤٣٢) .

[الأحزاب : آية ٦٠] .

والمرض النفساني إذا أطلق فالمراد به عموم الأمراض الباطنة التي تتناول الصدر أو القلب . (فالنفس في كلام الله وصفت بثلاث أوصاف ، وهي نفس واحدة ولها صفات متغايرة . فالسكينة مزيد الإيمان ، وبها تحصل الطمأنينة ، ويرتقي القلب إلى مقام الروح ، وتتوجه النفس إلى مقام القلب ، وفي ذلك طمأنينتها ، فهي إذا المطمئنة . وإذا انزعجت عن مقام جبلاتها متطلعة إلى مقام الطمأنينة ؛ فهي اللوامة ، فإذا قامت في محلها لا يغشاها نور المعرفة والعلم ؛ فهي الأمانة بالسوء . فالنفس والروح يتطاردان ، فتارة تملك القلب دواعي الروح ، وتارة تملكه دواعي النفس)^(١) .

(١) إتحاف السادة المتقين (٢٠٧/٧) .

المبحث الثاني أسباب ضعف القلب وما يترتب على ذلك

والمقصود أن أمراض القلوب تأتي إليها من قبل النفس ، فإذا كانت عامرة بالإيمان فهي في مكنن حصين لا تمرض بذاتها ، مفطورة على التوحيد وليس للشيطان مسلك إلى القلب إنما مسلكه النفس .

(فإن القلوب كالأواني ، ما دامت مملوءة ماء لا يدخلها الهواء ، لاشتغال المكان)^(١) .

فما دامت عامرة بما مرّ في حياة القلوب فلا يمكن إغواؤها بحال ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: آية ٤٢] .

إنما إذا كانت خالية من مراتب الإيمان أي على الفطرة ، فالفطرة تحرف إذا وجدت من يغويها إلى طريق الضلال ، فهي نقطة نور أقرب إلى الحق منها إلى الغواية ، إلا بقوة خارجية تحرفها عن الجادة .

(١) إتحاف السادة المتقين (٧/٢٢٠) .

فإذا انحرفت الفطرة بفعل النفس الأمارة بالسوء ؛ أثرت على القلب : إما بالشهوات أو الشبهات كما مر ، لخلوّه من الإيمان ، فينجرف حيالها بما يملأ فراغه نكتة بعد أخرى ، كما قال رسول الله ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة - رضي الله عنه - : «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء فإن تاب صقل منها ، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾»^(١) .

(فالذنوب والمعاصي تضر ، ولا بد أن ضررها في القلب كضرر السموم في الأبدان ، على اختلاف درجاتها في الضرر)^(٢) .
والذنوب مختلفة المراتب : فمنها صغائر ، ومنها ما توعد باللعنة أو بالحد لفاحله .

فمتى مرض القلب ، وهو الملك ، أثر على بقية الجوارح ، كما قال النبي ﷺ : «ألا وإن في الجسد مضغة : إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب»^(٣) .

أصبح به علة مع بقاء حياته ، فله مادتان : تمده هذه مرة وهذه أخرى ، وهو لما غلب عليه منها فهو قلب مصفح ، كما فسره النبي ﷺ : «وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق . فمثل الايمان فيه : كمثّل البقلة ، يمدّها الماء الطيب ، ومثّل النفاق فيه : كمثّل القرحة ، يمدّها القيح والدم . فأى المادتين غلبت على

(١) المستدرک ، کتاب الإیمان (٥/١) ، وقال : حديث صحيح .
(٢) الداء والدواء ص (٦٠) المسمّى بالجواب الكافي ، ابن قيم الجوزية .
(٣) جزء من حديث رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير ، صحيح البخاري (٢٠/١) كتاب الإیمان .

الأخرى غلبت عليه»^(١) .

ففيه من محبة الله والإيمان به ما هو مادة حياته ، وفيه من محبة الشهوات والشبهات ما هو مادة لهلاكه ، وهو يجيب أدناهما إليه جواراً .

فأمراض القلب هي أمراض النفس بالدرجة الأولى ، ولكن جار السوء له سلطان يؤثر على الضعيف ، حتى يصبح التأثير صفة غالبية عليه ، فما يلقيه الشيطان في النفس ؛ يكون فتنة للقلب المريض أو الميت ، وقوة للقلب الحي السليم .

قال حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - : «سمعت رسول الله ﷺ يقول : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأبي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى يصير القلب على قلبين : أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً ، لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكراً ؛ إلا ما أشرب من هواه»^(٢) . ومعنى مجخياً : أي مائلاً^(٣) .

فليست كل الذنوب مؤثرة على القلب إنما ما سكن فيه وألزم به ، فإذا أشرب القلب حب الفتنة أتته النكتة كما قال تعالى : ﴿ وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ﴾ [البقرة : آية ٩٣] .

(١) جزء من حديث رواه الإمام أحمد في مسنده ، (١٧/٣) ، عن أبي سعيد

الخدري ، وقال ابن كثير في تفسيره (٥٦/١) : إسناده جيد حسن .

(٢) صحيح مسلم (١٤٤) كتاب الإيمان (١/١٢٨) ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسعود غريباً .

(٣) القاموس المحيط ص (١٦٣٨) .

فهو دخول تام وإلزام حتى تحل منه محل الشراب ، ثم يتدرج به النكت . والنكت هو النقطة في الشيء بخلاف لونه (وهو شبه الوسخ في المرأة)^(١) حتى يحيط بالقلب فيصبح محصوراً ، وهو المشار إليه في الحديث «كالحصير عوداً عوداً» .

والمعنى أنها تحيط بالقلوب كالمحصور المحبوس ، يُقال : حصره القوم إذا أحاطوا به وضيقوا عليه ، واحد تلو الآخر ومرة بعد أخرى ، فبعد أن كان القلب أبيض مثل الصفا لا تلتصق فيه الفتن ، لشدته على عقد الإيمان ، وسلامته من الخلل والزلل ؛ أصبح مريداً لونه بين السواد والغبرة ، فإذا استمر على ما هو عليه : مال ثم انتكس ، فأصبح كالكوز مجخياً ، لا يعلق به خير ولا حكمة ، فهو قلب ميت .

والمجخي : (المائل عن الاستقامة والاعتدال . يُقال : جخي الرجل في جلوسه : إذ جلس مستوفزاً ، وجخي في صلاته : إذا جافى عضديه عن جوفه ، ورفع جوفه عن الأرض وخوى)^(٢) .

والتشبيه بالكوز المائل ؛ دليل على أن القلب كان مملوءاً بالخير : إما الفطرة أو نور الإسلام ، فلا يزال يميل ، وفي الميل سكب لما فيه ، حتى ينسكب ما حوى من الخير فلا يدخله شيء بعد ذلك ، فما دام عامراً ملأناً بالإيمان لا يؤثر فيه شيء ، فإذا بدأ في مراحل الانتكاس ، وبدأت أعراض الضعف عليه ؛ تسلطت عليه النفس بقوتي الشهوات والشبهات ، فيتحمل من الآثام ما يلقيه إلى مهاوي الموت .

(١) القاموس المحيط ص (٢٠٧) .

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول (٢٢/١٠) مجد الدين المبارك بن محمد بن الأثير توفي ٦٠٦ هـ ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط .

الفصل الثاني أمراض القلوب ودركاتها

- المبحث الأول : آثام القلب .
- المبحث الثاني : صفو القلب .
- المبحث الثالث : زيغ القلب .
- المبحث الرابع : غل القلب .
- المبحث الخامس : القلب الغليظ .
- المبحث السادس : غيظ القلوب .
- المبحث السابع : إباء القلب .
- المبحث الثامن : القلب والكبر .
- المبحث التاسع : نفاق القلب .
- المبحث العاشر : الكفر والقلب .
- المبحث الحادي عشر : أثر الذنوب على القلوب .

المبحث الأول آثام القلب

والإثم : الذنب ، وقيل : هو أن يعمل ما لا يحل له^(١) .
والآثام : جزاء الإثم أي العقوبة^(٢) ومنه قوله تعالى: ﴿ وَمَنْ
يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ [الفرقان : آية ٦٨] .

وأيضاً : اسم للأفعال المبטئة عن الثواب^(٣) .
وقد نسب الله تعالى الإثم إلى القلب فقال عز وجل : ﴿ وَلَا
تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ﴾ [البقرة :
آية ٢٨٣] .

ونسب الإثم إلى القلب ؛ دليل على أنه أشرف الأجزاء في
الإنسان والمسيطر عليها ، ولبيان أهمية فعله على سائر الجوارح ،
فهي تابعة له .

(١) القاموس المحيط (١٣٨٨) .

(٢) لسان العرب (٦/١٢) .

(٣) المفردات ص (١٠) .

وقيل : وأسند الإثم إلى القلب ؛ لثلا يظن أن كتمان الشهادة من الآثام المتعلقة باللسان فقط ، وليعلم أن القلب أصل متعلقه ومعدن اقترافه) (١) .

وقال الرازي : (إن كثيراً من المتكلمين قالوا : إن الفاعل والعارف والمأمور والمنهي هو القلب) (٢) .
وقد وردت المادة في القرآن على أربعة أوجه :

فوجه منها الإثم : يعني الشرك : ومنه قوله تعالى : ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ﴾ [المائدة: آية ٦٣] .

الثاني : الإثم : يعني المعصية ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّنِي مَخْصَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِي﴾ [المائدة : آية ٣] أي غير متعمد لمعصية ، ومنه قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ [الأعراف : آية ٣٣] يعني المعاصي، وقيل الخمر .

الثالث : الإثم : الذنب ، كما في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة : آية ٢٠٣] يعني : فلا ذنب عليه ، أي ذنبه مغفور .

الرابع : الإثم : يعني الخطأ ، كما في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ [البقرة : آية ١٨٢] أي خطأ ، وهو

(١) روح المعاني (٦٢/٣) .

(٢) التفسير الكبير (١٢٣/٧) ، وستتطرق لهذا في باب القلب والمعرفة .

قول مقاتل خاصة في العقوبة^(١) .

فالإثم اسم جامع لمطلق الذنب الذي يتدرج فيه القلب ، من عموم المعاصي صغائر وكبائر ، حتى يهوي به إلى الشرك الأكبر فيختم أو يطبع عليه ، وقد أوضحها ابن القيم مسلسلة فقال : (أول ما يطرُق القلب الخطرة ، فإن دفعها استراح مما بعدها ، وإن لم يدفعها قويت فصارت وسوسة فكان دفعها أصعب ، فإن بادر ودفعها وإلاً قويت وصارت شهوة ، فإن عالجها وإلاً صارت إرادة ، فإن عالجها وإلاً صارت عزيمة ، ومتى وصلت إلى هذا الحال لم يمكن دفعها ، واقرن بها الفعل ولا بد)^(٢) .

فقبل أن يندفع القلب في الإثم لا بدّ له من الميل إلى هذا المسلك ، وهو بداية المرض ، فهو مختار في أن يميل إلى طريق الخير أو طريق الضلالة ، وقد عبّر الحق عن ميل القلب بالصغور .

(١) إصلاح الوجوه والنظائر ص (١٦) .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص (٤٢٠) .

المبحث الثاني صغو القلب

وقد وردت هذه المادة مرتين في القرآن الكريم ، ارتبطت الأولى بالفؤاد في قوله تعالى ﴿ وَلِصَّغَىٰ إِلَيْهِ أَفْعَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ ﴾ [الأنعام : آية ١١٣] ، والثانية بالقلب في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ نُؤْبًا إِلَى اللَّهِ فَقَدَ صَغَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [التحریم : آية ٤] .

وصغو الفؤاد دليل على صغو القلب ولا بد ، لأنه لبه وخالص ما فيه ، وقد قال ابن عباس في تفسير صغو الفؤاد : (أي : ولتميل إليه قلوبهم وعقولهم وأسماعهم)^(١) .

يُقال : صغى إليه يصغى أي : مال ، وكذلك صغى بالكسر . يُقال : صغيت إلى الشيء إذا ملت ، وصغوه معك : أي ميله معك ، وصغا الرجل : إذا مال على أحد شقية^(٢) . ويُقال في المستمع إذا مال بحاسته إلى ناحية الصوت أنه يصغى^(٣) .

(١) تفسير ابن كثير (١٦٧/٢) .

(٢) لسان العرب (٤٦١/١٤) ، بصائر ذوي التمييز (٤١٦/٣) ، المفردات ص (٢٨٢) .

(٣) التفسير الكبير (١٥٦/١٣) ، روح المعاني (٦/٨) .

والقلب حاسة قابلة للانحراف ما لم تجد عاصماً يكبحها ،
ولا عاصم من وسوسة الإنس والجن إلا بالتمسك بما يُحيي القلب
وينميّه ، إنما المعوقات هي التي تحول بين القلب والحق .
فشياطين الإنس والجن يغري بعضهم بعضاً ، ويحرض بعضهم بعضاً
على التمرد والغواية ، فتصغى إليهم القلوب المريضة ، وفي صغوها
زيغان لها والزيغ ميل أيضاً ، إلا أن (الزيغ مطلقاً لا يكون إلا الميل
عن الحق ، يُقال فلان من أهل الزيغ . ويُقال أيضاً زاغ عن الحق .
ولا أعرف زاغ عن الباطل ، لأن الزيغ اسم لميل مكروه ، والميل
عام في المحبوب والمكروه)^(١) .

(١) الفروق اللغوية ص (١٧٦) .

المبحث الثالث زيغ القلب

والزيغ مرض من أمراض القلوب التي بدأت في طريق الانحدار ، وقد ذكرت المادة في ثمان مواضع من كتاب الله ، ارتبطت بالقلب في أربع منها .

الأول : قوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [آل عمران : آية ٨] .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران : آية ٧] .

الثالثة : قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة : آية ١١٧] .

الرابع : في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا

يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿ [الصف : آية ٥] .

والزاي والياء والغين : أصل يدل على ميل ، يُقال : زاغ يزيغ
زيغاً .

والتزيغ : التمايل^(١) ، والزائغ : الطالب للفتنة^(٢) .

والزيغ : الميل عن الاستقامة ، والزائغ : المائل ، وزاغت
الشمس إذا مالت^(٣) .

وللمفسرين في معناه قولان :

أحدهما : الشك . قاله مجاهد والسدي .

والثاني : أنه الميل . قاله أبو مالك .

وعن ابن عباس كالقولين ، وقيل : هو الميل عن الهدى^(٤) .

(ولكن الشك : استواء طرفي التجويز ، والشاك يجوز كون ما
شك فيه على إحدى الصفتين ، لأنه لا دليل هناك ولا أمارة ، فهو
اجتماع شيئين في الضمير متناقضين من غير تقوية أحدهما على
الآخر)^(٥) .

(بينما الميل هو : العدول عن الوسط إلى أحد الجانبين ،
ويستعمل في الجور)^(٦) .

(١) معجم مقاييس اللغة (٣/٤٠) ، لسان العرب (٨/٤٣٢) .

(٢) التفسير الكبير (٧/١٧٤) .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص (٢١٧) ، بصائر ذوي التمييز
(٣/١٥٤) ، روح المعاني (٣/٨٢) .

(٤) تفسير الطبري (٣/١٧٦) ، زاد المسير (١/٣٥٣) .

(٥) الفروق اللغوية ص (٧٩) .

(٦) المفردات في غريب القرآن ص (٤٧٨) .

والحق تبارك وتعالى يصف أهل الزيغ بأنهم يتبعون ما تشابه من القرآن ويتركون الآيات المحكمات ، فهم مالوا إلى الجانب الذي يرغبون ، اتباعاً للفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله .

كما أن المصطفى ﷺ حذر أُمَّته من الميل إلى الدنيا وملذاتها . فعن أبي الدرداء - رضي الله عنه - قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نذكر الفقر ونتخوفه فقال : «ألفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده لتصبنَّ عليكم الدنيا صباً ، حتى لا يزيغ قلب أحدكم إزاعة إلهية ، وأيم الله لقد تركتكم على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء»^(١) .

فالميل إلى طريق الضلال يقرب الإنسان من الهاوية ، وقد نسب الله للإنسان الزيغ عن الهدى في قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَنْقُومِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الصف : آية ٥] .

فإذا مال الإنسان إلى طريق الضلال ، ولم تنفع معه البينة الواضحة في فترة اختباره التي وهبها الله للقلب ؛ أزاع الله قلبه ، لأن القلب محل الميل والإرادة ، صالح إذا مال إلى الإيمان ، وفاسد إن زاغ إلى الضلال .

فمن ذاق حلاوة الإيمان طلب من الله أن يثبت قلبه على الهدى ، فقد كان أكثر دعاء رسول الله ﷺ : « يا مقلب القلوب

(١) سنن ابن ماجه (٤/١) ، المقدمة ، باب (١) الحافظ محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه ، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي . وقال : هذا الحديث مما انفرد به المصنف .

ثبت قلبي على دينك» (١) .

ويقول ﷺ لأم سلمة : «يا أم سلمة ! ما من آدمي إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله عز وجل ، ما شاء أقام ، وما شاء أزاغ» (٢) .

فكل من زاغ عن الحق بلبس أو اشتباه فقد سار في طريق الضلال ، سواء كان بأقله أو أكثره ، فقد وعد الله من بدأ بالزيغ أن يزيغ قلبه ، وحرمه من الهداية وسماه فاسقاً ، فهو لا يقبل الحق ولا يميل إليه ، فتجده يؤذي أهل الحق كما قال تعالى على لسان موسى لقومه : ﴿ يَنْقُورِمِهِمْ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ﴾ [الصف : آية ٥] .

ويحمل لهم في قلبه الغش والعداوة والحس ؛ حتى يتمكن الغل من قلبه بعد أن عم صدره .

(١) مسند أحمد من حديث أم سلمة (٦/٣٠٢، ٣١٥) ، سنن الترمذي (٤/٤٤٩) كتاب القدر باب (٧) وقال : حديث حسن .
(٢) المصدر السابق - وروي من حديث عائشة - رضي الله عنها - (٦/٩١) .

المبحث الرابع غل القلب

وردت هذه المادة في القرآن الكريم ، وأثبت الغل للصدر كما في قوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ الْأَنْهَارُ ﴾ [الأعراف : آية ٤٣] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر : آية ١٠] .

الغين واللام أصل صحيح يدل على تخلل الشيء وثبات شيء ، كالشيء يغرز ، من ذلك قول العرب : غللت الشيء في الشيء إذا أثبتته فيه كأنه غرزته .

ومن الباب الغل ، وهو الضغن ينغل في الصدر^(١) .

وورد الغل بمعنى الغش والعداوة والضغن والحقد والحسد والدغل والنفاق والحقد الكامن والخيانة والشر^(٢) .

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٣٧٦) .

(٢) لسان العرب (١١/٤٩٩ - ٥٠٥) ، تاج العروس (٨/٤٨) .

وهذه الأمراض مكنها الصدر يتولى الله نزعها من صدور الذين آمنوا وعملوا الصالحات عند دخولهم الجنة ، هذه الصفات عندما تكمن في الصدر تتخلل القلب بلطف حتى تتمكن منه وتصبح صفة يوصف بها القلب المريض .

قال الرازي : (الغل : الحقد ، وهو الذي يغل بلطفه إلى صميم القلب ، ومنه : الغلول وهو الوصول بالحيلة إلى الذنوب الدقيقة ، ويُقال : انغل في الشيء إذا دخل فيه بلطفة - كالحب يدخل في صميم الفؤاد)^(١) .

والغل يقتضي التشفى والانتقام فإن تشفى بنفسه أو أحب أن يتشفى غيره ممن يرى أنهم أعداؤه ، فكل أموره ومعانيه تلزم البغض والعداوة ، ويفضي ذلك إلى التنازع والتقاتل وربما أهلك المريض نفسه بالمرض الباطني المتعلق بالقلب ، وهذا بغية الشيطان من حظ الإنسان . لهذا حذر رسول الله ﷺ أمته من الغل فقال : «ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم أبداً : إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم جماعة المسلمين ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»^(٢) .

ومعنى قوله ﷺ : «لا يغفل عليهن قلب مؤمن» :

تُرَوَّى هذه الكلمة بفتح الياء وكسر الغين ، وهو من الغل : الحقد والضغن ، يقول : لا يدخله شيء من الحقد يزيله عن الحق ، ويروى بضم الياء وكسر الغين من الخيانة ، والإغلال :

(١) التفسير الكبير (٨٠/١٤) .

(٢) مسند أحمد (١٨٣/٥) ، من حديث زيد بن ثابت وإسناده صحيح ، جامع الأصول (٢٦٥/١) .

الخيانة في كل شيء (١) .

وهذه الخصال تطهر القلب من الدغل والخيانة والشر (٢) .

فإذا غلّ قلبه على حقد لا يخلص ولا يناصر وفارق الجماعة . فهذه الثلاث الواردة في الحديث أساس وحدة الأمة الإسلامية ، وبانهيارها تنهار وحدة الأمة .

ولا بد لهذه الصفة من حالة أخرى تتبعها : وهي الغلظة وعدم الإشفاق وقلة الرحمة ، حتى تتمكن من القلب فتكون حالة من حالاته ، ثم تصبح صفة ملازمة له .

(١) جامع الأصول (١/٢٦٧) .

(٢) النهاية في غريب الحديث (٣/٣٨١) .

المبحث الخامس القلب الغليظ

والغلظة مرض آخر من أمراض القلوب ، ذكره الله في محكم بيانه ، منزهاً عنه رسوله ﷺ فقال تعالى : ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّهُمْ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [آل عمران : آية ١٥٩] .

والغلظة ضد الرقة في الخلق والطبع والفعل والمنطق والعيش ، فهي قسوة وشدة واستطالة ، والغلظ من الأرض الصلب من غير حجارة^(١) .

وكأن غلظة القلب درجة أقل من القسوة ، فهو كالأرض الجامدة ، ولم يصل بعد إلى مرتبة التحجر ، وإن كان في بداية المسار نحو التحجر . أو هي قسوة أقل من القسوة المتصف بها .

وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ولو كنت فظاً غليظ

(١) لسان العرب (٧/٤٤٩) ، تاج العروس (٥/٢٥٥) .

القلب ﴿ : (الفظ : سيء الكلام ، والغلظة قسوة القلب) (١) وبه قال الزمخشري (٢) .

(وقال الألويسي : ﴿ولو كنت فظاً﴾ أي خشن الجانب ، شرس الأخلاق ، جافياً في المعاشرة قولاً وفعلاً ، ﴿غليظ القلب﴾ أي : قاسيه .

ونقل عن الكلبي : ﴿فظاً﴾ في الأقوال ، ﴿غليظ القلب﴾ في الأفعال .

وذكر بعضهم أن (الفظ) سيء الخلق في الأمور الظاهرة من الأقوال والأفعال ، و﴿غليظ القلب﴾ السيء الخلق في الأمور الباطنة ، والثاني سبب للأول ، وقدم المسبب لظهوره ؛ إذ هو الذي يطلع عليه (٣) .

وفرق الرازي بين الفظ وبين غليظ القلب فقال : (الفظ الذي يكون سيء الخلق ، وغليظ القلب هو الذي لا يتأثر قلبه عن شيء ، فقد لا يكون الإنسان سيء الخلق ولا يؤدي أحداً ؛ ولكنه لا يرق لهم ولا يرحمهم) (٤) .

والنتيجة : أن القلب إذا اتصف بالغلظة وأصبحت ملكة فيه لا بد أن يتبعها كل صفة ذميمة ، سواء ظهرت حالاً أو مآلاً ، فلا تنزع الرحمة إلا من شقي .

(١) تفسير ابن كثير (١/٤٢٠) .

(٢) الكشاف (١/٢٢٦) .

(٣) تفسير روح المعاني (٤/١٠٦) .

(٤) التفسير الكبير (٩/٦٤) .

أما إذا لم يصل القلب إلى مرحلة الوصف بل كانت حالة تعثره ثم تزول ، أو كانت غلظة سلوك ونفرة طباع بسبب البيئة والنشأة ، كما ورد في الحديث الصحيح عن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال : « أشار رسول الله ﷺ بيده نحو اليمن فقال : الإيمان يمان هاهنا ، ألا إن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين ، عند أصول أذناب الإبل ، حيث يطلع قرنا الشيطان ، في ربيعة ومضر »^(١) .

فهذه إذا تداركها الإنسان زالت عنه ، فهي كما قال القرطبي : (عبارة عن تجهم الوجه وقلة الانفعال في الرغائب ، وقلة الإشفاق والرحمة) . ومن ذلك قول الشاعر :

يبكى علينا ولا نبكي على أحد لنحن أغلظ أكباداً من الإبل^(٢)

وإن لم يتداركها انتقلت إلى صفة ملازمة ، كما قال ابن حجر نقلاً عن الخطابي : (إنما ذم هؤلاء لاشتغالهم بمعالجة ما هم فيه عن أمور دينهم ، وذلك يفضي إلى قساوة القلب)^(٣) .

فقلب تمكن منه الغل والغلظة بجميع معانيها من : عداوة وبغض وحسد وحقد ونفرة طبع ؛ لا بد أن يتمكن منه الغيظ إن لم تستدركه رحمة الله .

(١) صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب (١٥) فتح الباري (٣٥٠/٦) .

(٢) تفسير القرطبي (٢٤٨/٤) .

(٣) فتح الباري (٣٥٢/٦) .

المبحث السادس غيظ القلوب

والغيظ حالة من حالات القلب المريض الذي توسط هاوية الهلاك ، ويدل على كرب يلحق الإنسان من غيره^(١) .

والغيظ : الغضب ، وقيل غضب كامن للعاجز ، وقيل أشد الغضب^(٢) .

وعرّفه الراغب : بأنه أشد الغضب ، ناتج عن الحرارة التي يجدها الإنسان من فوران دم قلبه^(٣) .

وهناك فرق بين الغضب والغيظ ، (فالإنسان يجوز أن يغتاظ من نفسه ولا يجوز أن يغضب عليها ، وذلك أن الغضب إرادة الضرر للمغضوب عليه ، ولا يجوز أن يريد الإنسان الضرر لنفسه ، والغيظ يقرب من باب الغم)^(٤) .

وقد تولى الله إذهابه من قلوب الصفوة الطاهرة فقال تعالى :

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٤٠٥) .

(٢) لسان العرب (٧/٤٥٠) ، القاموس المحيط ص (٩٠٠) .

(٣) المفردات ص (٣٦٨) .

(٤) الفروق اللغوية ص (١٠٦) .

﴿ وَيَسْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۖ وَيَذْهَبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة: آية ١٤ ، ١٥] .

كما أن كظم الغيظ من صفات وأفعال المتقين ، قال تعالى :
﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ
وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ
وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظِ ﴾ [آل عمران : آية ١٣٣ ، ١٣٤] .

والغيظ صفة من صفات المنافقين ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا
لِقَوْمِكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَلَيْكُمْ إِلَّا نَامِلًا مِّنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا
بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران : آية ١١٩] .

فهو دليل على شدة الغضب الذي يكنوه في صدورهم حتى
تمكن الغيظ من قلوبهم ، وفيه أيضاً أن هذه المرحلة بدايتها
الصدر ، بدلالة ذكره في الآية ، وأن الله عليم بالخواطر القائمة في
الصدر أو ما يحويه الذات .

وأيضاً بدلالة الآية التي قبلها في قوله تعالى : ﴿ قَدْ بَدَتِ
الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ [آل عمران : آية
١١٨] .

والمعنى : (ظهرت البغضاء في كلامهم ، لأنهم لما خامرهم
من شدة البغض والحسد ؛ أظهرت ألسنتهم ما في صدورهم فتركوا
التقية وصرحوا بالتكذيب . وقلتات اللسان أقل مما تجنه
الصدور)^(١) .

(١) التفسير الكبير (٨/١٩٨) ، فتح القدير (١/٣٧٦) والنص له .

أما الغيظ الذي في قلوب أهل الإيمان ليكون حمية لأجل الدين ، ورغبة في إعلاء دين الإسلام ، وراية لا إله إلا الله ؛ فهذا أمر مرغوب يدل على إيمان حقيقي أو كمال في الإيمان ، وليس هذا من باب الحسد والعدواة ، بل هو من باب : ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ ، فالحال الواحدة قد تكون خيراً تارة وأخرى بضردها حسب نور الإيمان ، فكما أن الحسد مذموم إذا كان لتمني زوال النعمة ؛ فهو مرغوب إذا أريد منه الخير ، كأن يكون له ما لذلك الفرد حتى ينفق في سبيل الله بدون تمني زوالها عنه ، كما صرحت بذكره الأحاديث النبوية ويسمى : غبطة .

وقد ينسب الغيظ إلى غير الإنسان كما في قوله تعالى في صفة النار : ﴿إِذْ أَرَأَيْتُمْ مَنِ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان : آية ١٢] (فهو تشبيه صوت غليانها بصوت المغتاض)^(١) وإن كان حمله على الحقيقة أولى ، فهو أمر غيبي .

والخلاصة : أن حالة الغيظ التي تكون في القلوب المريضة ، تدل على فساد الفطرة وانحرافها ، وفساد القلب وضلاله ، ونفاق في السلوك^(٢) .

فصاحب الغيظ لم يبلغ بعد مرتبة النفاق العقدي ، وهو حالة مراحل موت القلب ، إنما هي نوايا سيئة تجيش في الصدر ينخدع بها المسلم ، فإذا استمر العبد في هذا الظلام كره قبول الحق والإذعان لنداء الإيمان ، فيستمر معه الكره حتى يوصله إلى الإباء .

(١) تفسير الألوسي (١٨/٢٤٣) .

(٢) سنن الفرد للنفاق باباً في نفاق القلب .

المبحث السابع إبء القلب

وإبء القلب عن الإذعان لما أمر الله مرض يؤدي إلى الكفر أو
الفسق ، نسبة الله إلى القلب في قوله تعالى عن المشركين :
﴿ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً
يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [التوبة :
آية ٨] .

وأسلوب ذي الوجهين عادة المنافقين أيضاً ، والإبء كما نسب
إلى القلب نسب إلى غيره .

فقد نسب الحق تبارك وتعالى الإبء إلى ذاته فقال تعالى :
﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ
وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة : آية ٣٢] .

كما نسب الإبء إلى مطلق الإنسان ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ
صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴾
[الإسراء : آية ٨٩] .

ونسب إلى إبليس ، قال تعالى : ﴿ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ
وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : آية ٣٤] .

وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّٰجِدِينَ ﴾
[الحجر : آية ٣١] .

كما نسب إلى السموات والأرض والجبال في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا
عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا ﴾
[الأحزاب : آية ٧٢] .

قال ابن فارس : الهمزة والباء والياء يدل على الامتناع ،
والإباء : أن تعرض على الرجل الشيء فيأبى قبوله ، فتقول : ما
هذا الإباء^(١) ؟ .

ويأباه إباء وإبائة : كرهه ، ورجل أبيّ : ذو إباء شديد ، إذا
كان ممتنعاً .

والإباء : أشد الامتناع^(٢) .

والإباء عصيان ، وقد حذر رسول الله ﷺ منه فقال : وكل
أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ، قالوا : يا رسول الله ! ومن يأبى ؟
قال : من أطاعني دخل الجنة ، ومن عصاني فقد أبى^(٣) .

وقال ابن حجر في معناه : (إن كان كافراً فهو لا يدخل الجنة

(١) معجم مقاييس اللغة (١/٤٥) .

(٢) لسان العرب (٤/١٤) ، القاموس المحيط ص (١٦٢٣) .

(٣) صحيح البخاري كتاب الاعتصام من حديث أبي هريرة . فتح الباري
(١٣/٢٤٨) .

أصلاً ، وإن كان مسلماً فالمراد منعه من دخولها مع أول داخل ،
إلا من شاء الله تعالى^(١) .

وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿وتأبى قلوبهم﴾ : (أي
تأبى عليهم قلوبهم أن يذعنوا لكم بتصديق ما يدونه لكم
بألسنتهم)^(٢) وهذا المعنى قريب مما ذكره جلّ المفسرين^(٣) .
ويدل على أن الإباء مرض قوله تعالى في آخر الآية :
﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة : آية ٨] .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في معنى الآية : (لا يبعد
أن يكون بعض أولئك الكفار قد أسلم وتاب)^(٤) .

فهذا الجزء من الآية؛ أخرج من زالت الغشاوة عن قلبه وأسلم
وتاب إلى الله ، والإباء والغليظة والغل وما حوى من معان ؛
تنم في داخلها عن قلب يغل بالحقد ، ويأبى أن يقيم على العهد ،
فباطنه باطن متكبر ، بدأ النفاق ينخر فيه .

(١) فتح الباري (٢٥٤/١٣) .

(٢) جامع البيان (٨٤/١٠) .

(٣) القرطبي (٨٠/٨) فتح القدير (٣٤٠/٢) روح المعاني (٥٦/١٠) .

(٤) التفسير الكبير (٢٣١/١٥) .

المبحث الثامن القلب والكبر

الكبر أوسع أبواب النفاق ، جامع لما مرّ من أنواع الزيغ والضلّال ، ومقره الصدر كما قال تعالى : ﴿ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ ﴾ [غافر : آية ٥٦] .

وبالتحديد في النفس التي في الصدر قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان : آية ٢١] .

ونسبه رسول الله ﷺ إلى القلب . ففي حديث ابن مسعود - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر . فقال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة . قال : إن الله جميل يحب الجمال . الكبر : بطن الحق ، وغمط الناس»^(١) .

ويمكن أن نقول : إن هذه صفة للقلب كما ثبتت بالسنة أيضاً

(١) رواه مسلم (١ / ٩٣) كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر رقم (٩١) ، وأبو داود رقم (٤٠٩١) ، في الأدب باب ما جاء في الكبر ، الترمذي (١٩٩٩) كتاب البر والصلة .

ثبت بالكتاب ، كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : آية ٣٥] .

(على قراءة أبي عمرو وابن محيصن وابن ذكوان عن أهل الشام (قلب) منون على أن «متكبر» نعت للقلب) (١) (وهي أيضاً قراءة ابن عامر) (٢) وقتيبة عن الكسائي) .

قال القرطبي (٣) رحمه الله : (كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك (يطبع) أي يختم «على كل قلب متكبر» بإضافة قلب إلى المتكبر ، واختاره أبو حاتم وأبو عبيد .

وفي الكلام حذف ، والمعنى «كذلك يطبع الله على كل قلب» على كل «متكبر جبار» فحذف «كل» الثانية لتقدم ما يدل عليها . وإذا لم يقدر حذف «كل» لم يستقم المعنى ؛ لأنه يصير معناه : أنه يطبع على جميع قلبه وليس المعنى عليه . وإنما المعنى : أنه يطبع على قلوب المتكبرين الجبارين قلباً قلباً ، ومما يدل على حذف «كل» : قول أبي دؤاد :

أكل امرئ تحسبين امرءاً ونار توقد بالليل ناراً
يريد وكل نار . وفي قراءة ابن مسعود «على قلب كل

(١) تفسير القرطبي (٣١٤/١٥) التفسير الكبير (٦٣/٢٧) إعراب القرآن (٣٣/٤) .

(٢) ابن عامر : عبد الله بن عامر بن يزيد أبو عمران اليحصبي ، أحد القراء السبعة ، توفي ١١٨ هـ ، الأعلام (٩٥/٤) .

(٣) القرطبي (٣١٤/١٥) .

متكبر» ، فهذه قراءة على التفسير والإضافة . وقرأ أبو عمرو وأبو محيصة (١) وابن ذكوان (٢) عن أهل الشام «قلب» منون على أن «متكبر» نعت للقلب ، فكُنِيَ بالقلب عن الجملة ، لأن القلب هو الذي يتكبر وسائر الأعضاء تبع له ، ولهذا قال النبي ﷺ : إن في الجسد مضغة ؛ إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ ألا وهي القلب) .

ونسب التكبر إلى إبليس كما في قوله تعالى : ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة : آية ٣٤] .

وأيضاً نسب إلى فرعون وقومه قال تعالى : ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [القصص : آية ٣٩] .

كما نسب إلى قوم صالح عليه السلام ، قال تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضِعُوا لِمَنْ أَمَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلَمُونَ أَنَّ صَلِحًا مُّسَرَّسٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ [الأعراف : آية ٧٥] .

ونسب أيضاً إلى قوم شعيب عليه السلام كما في قوله تعالى : ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعِيبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا﴾ [الأعراف : آية ٨٨] .

(١) أبو محيصة : محمد بن عبد الرحمن بن محيصة السهمي أحد القراء ، ت ١٢٣ هـ ، الأعلام (٦/١٨٩) .

(٢) ابن ذكوان : عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان من كبار القراء ، ت ٢٤٢ هـ ، الأعلام (٤/٦٥) .

وكذلك قوم عاد كما في قوله تعالى : ﴿ قَوْمًا عَادٌ
فَأَسْتَكْبِرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [فصلت : آية ١٥] .

وقوم نوح كما في قوله تعالى : ﴿ وَأَسْتَفْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا
وَأَسْتَكْبِرُوا أَسْتَكْبَارًا ﴾ [نوح : آية ٧] .

ونسب التكبر إلى أمم كثيرة أفسدت في الأرض بغير الحق ،
تمكّن هذا الداء منهم حتى أفضى بهم إلى موت القلب الكلي ،
فحرمهم الله نور الإيمان وفهم القرآن ، قال تعالى : ﴿ سَأَصْرِفُ
عَن آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأعراف : آية ١٤٦] .

والكاف والباء والراء أصل صحيح يدل على خلاف الصغير .
يُقال : هو كبير وكبار وكَبَّار . قال تعالى : ﴿ ومكروا مكراً كَبِيراً ﴾ .

والكبر : معظم الأمر ، وقوله عزّ وعلا : ﴿ والذي تولى كبره ﴾
أي معظم أمره^(١) . وقيل : الإثم ، وهو من الكبيرة كالخضّ من
الخطيئة^(٢) .

والاستكبار : الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبراً .

وعرّفه الراغب بقوله الراغب بقوله : (الكبر : الحنة التي
يتخصص بها الإنسان من إعجابه بنفسه ، وذلك أن يرى الإنسان
نفسه أكبر من غيره ، وأعظم التكبر : التكبر على الله بالامتناع من
قبول الحق والإذعان له بالعبادة .

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/١٥٣) ، القاموس المحيط ص (٦٠٢) .

(٢) لسان العرب (٥/١٢٩) ، النهاية في غريب الحديث (٤/١٤٢) .

والاستكبار يُقال على وجهين :

أحدهما : أن يتحرى الإنسان ويطلب أن يصير كبيراً ، وذلك متى كان على ما يجب ، وفي المكان الذي يجب ، وفي الوقت الذي يجب ؛ فمحمود .

والثاني : أن يتشبع فيظهر من نفسه ما ليس له ، وهذا هو المذموم) .

وقال أيضاً : (التكبر يُقال على وجهين :

أحدهما : أن تكون الأفعال الحسنة كثيرة في الحقيقة وزائدة على محاسن غيره ، وعلى هذا وصف الله تعالى بالتكبر ، قال : ﴿العزیز الجبار المتكبر﴾ .

والثاني : أن يكون متكلفاً لذلك متشبعاً ، وذلك في وصف عامة الناس ، نحو قوله : ﴿فَلَيْئَسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: آية ٢٩] وقوله ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: آية ٣٥] بإضافة القلب إلى المتكبر ، ومن قرأ بالتنوين جعل التكبر صفة للقلب ، والكبرياء الترفع عن الانقياد ، وذلك لا يستحقه غير الله(١) .

ولما لهذا الداء من أهمية على القلب ؛ لا بد أن ننظر له بأهمية أيضاً ، فقد وعد الله بالطبع على قلب المتكبر إذا صاحبه التجبر ، والطبع نهاية مراحل موت القلب . ووصفه بالإجرام ﴿فَأَسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ [الجاثية : آية ٣١] ، ووعدته

(١) المفردات ص (٤٢١ - ٤٢٢) .

بالخلود في النار إذا أضاف التكذيب بآيات الله ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف :
آية ٣٦] ، وكثير من الآيات تنص على خلود المتكبرين في النار .

ورسول الله ﷺ حرم المتكبر من الجنة ، كما في حديث ابن
مسعود الذي ذكرناه آنفاً ، وتوعده الله بالعذاب كما في حديث أبي
هريرة وأبي سعيد - رضي الله عنهما - قالاً : قال رسول الله ﷺ :
«العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبه»^(١) .

فما هو هذا الكبر الذي إن تمكن من القلب وصممه هذه
الصفات كلها ؟ .

قال الإمام النووي في حديث ابن مسعود : (أما قوله ﷺ :
«لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقد اختلف في
تأويله ، فذكر الخطابي^(٢) فيه وجهين :

أحدهما : التكبر عن الإيمان ، فصاحبه لا يدخل الجنة أصلاً
إذا مات عليه .

والثاني : أن لا يكون في قلبه كبر حال دخوله الجنة ، كما

(١) صحيح مسلم (٤/٢٠٢٣) كتاب البر والصلة حديث رقم (١٣٦) رقم
التسلسل (٢٦٢٠) .

قال النووي رحمه الله : (هكذا هو في جميع النسخ ، فالضمير في
«إزاره وردائه» يعود إلى الله تعالى للعلم به ، وفيه محذوف تقديره : قال
الله تعالى : ومن ينازعني ذلك أعذبه) (١٦/١٧٣) .

(٢) الخطابي : أحمد بن محمد بن إبراهيم البستي ، فقيه محدث ،
ت ٣٨٨ هـ ، الأعلام (٢/٢٧٣) .

قال تعالى ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ ﴾ [الأعراف : آية ٤٣] .

ثم قال : وهذان التأويلان فيهما بعد ، فإن هذا الحديث ورد في سياق النهي عن الكبر المعروف وهو : الارتفاع على الناس واحتقارهم ودفع الحق ، فلا ينبغي أن يحمل على هذين التأويلين المخرجين له عن المطلوب ، بل الظاهر ما اختاره القاضي عياض^(١) وغيره من المحققين أنه لا يدخل الجنة دون مجازاة إن جازاه ، وقيل : هذا جزاؤه لو جازاه وقد يتكبر بأن لا يجازيه ، بل لا بد أن يدخل كل الموحددين الجنة إما أولاً وإما ثانياً بعد تعذيب أهل الكبائر الذين ماتوا مصرين عليها ، وقيل : لا يدخلها مع المتقين أول وهلة^(٢) .

وقد مال ابن الأثير إلى الوجه الأول من قول الخطابي وهو : التكبر عن الإيمان ، وهو كبر الكفر والشرك^(٣) ، وقريب منه قول ابن كثير^(٤) .

وللتوفيق بين الأقوال أقول : التكبر نوعان :

الأول : تكبر في السلوك ، وهو أن يتكبر الإنسان على مخلوق مثله بالقول أو الفعل ، سواء كان بالنفس ، أو تعدى إلى القلب وظهرت آثاره على الجوارح ؛ لأن الأعضاء تبع له . فهذا النوع مرض يرجى برؤه ، فهو مجرد ترفع عن الناس أو احتقار لهم ،

(١) القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي البستي ، عالم المغرب ، ت ٥٤٤ هـ ، الأعلام (٩٩/٥) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٩١/٢) .

(٣) النهاية في غريب الحديث (١٤٣/٤) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (٧٩/٤) .

إذا كان المتصف به مؤمن بالله تعالى ، فالإيمان يزيد وينقص ، فهذا في حكم المشيئة إن شاء عذبه أو غفر له ، أو لا يدخل الجنة مع المتقين .

(وقد عرّف ابن الجوزي هذا النوع بقوله : هو تعظيم النفس واحتقار الغير ، وذلك يكون بسبب الترفع على من هو دونه ؛ إما في النسب أو المال أو العلم أو العبادة ، أو غير ذلك ، وعلامته الأنفة ممن يتكبر عليه ، والاختيال والفخر ومحبة تعظيم الناس له^(١) .

الثاني : كبر عقدي ، وهو المنافي للإيمان ، ومنه الترفع عن لا إله إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَيْهَنَا لِشَاعِرٍ تَجْنُونَ ﴾ [الصفات : آية ٣٤ - ٣٦] .

فهذا الذي تمكن الكبر من قلبه فعماه وأماته ، فهو من المجرمين الذين قال الله فيهم : ﴿ إِنَّهُم مِّن يَّاتِ رَبِّهِ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴾ [طه : آية ٧٤] ، وقال أيضاً : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [الزخرف : آية ٧٤] .

وهذا النوع مطبوع على قلبه إن كان من الجبارين ، كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : آية ٣٥] .

(١) الطب الروحاني ص (٣١) .

والجبار كما قال ابن كثير عن قتادة : (آية الجبابرة القتل بغير حق) (١) .

والتجبر أبلغ من التكبر ؛ لأن فخامة اللفظ تدل على فخامة المعنى ، ولا بد لجبار الأرض من جبار السماء .

وقد سئل ابن تيمية رحمه الله عن معنى قوله ﷺ : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » هل هذا الحديث مخصوص بالمؤمنين أم الكفار ؟ .

فأجاب : (الكبر المبين للإيمان لا يدخل صاحبه الجنة ، ومن هذا كبر إبليس وفرعون وغيرهما ممن كان كبره منافياً للإيمان ، والكبر كله مبين للإيمان الواجب . فمن في قلبه مثقال ذرة من كبر ؛ لا يفعل ما أوجب الله عليه ، ولا يترك ما حرم الله عليه ، بل كبره يوجب له جحد الحق واحتقار الخلق ، وهذا هو الكبر الذي فسره النبي ﷺ ، فمن كان مضيعاً للحق الواجب ، ظالماً للخلق ؛ لم يكن من أهل الجنة ، ولا مستحقاً لها ، بل يكون من أهل الوعيد .

لكن إن تاب ، أو كانت له حسنات ماحية لذنبه ، أو ابتلاه الله بمصائب كفرّ بها خطاياها ، ونحو ذلك ؛ زال ثمره هذا الكبر المانع له من الجنة ، فيدخلها) (٢) .

ومثل تقسيمنا الكبر إلى نوعين نوع سلوك يرجى برؤه ، ونوع تكبر عن لا إله إلا الله كفر بواح ؛ نستطيع أن نقسم النفاق .

(١) تفسير ابن كثير (٧٩/٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦٧٧/٧ - ٦٧٨) بتصرف .

المبحث التاسع نفاق القلب

النفاق أعم أمراض القلب وأكثرها دائرة ، يزيد وينقص ، فإن زاد كان الموت لا محالة ، وإلا المرض ، وقد سماه الله مرضاً كما في قوله تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : آية ١٠] .

وقد وردت هذه المادة بأوجه مختلفة في القرآن الكريم ، منها : (النفاق) ، تكرر بمشتقاته أكثر من ثلاثين مرة .

اعتبره الله مرضاً من أمراض القلوب ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ﴾ [المدثر : آية ٣١] .

وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ ﴾ أي من المنافقين^(١) . وكقوله تعالى : ﴿ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ

(١) تفسير ابن كثير (٤/٤٤٤) ، تفسير القرطبي (١٩/٨٢) .

فِيهِمْ ﴿ [المائدة : آية ٥٢] .

وفي آيات أخر فرق بين مرض القلب والنفاق ، كمثل قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُتْ أُولَئِكَ دِينَهُمْ ﴾ [الأنفال : آية ٤٩] .

وكقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [الأحزاب : آية ١٢] ، وفيها ﴿ لَئِن لَّمْ يَنْهَ الْأُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ﴾ [الأحزاب : آية ٦٠] .

فما هو النفاق ومتى يكون مرضاً من أمراض القلوب ؟ :

قال علماء اللغة : النون والفاء يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه ، والآخر : على إخفاء شيء وإغماضه .

فالأول : نفقت الدابة نفوقاً : ماتت ، ونفق الشيء : فني ، وأنفق الرجل : افتقر ، أي ذهب ما عنده ، ومنه قوله تعالى ﴿ قُلْ لَوْ أَنَّكُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ ﴾ [الإسراء : آية ١٠٠] .

والأصل الآخر النفق : سرب في الأرض له مخلص إلى مكان ، قال تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ ﴾ [الأنعام : آية ٣٥] .

ومنه اشتقاق النفاق ، لأن صاحبه يكتم خلاف ما يظهر ، فكأن الإيمان يخرج منه ، أو يخرج هو من الإيمان في خفاء ،

وعلى ذلك نبّه بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : آية ٦٧] أي الخارجون من الشرع^(١) .

وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ،
وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه .

وبالرجوع إلى آيات الذكر الحكيم والسنة المطهرة وكلام
السلف ؛ نجد أنه يجتمع في قلب العبد إيمان ونفاق ، كما قال ﷺ
في حديث تقسيم القلب : «وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان
ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثّل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثّل
النفاق فيه كمثّل القرحة يمدّها القيح والدم ، فأبي المادتين غلبت
على الأخرى غلبت عليه»^(٢) .

فمن منطلق الحديث النبوي نقول : إنه لا مانع أن يجتمع في
القلب إيمان ونفاق ، وقد قال بذلك علماء السلف .

قال ابن تيمية : (إن الإنسان قد يكون فيه شعبة من شعب
الإيمان وشعبة من شعب النفاق ، وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون
الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية ، كما قال الصحابة ابن عباس
وغيره : كفر دون كفر وهذا قول عامة السلف وهو الذي نص عليه
أحمد وغيره)^(٣) .

(١) معجم مقاييس اللغة (٤٥٤/٥) ، المفردات ص (٥٠٢) ، لسان العرب
(٣٥٩/١٠) ، بصائر ذوي التمييز (١٠٥ / ٥) .

(٢) جزء من حديث أبي سعيد الخدري ، رواه الإمام أحمد في مسنده (٣/
١٧) .

وقال عنه ابن كثير في تفسيره (٥٦/١) : إسناده جيد حسن .

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥٠/٧) .

فعلى هذا؛ النفاق قسمان :

الأول : نفاق عملي، وهو نفاق سلوك ، كما جاء في الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن ؛ كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر»^(١) .

الثاني : نفاق كفر ؛ وهو نفاق اعتقادي رسخ في القلب ، فهذا نفاق خالص ، صاحبه ميت القلب ، مطفأ النور تماماً ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُوا نَفْسِنَا مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا ﴾ [الحديد : آية ١٣] .

وستكلم عن النفاق في دائرة القلب فقط ، باعتبار القسم الأول مرض في قلب مسلم فيه شيء من الكذب في الحديث ؛ أو الخيانة في الأمانة ، أو خلف في الوعد ، أو غدر في المعاهدة ، أو فجور في الخصومة ، مفردة أو مجموعة ، وباعتبار اشتغالها على القول والفعل والنية ؛ ففساد القول بالكذب ، وفساد الفعل بالخيانة ، وفساد النية بالخلف . وباعتبار القسم الآخر موت القلب .

وقد قال الإمام النووي في شرحه لحديث عبد الله بن عمرو - السابق - : (هذا الحديث مما عدّه جماعة من العلماء مشكلاً ، من

(١) صحيح البخاري كتاب الإيمان (٢٤) واللفظ له ، فتح الباري (١/٨٩) صحيح مسلم (٧٨/١) كتاب الإيمان (١٠٦) .

حيث إن هذه الخصال توجد في المسلم المصدّق الذي ليس فيه شك ، وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقاً بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر ، ولا هو منافق يخلد في النار ، فإن إخوة يوسف عليهم السلام جمعوا هذه الخصال ، وكذا وجد لبعض السلف والعلماء بعض هذا أو كله . وهذا الحديث ليس فيه بحمد الله إشكال ، ولكن اختلف العلماء في معناه . فالذي قاله المحققون والأكثرون وهو الصحيح المختار ، أن معناه : إن هذا الخصال خصال نفاق ، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال ومتخلق بأخلاقهم ، فإن النفاق هو : إظهار ما يبطن خلافه ، وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال ، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وائتمنه وخاصمه وعاهده من الناس ، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر ، ولم يرد النبي صلى الله عليه وآله بهذا ؛ أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار^(١) .

وهذا المعنى ارتضاه الإمام القرطبي ، واستدل له بقول عمر لحذيفة - رضي الله عنهما - : هل تعلم فيّ شيئاً من النفاق ؟ فإنه لم يرد بذلك نفاق الكفر وإنما أراد نفاق العمل ، كما ارتضاه الإمام ابن حجر العسقلاني^(٢) .

ولو تتبعنا أمراض القلب من النكتة السوداء وحتى الكبر ؛ لوجدناها تندرج تحت مرض النفاق ، أو هي دركات يهبط فيها العبد واحدة بعد أخرى ؛ حتى يصل إلى وسط الهاوية ، وإلّا تعمق إلى النفاق العقدي ، فيصعب عليه رجوعه إلى الإيمان .

فنفاق السلوك من أكبر الذنوب ؛ لأن قوله يخالف فعله ،

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/٤٦ - ٤٧) .

(٢) فتح الباري (١/٩١) .

وسرّه يخالف علانيته ، وكما يسمّى نفاقاً يسمى تقيه ، ويستعمل هذا الأسلوب لينجو من مخاوف كاذبة يتوقعها ، أو ليشبع ما في باطنه من الكبر الذي أداه إلى احتقار أخيه المسلم .

فهو يرى أنه في مكانة مادية أو اجتماعية تسمح له بأن يفعل ما يريد ، أو لا تسمح له أن ينزل إلى مستوى العبيد ، فالناس في نظره ليسوا سواسية . فالشك رائده في صحة ما يسمع ، والكبر حجته في كل ما يفعل ، فإذا بقلبه يسري فيه الصدا والسواد ، فيبدأ في مرحلة التبلد لا يستطيع الموازنة بين الخير والشر ، وقد لا يحاول ذلك لتبديل القيم في قلبه الذي بدأ في الانتكاس من خير إلى رجس ، فلا يثق إلا بالمحسوس الذي يوافق هوى نفسه ، وينفعل لما تمليه عليه شهواته ورغباته .

وقد قال الحسن - رضي الله عنه - في تفسير قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ ﴾ [الجاثية : آية ٢٣] : (المنافق لا

يهوى شيئاً إلا ركبه) ، وبذلك قال قتادة^(١) ، أورده أبو بكر الفريابي بسنده ، وقد قال الحسن البصري رحمه الله : (لأن أعلم أني بريء من النفاق ؛ أحب إلي من طلاع الأرض ذهباً)^(٢) .

وقد أورد الفريابي بسنده عن أبي أيوب الأنصاري قال : (يأتي على الرجل أحيان وما في جلده موضع إبرة من النفاق ، وإنه ليأتي عليه أحيان وما في جلده موضع إبرة من الإيمان)^(٣) .

(١) صفة النفاق وذم المنافقين ص (٤٦) جعفر بن محمد الفريابي ،

ت ٣٠١ هـ ، تحقيق محمد عبد القادر عطا .

(٢) صفة النفاق وذم المنافقين ص (٥٤) رقم (٧٧) .

(٣) صفة النفاق وذم المنافقين ص (٥٧) رقم (٨١ ، ٨٢) .

فعلى قدر مكانة الإيمان في القلب ؛ يبعد الإنسان عن النفاق ، وبقدر زيادة الأعمال السيئة ؛ يضعف الإيمان حتى لا يبقى إلا أثره .

ففي حديث حذيفة - رضي الله عنه - المتفق عليه قال : حدثنا رسول الله ﷺ : «إن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال ، ثم علموا من القرآن ثم علموا من السنة» ، وحدثنا عن رفعها قال : «ينام الرجل النومة فتقبض الأمانة من قلبه ، فيظل أثرها مثل الوُكْت ، ثم ينام النومة فتقبض ، فيبقى فيها أثرها مثل أثر المَجْل ، كجمر دحرجته على رجلك فَنَفِطَ ، فتراه مُتَبَرّاً وليس فيه شيء ، ويصبح الناس يتبايعون فلا يكاد أحد يؤدّي الأمانة ، فيقال : إن في بني فلان رجلاً أميناً ، ويُقال للرجل : ما أعقله وما أظرفه وما أجلده ، وما في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان . . .» الحديث^(١) .

فالحديث يوضح حال مسلمين تعلموا القرآن ثم تعلموا السنة ، وهم من أهل القرن الأول بدلالة قوله في آخر الحديث - : «ولقد أتى علي زمان ولا أبالي أيكم بايعت ، لئن كان مسلماً رده علي الإسلام ، وإن كان نسراً نياً رده عليّ ساعيه ، وأما اليوم فما كنت أباع إلا فلاناً وفلاناً» - ثم يتحدث عن حالات وقعت في

(١) صحيح البخاري كتاب الرقاق ، باب (٣٥) ، فتح الباري (١١/٣٣٣) مسلم بشرح النووي (١/١٦٧) كتاب الإيمان . وقال ابن حجر في معنى قوله «من إيمان» : قد يفهم منه أن المراد بالأمانة في الحديث الإيمان ، وليس كذلك ، بل ذكر ذلك لكونها لازمة للإيمان .

ومن كلمات الحديث : (الوكت : ومعناه النقطة في الشيء ، المجل : أن يكون بين الجلد واللحم ماء ، والنفط : القرحة ، والنبرة : الورم في الجسد) . المعاني من القاموس .

عصره أو استقع في القرون التي تليه ؛ إذ ترفع الأمانة من القلوب :
والأمانة تشمل عموم التكليف ، وعلى رأسها الإيمان ، سواء كانت
قولية أو فعلية أو اعتقادية .

فزيادة المعاصي تعني تحللاً من التكليف ، فينقص الإيمان
الذي يعم القلب . ويقدر خروج النور يحل الظلام ، فيكون «مثل
أثر الوكت» سواد في اللون من أثر العمل ، ثم تزيد في القلب حتى
تصير نفضات فيه «كجمر دحرجته على رجلك فنفض» منتفخاً لا شيء
فيه ، فيسلب الأمانة شيئاً فشيئاً ؛ حتى يصير خائناً ، بعد أن كان
أميناً .

ومن صفات المنافق الخيانة ، وما تقدم من الصفات فهو نفاق
في السلوك ، والقلب لا يزال حياً ، ولكن به مرض مشابه تماماً
للفنق الحقيقي ، أي ميت القلب الذي لا رجاء فيه . كما قال
تعالى : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُتْ أُولَئِكَ
دِينَهُمْ ﴾ [الأنفال : آية ٤٩] .

فصاحب القلب المريض والمنافق ؛ جمع بينهما في موقف
واحد ومقالة واحدة وسلوك واحد ، فدل على أنه نوعان كما سبق
بيانه ، ولكن هذا القلب المريض الذي لا زالت به حياة ، الأيام بعد
ذلك تنهي ، من خلال الابتلاء والتكليف ؛ إلى ما ثبت أنه آل إلى
النفاق الحقيقي بالموت ، أو إلى الشفاء من النفاق بالإيمان .

وقد حث الحق تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن يعامل هذه الفئة
معاملة خاصة ، فقال جل من قائل : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنْفِقِينَ يَصُدُّونَ
عَنْكَ صُدُودًا فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيِّدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا
أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ
وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿ [النساء : آية ٦١ - ٦٣] .

فهنا ثلاث طرق قد تحيي هذه القلوب المريضة :

الأول : ﴿فأعرض عنهم﴾ أي : لا تعنّفهم على ما في

قلوبهم .

الثاني : ﴿وعظهم﴾ أي : أفهمهم عما في قلوبهم من النفاق

وسرائر الشر .

الثالث : ﴿وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً﴾ أي : وانصحهم

فيما بينك وبينهم ، بكلام بليغ رادع^(١) .

ولو وصلوا إلى النفاق الحقيقي المشرب في القلب ؛ فإنه لا

فائدة من هذه الطرق ، ولكن الحق أعلم بما في القلوب .

وبمثل ما قلنا في النفاق نقول في الكفر ، وبما مر فيه من

استشهادات نستصحبها .

(١) تفسير المعاني مقتبس من : تفسير ابن كثير (١/٥١٩) .

المبحث العاشر الكفر والقلب

في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :
«بادرُوا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً
ويمسي كافراً ، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض
الدنيا»^(١) .

فليس المراد بالكفر المخرج عن الملة ، إذ لا مانع أن يجتمع
في قلب العبد إيمان وكفر لا يخرجان عن الملة ، (فلعظم الفتن
يتقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب) كما قال النووي في
شرحه للحديث .

وفي الكفر قاعدة لغوية تفرق بين ما يخرج عن الملة وما لا
يخرج منه ، فالمقيد والمنكّر في سياق إثبات لا يخرج عن الملة ،
والمطلق والمعرف يخرجان من الملة^(٢) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١/١٣٣) كتاب الإيمان ، باب : الحث على
المبادرة بالأعمال .

(٢) حد الإسلام وحقيقة الإيمان ص (٥٨٧) .

فالكفر مرتبط بانسراح الصدر له ، كما قال تعالى : ﴿إِلَّا
 مِنْ أَكْرَهٍ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا
 فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ [النحل : آية
 . [١٠٦]

فمن شرح صدره للكفر واطمأن به ؛ فهذا المستحق لغضب
 الله ، الذي طبع الله على قلبه أو ختم عليه ، أما من كفر بلسانه ،
 ووافق المشركين بلفظه مكرهاً ، وقلبه يأبى ذلك ؛ فهذا مشتمى من
 الكفر الحقيقي ، فالكفر الحقيقي أوضحه الله بقوله : ﴿إِنَّ
 الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ
 وَيَقُولُوا نُوْمِنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ
 ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿
 [النساء : الآيات ١٥٠ - ١٥١] (١) .

أما الكفر السلوكي فقد أوضحه الحق في قوله : ﴿وَإِنَّا
 إِذَا أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يِمَّا قَدَّمَتْ
 أَيْدِيَهُمْ فَيَئِسَ مِنَ الْإِنْسَانِ كَفُورًا ﴿ [الشورى : آية ٤٨] .

(فهو يجحد ما تقدم من النعم ، ولا يعرف إلا الساعة
 الراهنة ، فإن أصابته نعمة أشرب ويطر ، وإن أصابته محنة يشرب
 وقتل) (٢) وليس هذا بمخرج عن الملة . مثله أيضاً في قوله تعالى :

(١) سيرد إيضاح الكفر الحقيقي في موتى القلوب .

(٢) تفسير ابن كثير (٤/١٢١) .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾
[إبراهيم : آية ٣٤] فالمراد به كفر النعمة ، يجمع ويمنع .

وكقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « اثنان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت »^(١) .

والمراد أنها من أعمال الكفار وأخلاق الجاهلية ، أو أنها تؤدى إلى الكفر ، أو أنه كفر النعمة والإحسان ، كما قال الإمام النووي .

فالمقصود أن السلوك المريض ، سواء كان مرض نفاق أو مرض كفر ؛ قد يؤدى إلى موت القلب إن لم يتدارك الله العبد برحمته ، ويتدارك العبد نفسه ؛ باتباع شرع الله والبعد عن المعاصي .

ولقد أثر عن ابن تيمية وصيته الجامعة لتلميذه ابن القيم ، إذ قال له :

(لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات ، مثل السفنجة ، فيتشربها فلا ينضح إلا بها ، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة ؛ تمرّ الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها ، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته ، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمرّ عليك ؛ صار مقراً للشبهات)^(٢) .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب ، شرح النووي (٥٧/٢) .
(٢) الداء والدواء ص (٨) .

المبحث الحادي عشر أثر الذنوب على القلب

وذكر ابن القيم في كتابه «الجواب الكافي» أثر الذنوب على حياة الإنسان وشخصيته ، أذكر منه ما يخص القلب .
وقد استشهد على قوله ببعض من نصوص الوحي .
فقال رحمه الله : (وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة ،
المضرة بالقلب والبدن ، في الدنيا والآخرة ؛ ما لا يعلمه إلا الله .
فمنها : حرمان العلم . فإن العلم نور يقذفه الله في القلب .
والمعصية تطفىء ذلك النور .

ولما جلس الإمام الشافعي بين يدي مالك - رحمهما الله - وقرأ عليه ؛ أعجبه ما رأى من وفور فطنته ، وتوقد ذكائه ، وكمال فهمه ،
فقال : إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً ، فلا تطفئه بظلمة
المعصية)^(١) .

والحق تبارك وتعالى وعد عباده المتقين البعيدين عن المعاصي

(١) الداء والدواء ص (٧٤) وسيرد إيضاح لذلك في باب القلب والمعرفة .

بوفرة العلم فقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٢٨٢] .

فالمعاصي إذا تراكمت على القلب سلبته العلم والفقه ،
فيطبع عليه ، والطبع لا يكون إلا على قلب مسلوب الفقه والعلم ،
كما قال تعالى : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
[الروم : آية ٥٩] (١) .

ومنها : (وحشة يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله ، لا
توازنها ولا تقارنها لذة أصلاً ، ولو اجتمعت له لذات الدنيا بأسرها ؛
لم تف بتلك الوحشة ، وليس على القلب أمر من وحشة الذنب على
الذنب) (٢) .

وقد قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا
كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ
لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام : آية ١٢٥] .

فالمعاصي تنكت في القلب نكته بعد أخرى ، فيصاب القلب
بالضيق والوحشة يظهر أثرها على الجوارح . لا تجد من تمادى في
غيه ، يرتاح لسماع الحق من أهل الورع والديانة ، إنما يرتاع منهم
وينقبض قلبه .

ومنها : (ظلمة يجدها في قلبه حقيقة ، يحس بها كما يحس
بظلمة الليل البهيم إذا ادلهم ، فتصير ظلمة لقلبه كالظلمة الحسية

(١) أذكر في باب الطبع على القلب أثر الطبع على سلوك الفرد .

(٢) الداء والدواء ص (٧٥) .

لبصره ، فإن الطاعة نور والمعصية ظلمة ، وكلما قويت الظلمة
إزدادت حيرته ، حتى يقع في البدع والضلالات والأمور المهلكة
وهو لا يشعر^(١) .

وقد أوضح الله في كتابه هذه الظلمة بقوله تعالى ﴿ يَكَادُ
الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَرَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾
[البقرة : آية ٢٠] .

وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُوبَكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ
مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَضِلُّهُ وَمَنْ يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الأنعام :
آية ٣٩] .

أما من طمست بصيرته وعم السواد قلبه وانكس ، أوضحه
الحق بقوله : ﴿ أَوْ كُذِّبَتْ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ
فَوْقِهِ سَحَابٌ مُظْتَمِتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَكْدُهُمْ لَمْ يَكْدِ يَرْبُهَا وَمَنْ
لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور : آية ٤٠] .

فمن أثر الظلمة تجده في حيرة ، فكلما أضيء في قلبه وبيص
من نور الفطرة أو نور الإسلام هدأ وارتاح ، وإذا غطي بالسيئات
احتار وتاه ، فهو يتخبط خبط عشواء ، لا زالت فيه نقطة خير ، فإما
أن تظهر أو تخبو ، فيختم على القلب بعد أن يعمه الظلام ويطبق
عليه ، فلا يعي من الحق شيئاً .

(١) الداء والدواء ص (٧٦) .

ومنها : أن المعاصي تضعف القلب وتوهنه عن مقابلة الأعداء . وما انتصر المسلمون في الفتوحات الإسلامية ؛ إلا بقوة القلوب التي اكتسبوها من قوة الإيمان ، وما انهزم أعداؤهم إلا بضعف القلوب ، مع كثرة عددهم وعددهم بالمقارنة إلى عدد وعُدَّة المسلمين ، وما تفوق المسلمون في حاضرمهم ؛ إلا بكثرة المعاصي التي وهنت القلوب .

وفي حديث ثوبان - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : من قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، ولينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن في قلوبكم الوهن . قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت» (١) .

فالمعاصي سبب الرعب والخوف والجبن والهلع ، فالطاعة حصن الله الأعظم ، بها يسمو الإنسان إلى مراتب الاطمئنان . فالقلوب لا تهدأ إلا في كنف الله وحمى شرعه ، ولا تعمى بصيرتها وينطمس نورها ، وتحجب عن العلم الحق والهداية الأبدية ؛ إلا في كنف الشيطان ومهاوي وساوسه وضلالاته . وشتان بين قلب يتقرب إلى الله حتى يكون معه في كل جارحة ، وبين قلب يستذله الشيطان بمعاصيه وذنوبه .

(١) رواه أبو داود رقم (٤٢٩٧) في الملاحم باب : في تداعي الأمم على الإسلام ، وفي سننه أبو عبد السلام صالح بن رستم الهاشمي وهو مجهول ، ولكن رواه أحمد (٢٧٨/٥) ، من طريق آخر وسنده قوي ، جامع الأصول (٢٨/٩) برقم (٧٤٨١) .

الباب الرابع
مراحل موت القلب
والألفاظ المقاربة له

- الفصل الأول : معنى الموت والألفاظ المقاربة له .
- الفصل الثاني : خصائص القلوب الميتة .

الفصل الأول

معنى الموت والألفاظ المقاربة له

- المبحث الأول : أثر الذنوب في موت القلب .
- المبحث الثاني : تعريف الموت .

المبحث الأول أثر الذنوب في موت القلب

في حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال : «إياكم ومحقرات الذنوب ؛ فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه ، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهنّ مثلاً كمثل قوم نزلوا أرض فلاة فحضر صنيع القوم ، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود ، والرجل يجيء بالعود ؛ حتى يجمعوا سواداً ، فأججوا ناراً ، وأنضجوا ما قذفوا فيها»^(١) .

هذا الحديث يوضح لنا أن الذنوب والمعاصي تتراكم على العبد حتى تهلكه ، وأصل ذلك أن القلب يتأثر بالمعصية وتغطيه حتى تصير راناً ، ثم يغلب عليه حتى يصير طبعاً وقفلاً ، فيصير القلب في غشاوة ، فيتولاه الشيطان ويسوقه حيث يريد ، فالقلب إذا اتصف بحالة من أمراضه ؛ فكل حالة إن أصبحت ملكة فيه لا بد أن تصحب في باطنها صفات ذميمة . فالصغو الذميمة يؤدي إلى الزيف ، والزيف تمرد وغواية يؤدي إلى حرمان الهداية ، ومن ثم إلى الفسق ،

(١) مسند أحمد (٤٠٢/١ ، ٣٣١/٥) ، وإسناده صحيح على شرط الشيخين . الأحاديث الصحيحة للألباني رقم (٣٨٩) .

فالسواد على القلب يبدأ مرحلة بعد أخرى ، وكلها مراحل تبدل ؛
تجعل المتصف بها لا يستطيع الموازنة بين الخير والشر ، فبقدر
خروج النور يحل الظلام حتى يعم ، وبقدر خروج النور يسلب
الإيمان ، سواء كان إيمان فطرة أو أعلى من ذلك ، فتصير المعاصي
هيئات راسخة وصفات لازمة وملكات ثابتة ، فلو ترك المجرم
المعصية وأقبل على الطاعات لضاقت على نفسه ، وضاق صدره ،
وأعيت عليه مذاهبه حتى يعاودها ، ولا يزال يألف المعصية ويحبها
ويؤثرها ، حتى يرسل الله عليه الشياطين فتؤزّه إليها أزا . فإذا
بالأمراض تقربه من الهلاك ، وهلاك العبد موت قلبه . ولكن الموت
مراحل كما أن سواد القلب مراحل ، حتى يعود كالكوز مجحياً ،
كذلك مراحل الموت تبدأ باللهو وتدرج إلى الطبع ، ونعتبر الموت
الحقيقي للقلب هو الختم الذي تصاحبه الغفلة ، ولا يكون ذلك إلا
بتفضيل الدنيا على الآخرة ، وانسراح الصدر للكفر العقدي .
وستحدث عن مراحل موت القلب بعد التعرف على معاني الموت
وشمولها .

المبحث الثاني تعريف الموت

الميم والواو والتاء أصل صحيح يدل على ذهاب القوة من الشيء .

منه الموت : خلاف الحياة^(١) ، أو هو حادث تزول معه الحياة^(٢) . ويطلق على عدة أمور منها^(٣) :

الموت : السكون : يُقال ماتت الريح أي سكنت ، وكل ما سكن فقد مات .

وأيضاً الموت : النوم ، يُقال : مات الرجل وهمد وهوم إذا نام .

ويُقال الموت : البلى : يُقال مات الثوب ، إذا خَلِقَ وَبَلَى .

ولكن الموت : خلق من خلق الله تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ [الملك : آية ٢] .

(١) معجم مقاييس اللغة (٢٨٣/٥) .

(٢) نزهة الأعين النواظر ص (٥٦٩) .

(٣) لسان العرب (٩٠/٢) ، القاموس المحيط ص (٢٠٦) ، تاج العروس (٥٨٥/١) .

والموت : نقض البنية الحيوانية ، وهو عرض يصاد الحياة ،
ولا يكون إلا من فعل الله^(١) .

والموت : نفي الحياة مع سلامة البنية ، والموت يتعدد إلى
أنواع بحسب أنواع الحياة^(٢) :

فالأول : ما هو بإزاء القوة النامية الموجودة في الإنسان
والحيوان والنبات .

نحو قوله تعالى : ﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم : آية ٥٠] .

وقوله تعالى : ﴿وَأَحْيَيْنَاهُ بِلَدَّةٍ مَّيْتًا﴾ [ق : آية ١١] .

الثاني : زوال القوة الحاسة ، كما في قوله تعالى : ﴿يَلْتَنِي

مِثُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم : آية ٢٣] .

وقوله تعالى : ﴿أءِذَا مَاتُ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ [مريم : آية

[٦٦] .

الثالث : زوال القوة العاقلة : وهي الجهالة . قال تعالى :

﴿أَوْ مِنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام : آية ١٢٢] ، وإياه قصد

بقوله : ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾ [النمل : آية ٨٠] .

الرابع : موت بالتشبيه ، وهو كل أمر جليل يكدر العيش

(١) الفروق اللغوية ص (٨٣ ، ٨٤) .

(٢) المفردات ص (٤٧٦) ، بصائر ذوي التمييز (٤/٥٣٦) ، تاج العروس

(١/٥٨٦) .

وينغص الحياة ، كالحزن . كما في قوله تعالى : ﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ﴾ [إبراهيم : آية ١٧] .

الخامس : المنام ، كما يُقال : النوم موت خفيف ، والموت نوم ثقيل ، وعلى هذا النحو سَمَّاهما الله توفياً ، قال تعالى : ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : آية ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ ﴾ [الأنعام : آية ٦٠] .

ويستعار الموت للأحوال الشاقة كالفقر ، والذل ، والسؤال ، والهزم والمعصية .

ويُقال : فلان ما أموته : أي ما أموت قلبه ، لأن كل فعل لا يتزيد لا يتعجب منه ، فالموت لا يتعجب منه لأن شرط التعجب أن يكون مما يقبل الزيادة والتفاضل ، وما لا يقبل ذلك كالموت والفناء والقتل ؛ لا يجوز التعجب منه^(١) .

كما يُقال : رجل موتان الفؤاد : أي بليد غير ذكي ولا فهم ، كأن حرارة فهمه بردت فماتت^(٢) .

وذكر أهل التفسير أن الموت في القرآن على أوجه^(٣) :

أحدها : الموت نفسه : ومنه قوله تعالى ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ

الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : آية ١٨٥]

(١) تاج العروس (١/٥٨٧) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥/٢٨٣) ، تاج العروس (١/٥٨٧) .

(٣) نزهة الأعين النواظر ص (٥٦٩) ، إصلاح الوجوه ص (٤٤٥) .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر : آية ٣٠] .
الثاني : الضلال : ومنه قوله تعالى : ﴿ أَوْ مَن كَانَ مَيِّتًا
فَأَحْيَيْنَاهُ ﴾ [الأنعام : آية ١٢٢] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ [النمل : آية ٨٠] .
وقوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴾ [فاطر : آية ٢٢] .
الثالث : الجذب ، وهو قلة النبات . ومنه قوله تعالى :
﴿ سُقِّنَهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ ﴾ [الأعراف : آية ٥٧] ، وقوله
تعالى : ﴿ فَسُقِّنَهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [فاطر :
آية ٩] .

الرابع : الحرب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ
الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوَهُ ﴾ [آل عمران : آية ١٤٣] .
الخامس : الجماد : ومنه قوله تعالى عن الأوثان التي
يعبدونها : ﴿ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ ﴾ [النحل : آية ٢١] .

السادس : الكفر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ
الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ﴾ [آل عمران : آية ٢٧] .

السابع : ذهاب الروح عقوبة من غير استيفاء الأجل
والرزق ، ومنه قوله تعالى لبني إسرائيل : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ
مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة : آية ٥٦] ، وقوله : ﴿ وَهُمْ
أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ﴾ [البقرة : آية ٢٤٣] .

وهذه المادة ذكرت في القرآن الكريم أكثر من مائة وخمسين مرة بعموم تصاريفها . ونسب الموت للنفس في أكثر من موضع ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران : آية ١٤٥] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ [آل عمران : آية ١٨٥] ، ومثله في [آية ٣٥ الأنبياء ، وآية ٥٧ العنكبوت] .

وكما نسب إلى الإنسان كقوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِيمٍ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَّا يَنْمِتُ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء : آية ٣٤] وكقوله تعالى : ﴿ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ﴾ [البقرة : آية ٢٥٩] .

كما نسب إلى الأرض كقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [النحل : آية ٦٥] ، وفي مثل قوله تعالى : ﴿ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ [الروم : آية ١٩] .

أما القلب فلم ينسب له الموت صراحة في كتاب الله ، إنما وردت إشارات كثيرة تدل على ذلك ، فعندما استبطن الله قلوب المؤمنين عاتبهم بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنسِقُونَ ﴾ [الحديد : آية ١٦] ، أتبعها بقوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الحديد : آية ١٧] .

(فيه إشارة إلى أن الله يلين القلوب بعد قسوتها ، ويهدي الحيارى بعد ضلتها ، ويفرج الكروب بعد شدتها ، فكما يحيي الأرض الميتة المجدية الهامدة بالغيث الهتان الوابل ، كذلك يهدي القلوب القاسية ببراہین القرآن والدلائل ، ويولج إليها النور بعد أن كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل) (١) .

وأيضاً هناك إشارة في مثل قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : آية ١٢٢] .

فهذا مثل ضربه الله تعالى للعبد الذي كان ميتاً ، أي : في الضلالة هالكاً حائراً ؛ فأحياه الله ، أي : أحيا قلبه بالإيمان وهداه له ، ووفقه لاتباع رسله .

كما وهناك دلالة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظُّلُّ وَلَا الْحُرُورُ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [فاطر : آية ١٩ - ٢٢] ، فكما لا تستوي هذه الأشياء المتباينة المختلفة ؛ كذلك لا يستوي المؤمنون - وهم الأحياء - والكافرون - وهم الأموات - .

ومنها في قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَّ الدُّعَاءَ

(١) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٣١١) .

إِذَا لَوْ أَمْدَبِينَ * وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُمَى عَنْ ضَلَلَتِهِمْ إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ

يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿ [النمل : آية ٨٠ ، ٨١] .

فالمراد موتى القلوب ، ومن على قلوبهم غشاوة ، وفي آذانهم

وقر الكفر .

الفصل الثاني خصائص القلوب الميتة

- المبحث الأول : متى يموت القلب .
- المبحث الثاني : لهو القلب .
- المبحث الثالث : القلب المغمور .
- المبحث الرابع : القلب المنكر .
- المبحث الخامس : اشمنزاز القلب .
- المبحث السادس : إكنان القلب .
- المبحث السابع : القلب المرتاب .
- المبحث الثامن : تقطيع القلب .
- المبحث التاسع : أغلفة القلب .
- المبحث العاشر : إشراب القلب .
- المبحث الحادي عشر : الإسلاك في القلب .
- المبحث الثاني عشر : صرف القلب .
- المبحث الثالث عشر : إحالة الله بين العبد وقلبه .
- المبحث الرابع عشر : تقليب القلوب والأفئدة .

- المبحث الخامس عشر : القلب الأعمى .
- المبحث السادس عشر : الران على القلب .
- المبحث السابع عشر : القفل على القلب .
- المبحث الثامن عشر : الطبع على القلب .
- المبحث التاسع عشر : الختم على القلب .
- المبحث العشرون : القلب الغافل .

المبحث الأول متى يموت القلب

لفظ الموت لم ينسب صراحة للقلب في القرآن الكريم لحكمة أرادها الله . منها : أنه مهما بلغت بالقلب مراتب الضعف والمرض قد يشاء الله له بالهداية فيحييه بعد موته .

وأيضاً هناك موت دون موت ، كما في تعدد معانيه : كالسكون والنوم والبلى ، أو تعدد أنواعه كالجهل ، أو زيادة الكدرات من الآثام ، أو موت مؤقت كالنوم ، أو تعدد أوجهه ، كالضلال والجدب ، أو ذهاب الحياة منه لفترة ثم عودتها إليه مرة أخرى .

وأيضاً فكما أن هناك موت دون موت هناك كفر دون كفر^(١) ، أي هناك كفر سلوك وكفر عقيدة ، وكفر العقيدة متفاوت أيضاً ، فمن بلغ به الكفر الحقيقي آخر مداه فهذا لا يؤمن ، وقد ختم على قلبه كما صرح بذلك الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى

(١) سبق شرحه مفصلاً في أمراض القلوب .

سَمِعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَرِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿ [البقرة : آية ٦ - ٧] .

وأيضاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [يونس : آية ٩٧] .

وكما قال عز من قائل : ﴿ وَلَيْنَ آتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ ﴾ [البقرة : آية ١٤٥] .

فمن بلغ من الكفر مداه ، وكتب عليه الشقاء ؛ فلا يؤمن بحال من الأحوال . وهذا هو الكفر التام الحقيقي .

فالقلب الموجود فيه نور الفطرة ، وإن غطي بالشبهات والشهوات ، وانحرف عن الجادة وعادى الإسلام بكل ما لديه ، ولم ينطفئ من الفطرة نورها ، فسيعود إلى الإسلام إذا وجد من يهديه إليه ، وهذا نقوله على أكثر صحابة المصطفى ﷺ عندما كانوا في غيابات الشرك والضلال ، فمنهم من حارب الإسلام والمسلمين . فلما أزيحت الغشاوة عن قلبه ظهر نور الفطرة واستجاب للإيمان . وأصبح العون الأول له واليد الكبرى الذي بها يطش ، فهؤلاء لم تحقق عليهم كلمة العذاب ولم يبلغوا الكفر التام ، وهكذا كل من آمن من بعدهم إلى قيام الساعة ، لهذا نجد الفقهاء لا يجيزون لعن الكافر بعينه ؛ إنما أجازوا لعن الكفار مطلقاً ، فالكافر بعينه قد تكون فيه بقية من النور فيؤمن .

أما من اسود قلبه وانكفاً حتى عاد كالكوز مجخياً ، كأبي جهل

وأمثاله ومن حذا حذوهم ؛ فهؤلاء موتى القلوب ، لا يؤمنون مطلقاً .

وقد ورد في السنة النبوية تصريح بموت القلب ، ففي سنن ابن ماجه حديثان :

الأول : «عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال : من قام ليلتي العيدين محتسباً لله لم يمته قلبه يوم تموت القلوب»^(١) .

أما الحديث الثاني فقد ورد بسندين مختلفين يجتمعان في أبي هريرة - رضي الله عنه - الأول : قال رسول الله ﷺ : «لا تكثروا الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»^(٢) .

والثاني : قال رسول الله ﷺ : «يا أبا هريرة ! كن ورعاً تكن أعبد الناس ، وكن قنعاً تكن أشكر الناس ، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً ، وأحسن جوار من جاورك تكن مسلماً ، وأقل الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب»^(٣) .

وهذا الحديث نستدل به على كثرة الضحك المغرق ؛ الذي يكون دليلاً على لهو القلب عن جادة الحق ، وعن الاستماع لقول الحق . وَلَهُوَ الْقَلْبُ مَرِيضٌ شَدِيدٌ وَمَرِحَةٌ مِنْ مَرَاكِلِ الْمَوْتِ^(٤) .

(١) سنن ابن ماجه (٥٦٧/١) ، حديث رقم (١٧٨٢) كتاب بالصيام ، باب (٦٨) . والحديث إسناده ضعيف لأن في إسناده : بقية بن الوليد ، وهو متهم بالتدليس .

(٢) سنن ابن ماجه (١٤٠٣/٢) ، حديث رقم (٤١٩٣) كتاب الزهد باب (١٩) وإسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٣) سنن ابن ماجه (١٤١٠/٢) حديث رقم (٤٢١٧) كتاب الزهد باب (٢٤) وإسناده حسن .

(٤) معجم مقاييس اللغة (٢١٣/٥) .

المبحث الثاني لهو القلب

قال ابن فارس : اللهو : وهو كل شيء شغلك عن شيء فقد ألهاك^(١) .

أو هو ما يشغل الإنسان عما يعنيه ويهمه ، يُقال : لهوت بكذا ولهيت عن كذا ، ويعبر عن كل ما به استمتع باللهو^(٢) .

ويُقال : اللهو : هو الشيء الذي يتلذذ به الإنسان فيلهيه ثم ينقضي^(٣) .

أو هو : لعب لا يعقب نفعاً ، لأن اللعب قد يكون للتأديب ولا يُقال له لهو^(٤) .

واللهو : ذهول وغفلة عن الحق^(٥) .

(١) المفردات ص (٤٥٥) .

(٢) التعريفات ص (١٩٤) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٢١٠) .

(٤) التفسير الكبير (١٤١/٢٢) .

(٥) نزهة الأعين النواظر ص (٥٣٥) ، إصلاح الوجوه والنظائر ص (٤٢٣) .

وذكرت المادة في القرآن الكريم ست عشرة مرة ، وارتبطت بالقلب في قوله تعالى : ﴿ أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ تُحَدِّثُ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَأَهِيئَهُ قُلُوبَهُمْ وَأَسْرُؤُا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [الأنبياء : آية ١ - ٣] .

وذكر بعض المفسرين أن اللهو في القرآن على ستة أوجه :

أحدها : الاستهزاء والسخرية . ومنه قوله تعالى :

﴿ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا ﴾ [الأنعام : آية ٧٠] .

الثاني : الولد . ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ لَهْوًا لَّاتَّخَذْتَهُ

مِن لَّدُنَّا ﴾ [الأنبياء : آية ١٧] .

وقال الحسن وقتادة : أراد به المرأة .

الثالث : ضرب الطبل : ومنه قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً

أَوْ هَوًّا أَنْفَضُوا إِلَيْهَا ﴾ [الجمعة : آية ١١] .

الرابع : السرور الفاني : ومنه قوله تعالى : ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ

الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهْوٌ ﴾ [الحديد : آية ٢٠] .

الخامس : الغناء : ومنه قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوًا

الْحَدِيثِ ﴾ [لقمان : آية ٦] .

وهو قول ابن مسعود وابن عمر .

السادس : الشغل والمنع : ومنه قوله تعالى : ﴿ ذَرَّهُمْ

يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ ﴿ [الحجر : آية ٣] .
وقوله تعالى : ﴿ لَأَنْلَيْكُمْ أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ
اللَّهِ ﴾ [المنافقون : آية ٩] .

وإذا نظرنا إلى الأوجه التي وردت بها معاني اللهو قد تكون
مرضاً من أمراض القلوب ، ولكن إذا بلغت موضع التأمل والتدبر
والتفكير وهو القلب ، ووجدته فارغاً لا يعرف الجد تمكنت منه ،
فبدلاً من أن يكون حالة من حالاته مؤقتة ، إذا بها صفة لازمة له ،
تجعله يلهو في أخطر المواقف ويهزل في مواطن الجد .

وقال المفسرون في قوله تعالى ﴿ لاهية قلوبهم ﴾ : (أي ساهية
قلوبهم معرضة عن ذكر الله متشاغلة عن التأمل والتفهم)^(١) ، (غافلة
معرضة بمطالبها الدنيوية وأبدانهم لاعبة ، قد اشتغلوا بتبادل
الشهوات والعمل الباطل والأقوال الرديئة)^(٢) .

(لأن الانتفاع بما يسمع لا يكون إلا بما يرجع إلى القلب من
تدبر وتفكير ، وإذا كانوا عن استماعه لاعبين ؛ حصلوا على مجرد
الاستماع الذي قد تشارك البهيمة فيه الإنسان)^(٣) .

(فهم في غفلة تامة وجهالة عامة ، من توحيده تعالى والإيمان
بكتبه ورسله عليهم السلام ، ووقوع الحساب ووجود الثواب
والعقاب ، وسائر ما جاء به النبي الكريم عليه الصلاة والتسليم ،

(١) تفسير القرطبي (١١/٢٦٨) .

(٢) تيسير الكريم الرحمن (٥/٢٠٨) .

(٣) التفسير الكبير (٢٢/١٤١) .

ومن غفل عن مجازاة الله تعالى له المراد من الحساب . صدر منه كل ضلالة ، وركب متن كل جهالة^(١) .

فاللهو لا بد أن يسوق الإنسان إلى كثير من المكاره . فيفتن بظواهر الأمور وهذا فعل الجهال والصبيان ، وعواقبه غير محمودة ، فإن كثرت تدل على كثرة الجهل والعماية والحيرة . وكل شيء كثير غمر صاحبه وغطاه وعلا عليه ، ويُقال للشيء إذا كثر : هذا كثير غمير ، فاستمرار الإصرار على المعاصي والانهمك في اللهو والجهل لا بد أن يكسب القلب حالة أعلى من النهو . لا بد أن يغمر القلب بها فتغطيه ، ومن الغطاء ما طمس فينتقل من حالة قد تزول إلى صفة ملازمة ، فيسمى القلب المغمور .

(١) روح المعاني (٦/١٧) .

المبحث الثالث القلب المغمور

ومادة (غمر) تكررت في القرآن الكريم أربع مرّات منها قوله تعالى : ﴿ قِيلَ الْخَرَّاصُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴾ [الذاريات : الآيتان ١٠ - ١١] .

وقوله تعالى : ﴿ فَذَرَّهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [المؤمنون : آية ٥٤] .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ ﴾ [الأنعام : آية ٩٣] .

وارتبطت بالقلب : في قوله تعالى ﴿ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ ﴾ [المؤمنون : آية ٦٣] .

وأصل الغمر : إزالة أثر الشيء ، ومنه قيل للماء الكثير الذي يزيل أثر سيله : غمر وغامر .

والغمرة : معظم الماء الساترة لمقرها .

والغمر : الحقد المكنون ، وجمعه غمور^(١) .
كما يُقال : الغمرة : منهمك الباطل ، وغمرة الموت : شدة
همومه .

ويُقال : اغتمر في الشيء : أي اغتمس . والاعتمار :
الاعتماس .

والانغمار : الانغماس في الماء^(٢) .

والغمرة : الماء الذي يغمر القامة ، فكأن ما هم فيه من
الجهل والحيرة صار غامراً ساتراً لعقولهم^(٣) .

(والغمرة : غطاء يغطي القلب عن فهم ما أودع الله كتابه من
المواعظ والعبر والحجج ، وبهذا قال الطبري ومجاهد^(٤) .

وقال الشوكاني في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَذَرَّهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ حَتَّى
حِينٍ ﴾ [المؤمنون : آية ٥٤] : أي اتركهم في جهلهم فليسوا بأهل
للهداية ، ولا يضيق صدرك بتأخير العذاب عنهم^(٥) .

وقال الزمخشري : في غمرتهم : أي في جهل يغمرهم^(٦) .

فاللهو في الشهوات ناتج من ضعف البصيرة وقلة العلم واتباع
الهوى ، فيغمر القلب بالمعاصي ، وزين له الشيطان تلك

(١) المفردات ص (٣٦٥) .

(٢) لسان العرب (٣٠/٥) .

(٣) التفسير الكبير (١٠٥/٢٣) .

(٤) تفسير الطبري (٣٥/١٨) .

(٥) فتح القدير (٤٨٦/٣) .

(٦) الكشاف (٢٧/٤) .

الغوايات ، فيرى ما فيه هو الحق وما عداه ضلال ، فإذا العبد في
درك أشد مما قبله ؛ فبجهله بمصالح نفسه وظلمه لها ، يسعى فيما
يضرها ويؤلمها وهو يظن أنه ينفعها ويكرمها ، والإنسان ظلوم
جهول ، وإذا بلغ هذا المبلغ ظهر على القلب نكران كل ما يرد عليه
مما لا يتصوره ، فليس للقلب تعقل صحيح يفرق بين الحسن
والقبيح إلا بما تمليه الأهواء والرغبات الناتجة عن جهل ، فإذا
بالقلب يتسم بصفة النكران ، فيسمى القلب المنكر .

المبحث الرابع القلب المنكر

وقد وصفه الحق تبارك وتعالى بقوله : ﴿ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴾ [النحل : آية ٢٢] .

وقد نسب النكران لعموم الإنسان كما في قوله تعالى :
﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴾
[النحل : آية ٨٣] ، وفي مثل قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتِيكُمْ ءَايَاتِهِ فَأَيَّ
ءَايَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴾ [غافر : آية ٨١] .

قال ابن فارس : النون والكاف والراء أصل صحيح ، يدل على خلاف المعرفة التي يسكن إليها القلب ، ونكر الشيء وأنكره : لم يقبله قلبه ، ولم يعترف به لسانه^(١) .
وربما ينكر اللسان الشيء وصورته في القلب حاصلة ويكون

(١) معجم مقاييس اللغة (٥/٤٧٦) .

في ذلك كاذباً ، كما قال تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾
[النحل : آية ٨٣] (١) .

والنكر والنكراء : الدهاء والفتنة .

وأيضاً : الإنكار : الجحود ، والمنكر : خلاف المعروف (٢) .

فيتلخص لدينا من هذا التعريف أن الإنكار نوعان :

الأول : إنكار جهلٍ ناتج عن قلة العلم ، بسبب الانغماس في ملامهي الحياة وهو ما لم يقبله قلبه ، ولم يعترف به لسانه . فهذا النوع مرض من الأمراض قد يزول إذا وجد النور طريقه إلى نور الفطرة الكامن في القلب . وهذا ينطبق على الجاهلية الأولى في أكثر الحالات ، إذ كانوا في شغل الملذات أكثر من اشتغالهم بمعرفة الحقائق التي أتى بها رسول الله ﷺ .

النوع الثاني : إنكار كبر وجحود : وهذا ناتج عن كفر بعد معرفة تامة ، فالحسد الدفين في النفس ملأ الصدر وما حوى ، فاللسان مصر على الإنكار ، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُمُ الْمُنْكَرُونَ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَرَهُونَ﴾ [المؤمنون : آية ٦٩ - ٧٠] .

وكقوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا

وَكَثُرُوا الْمُنْكَرُونَ﴾ [النحل : آية ٨٣] .

(١) المفردات ص (٥٠٥) ، بصائر ذوي التمييز (١٢٠/٥) .

(٢) لسان العرب (٢٣٢/٥) .

وقال المفسرون في القلوب المنكرة : إنها التي لا تقبل الوعظ ، ولا ينجع فيها الذكر^(١) ، فهم مستكبرون عن عبادة الله ، مع إنكار قلوبهم لتوحيده^(٢) .

وقال الزمخشري : قلوبهم منكرة للوحدانية ، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها^(٣) .

وقال الرازي : (إن الذين يؤمنون بالآخرة ويرغبون في الفوز بالثواب الدائم ويخافون الوقوع في العقاب الدائم ؛ إذا سمعوا الدلائل والترغيب والترهيب خافوا العقاب فتأملوا وتفكروا فيما يسمعون ، فلا جرم ينتفعون بسماع الدلائل ويرجعون من الباطل إلى الحق ، أما الذين لا يؤمنون بالآخرة وينكرونها فإنهم لا يرغبون في حصول الثواب ، ولا يرهبون من الوقوع في العقاب ، فييقنون منكرين لكل كلام يخالف قولهم ، ويستكبرون عن الرجوع إلى قول غيرهم ، فلا جرم يبقون مصرين على ما كانوا عليه من الجهل والضلال)^(٤) .

والمقصود أن القلب يتصف بالإنكار الناتج عن الكبر والحسد ، لا لأجل شبهة أو إشكال ، بل هي النفرة عن الرجوع إلى الحق ! لهذا قال الله في الآية التي تليها : ﴿أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل : آية ٢٣] فمن بلغ

(١) تفسير القرطبي (٩٥/١٠) ، فتح القدير (١٥٦/٣) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٥٦٦/٢) ، زاد المسير (٤٣٨ /٤) .

(٣) الكشاف (٣٢٦/٢) ، تيسير الكريم المنان (١٩٣/٤) ، روح المعاني (١٢١/١٤) .

(٤) التفسير الكبير (١٧/٢٠) .

هذا المبلغ تجده يسخر ممن يأتيه بالحق . قال تعالى على لسانهم :
﴿ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴾ [الشعراء : آية ٢٧]
فهذا نهاية في الكفر ، سواء كان كفران نعمة أو كفر عقيدة ، لأن من
عرف الحق وجب عليه أن لا ينكره ، فإن كان في أهون الشرين
وتداركه الله بلطفه قد يسلم ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ
ثُمَّ نَكِرُوهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكٰفِرُونَ ﴾ [النحل : آية ٨٣]. يفهم من
الآية أن كفر النعمة كثيراً ما يؤدي إلى كفر الجحود والعناد ، أما إن
كان جهلاً فربما طرق سمعه الحق فاستيقظ القلب وكشطت
الغشاوة ، ولكن بشرط أن تكون في القلب قابلية المعرفة والتعقل ،
أما إذا كان القلب يشمئز من ذكر الله ؛ فالخطر أشد والدرك أعمق .

المبحث الخامس اشمئزاز القلب

وقد نسب الاشمئزاز إلى القلب في كتاب الله ، قال تعالى :
﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ
وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [الزمر : آية ٤٥] .

ولم تتكرر هذه المادة في القرآن مطلقاً .

والشمز : التقبض ، اشمأز اشمئزازاً : انقبض واجتمع بعضه
إلى بعض^(١) ، وهو نفور النفس من الشيء تكرهه .
والمشمئز : النافر الكاره للشيء ، واشمأز الشيء : كرهه ،
بغير حرف جر .

والمشمئز : المدعور^(٢) .

وذكر الطبري بسنده عن قتادة والسدي : إنها بمعنى نفرت

(١) لسان العرب (٣٦٢/٥) ، النهاية في غريب الحديث (٥٠٠/٢) ، معترك
الأقران (٣٩/٢) .

(٢) المرجع السابق نفسه .

قلوبهم واستكبرت وكفرت .

وعن مجاهد أنها : انقبضت^(١) ، وهو قول ابن عباس - رضي الله عنهما - .

وقال المؤرج : أنكرت .

وأصل الاشمزاز : النفور والازورار^(٢) .

والنفر : الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء . يقال : نفر عن الشيء^(٣) .

والزور : الانقباض . يُقال : تزاور عنه ، وازور عنه^(٤) .

وكلا المعاني متقاربة تمثل حالة القلب ، وإن كانت الآية تمثل واقعة حال على عهد النبي ﷺ إلا أنها تتحدث عن فعل من أفعال القلوب سواء القلوب الحية أو الميتة .

وقد صور الزمخشري حالة الاشمزاز بقوله : (أن يمتلىء غماً وغيظاً حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه)^(٥) .

وقال الرازي : (أن يعظم غمه وغيظه فينقبض الروح إلى داخل القلب ، فيبقى في أديم الوجه أثر الغبرة والظلمة الأرضية)^(٦) .

وهذا الوصف ينطبق على القلوب الميتة التي تمسكت بهوى

(١) تفسير الطبري (١٠/٢٤) ، تفسير ابن كثير (٥٦/٤) .

(٢) تفسير القرطبي (٢٦٤/١٥) .

(٣) المفردات ص (٥٠١) .

(٤) المفردات ص (٢١٧) .

(٥) الكشاف (٣/٣٤٩) .

(٦) التفسير الكبير (٢٦/٢٨٦) .

النفس ولا تميل إلى الحق ، فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم ؛ كلما دُعوا إلى الله وحده إلهاً وخالقاً ، وإلى شريعته نظاماً ، لا يميلون إلى الحق ، وترتاح نفوسهم لضده ، ضالون مزلون ، مسخت قلوبهم ، فلا فائدة ترجى منهم .

وآخرون تشمئز قلوبهم عندما يروا هؤلاء يسرون في الضلال لا يرتدعون ، فيحاولون ردهم إلى طريق الهدى .

فالاشمئزاز : حالة تمر على القلب فيمتلىء غيظاً وغماً يظهر أثره على الجوارح ، كما يشاهد في وجه العابس المحزون .

فالاشمئزاز قد يكون من المؤمن منصباً على الباطل ، وقد يكون من الكافر لنفرة قلبه عن الإيمان والمؤمنين . أخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «تكون أمراء تلين لهم الجلود وتطمئن إليهم القلوب ، ويكون عليكم أمراء تشمئز منهم القلوب وتقشعر منهم الجلود . قالوا : أفلا نقاتلهم ؟ قال : لا ، ما أقاموا الصلاة»^(١) .

فهنا اشمئزاز القلوب المؤمنة من أفعال المنحرفين عن جادة الطريق المستقيم ، أما من سار في مراحل الموت فإذا سمع من يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له ؛ ظهرت آثار النفرة على وجهه ، من أثر النفرة الكامنة في قلبه ، ويفرح ويستبشربما يخالف ذلك ، ويميل لرغباته من ذكر الشهوات المادية أو المعنوية . وهذا رأس الجهالة والحمق .

وربك يعلم ما تكن صدورهم ، فأعقبهم أكنة على قلوبهم .

(١) مسند أحمد (٣/٢٨ ، ٢٩) .

غطاء من الحق تبارك وتعالى ، تولاه الله ، وفعله حُكْم عدل ، جزاء
لشركهم وكذبهم ونفرتهم من سماع القرآن وإعراضهم عنه ،
واتهامهم الرسل بما لا يليق . كما سنفصله ونبين ما يترتب عليه .

المبحث السادس إكنان القلب

وكنان القلوب ، أو سَمُّها : القلوب المكننة ، من قولك :
كننت العلم في النفس أي أخفيتَه . نسب إلى القلب في أربع
مواضع من الذكر الحكيم ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمُ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الأنعام : آية ٢٥] ومثلها
في [الإسراء : آية ٤٦] ، وأيضاً في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ
قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ [الكهف : آية ٥٧] ،
وأخيراً في قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا نَدْعُونَآ إِلَيْهِ
وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ [فصلت : آية ٥] .
وأيضاً نسب إلى الصدر كما في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [النمل : آية ٧٤] ، وقوله
تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص :
آية ٦٩] .

كما نسب إلى النفس في قوله تعالى : ﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ
فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ ﴾ [البقرة :
آية ٢٣٥] .

وقال أهل اللغة^(١) :

الكنَّ والكنة ، والكنان : وقاء كل شيء وستره ، والكنَّ :
البيت أيضاً لأنه يرد البرد والحر .

والكنَّ : كل شيء وقى شيئاً فهو كنة وكنانة ، والجمع أكنان
وأكنة .

وأكننته في نفسي : أي أسررته ، والأكنة : الأغطية ، ومنه
قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ [الأنعام : آية ٢٥] .

وتقول : كنت العلم في النفس : أي أخفيته .

ومنه : اكتنت المرأة : إذا غطت وجهها وسترته حياء من
الناس .

والكنانة : جعبة السهام .

فالمادة تدور حول الستر والغطاء .

وذكر أهل التفسير أنها في القرآن على ثلاثة أوجه^(٢) :

الأول : بمعنى الغطاء ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى

قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ [الأنعام : آية ٢٥] .

(١) لسان العرب (٣٦٠/١٣) ، تاج العروس (٣٢٣/٩) ، المفردات

ص (٤٤٢) .

(٢) إصلاح الوجوه والنظائر ص (٤٠٩) ، بصائر ذوي التمييز (١٦١/٢) .

الثاني: الكهوف والأسراب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ مِنْ الْجِبَالِ أَكْنَناً ﴾ [النحل : آية ٨١] .

الثالث : بمعنى تَضَمَّر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [القصص : آية ٦٩] .

(وللعرب في أكننت الشيء : أي سترته ؛ لغتان : كنته وأكننته ، في الكنّ وفي النفس بمعنى ، ومنه قوله تعالى : ﴿ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ ﴾ [القصص : آية ٦٩] وقوله تعالى : ﴿ كَانَهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ [الصفات : آية ٤٩] .

وفرق قوم بينهما فقالوا : كنت الشيء إذا صنته حتى لا تصبه آفة وإن لم يكن مستوراً ، يُقال : در مكنون ، وجارية مكنونة ، وبيض مكنون : مضمون عن التدحرج .

وأما أكننت ، فمعناه : أضمرت ، ويستعمل ذلك في الشيء الذي يخفيه الإنسان ويستره عن غيره ، وهو ضد أعلنت وأظهرت^(١) .

وقال المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ﴾ أي جعلنا على قلوبهم أغطية وغطاوة مجازاة على كفرهم ، ومنعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم^(٢) .

فإنهم كانوا يسمعون من غير تدبر ، وهذا يعرب عن كمال

(١) التفسير الكبير (٦/١٣١) .

(٢) تفسير القرطبي (٦/٤٠٤ ، ١١/٧) تفسير القرآن العظيم (٣/٤٣ ، ٩١) روح المعاني (١٥/٣٠٣) .

جهلهم بما جاء به رسول الله ﷺ ، أو يدل على تكبرهم النابع من حسد أنفسهم ، فإن كانت الأخرى فقد حرموا الهداية كما قال تعالى : ﴿ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَمُجَدِّدِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا نُذِرُوا هُزُوًا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُنَا جَعَدْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى نُهْدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ [الكهف : آية ٥٦ - ٥٧] .

ولو تتبعنا أفعال أصحاب القلوب التي استحقت أن جعل الله عليهم الأكنة ؛ نرى ، أنها تدور :

أولاً : على الجحود ، مع علمهم التام أن قلوبهم تنكر جحودهم ، فقد امتازوا بالكذب واصرروا على عدم الإيمان إضافة إلى الاستهزاء بالقرآن وبعدهم عنه وإبعاد الناس عن الاستماع إليه . وقد أوضح الحق ذلك في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاءُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ثُمَّ لَنْ تَكُنْ فَتِنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا آيَةً لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ

وَيَنْتَوَى عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿ [الأنعام: آية ٢٠- ٢٦].

وكذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَلِمْ يَدَكَ وَابْتَهِمْ وَارْكَعْ رُكُوعًا مُخْلِطًا مَعَهُ رُطْبَةَ الْيَدَيْنِ نَسْتَغْفِرُ لَكَ ذُنُوبَكَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ غَلِيبٌ ﴾ [البقرة: آية ٢٣٨].
وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِبَابًا مَسْتُورًا وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ
وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتِ رَبِّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحُذِرُوا وَكَلِمَةً أَدْبَرْتُمْ نُفُوسَكُمْ
أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ
تَتَّبِعُونَ إِلَّا لَرَجُلٍ مَسْحُورًا أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا وَقَالُوا لَوْ آءَاءُ كُنَّا عَظَمَاءُ وَرَفْنَا آءَاءُ نَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا
قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ
مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ
مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿ [الإسراء: آية ٤٥ - ٥١].

ثانياً : الإصرار على عدم الإيمان ، رغم ما يشاهدوه من
الدلائل الواضحة ، وما منعهم من اتباع ذلك إلا طلبهم أن يشاهدوا
العذاب الذي وعدوا به عياناً ، إضافة إلى المجادلة بالباطل ليطفئوا
نور الله بأفواههم ، واستهزائهم بالحجج والبراهين وخوارق العادات
التي أتت بها الرسل وما أنذروهم من العذاب ، ونسيانهم أعمالهم
السيئة وأفعالهم القبيحة ، وهذه أوضاعها الحق تبارك وتعالى في قوله
تعالى : ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ
إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ
إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيَجِدُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ
الْحَقَّ وَيَتَّخِذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ

عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي
سَعَادَاتِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿ [الكهف :
آية ٥٥ - ٥٧] .

ومع هذا نستشف من قول الله تعالى تلو آيات الكهف :
﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَهُمْ
الْعَذَابَ ﴾ [الكهف : آية ٥٨] أن الإكثان لا يمنع من الإيمان .
فليس بموت تام ، إنما هو مرحلة من مراحل المرض الشديد المؤدي
إلى الموت لما مر ذلك في أول الباب . (فربما هدى الله بعضهم
من الغي إلى الرشاد) ، كما قال الحافظ ابن كثير . فرحمة الله
تفيض على عباده جميعاً وتسعهم جميعاً ، وبها يقوم وجودهم وتقوى
حياتهم ، وهي تتجلى في كل لحظة من لحظات الوجود ، ولا يملك
الفرد تتبعها في حياة البشر على الإطلاق ، وإن لحظة واحدة يفتح
الله فيها أبواب رحمته لقلب العبد ؛ فترفعه من الدرك إلى عليين .
أما من لا زال الركام على فطرته لم يهتز بعد ، ومغاليق التفقه مقفلة .
وأبواب السمع موصدة ، وغلاف الإدراك لا ينفذ إليه شيء ﴿ وإن
يروا كل آية لا يؤمنوا بها ﴾ فهو مرتاب غمر الشك قلبه . وعمت
الحسرة بصيرته ، ولا يزال من ريب إلى آخر يهوي به إلى درك
أدنى ، حتى تكون صفة ملازمة للقلب - والعياذ بالله - فيطلق عليه
القلب المرتاب ، فهو نفاق مستفحل أو كفر دفين .

المبحث السابع القلب المرتاب

وقد نسب الريب إلى القلب في مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا
يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَآزَوَاتُهُمْ
فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾ [التوبة : آية ٤٥] .

وفي قوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُدِنَهُمُ الَّذِي بَنَوْا رَيْبَةً فِي قُلُوبِهِمْ
إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : آية ١١٠] .

والريب مرحلة متقدمة نحو الموت ، فهو أعلى من حالة
المرض ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ
مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ
أَرْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾
[النور : آية ٤٨ - ٥٠] ^(١) .

(فلا يخرج حال هؤلاء المنافقين عن أن يكون في القلوب

(١) تفسير القرآن العظيم (٩١/٣) .

مرض لازم لها أو عرض لها شك في الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم وأياً ما كان فهو كفر محض^(١) .

ولا يبلغ مرتبة الصدق من كان فيه ريب . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَنَّهُدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحجرات : آية ١٥] .

فالمؤمن من نفى عن نفسه الريب وقد يكون سلوكاً فيمن هو دونه ، ولكن في غير التشريع ، فقد يرتاب في سلوك فرد ويشك فيه ، وليست هذه من تلك في شيء .

والراء والياء والباء : أصل صحيح يدل على شك ، أو شك وخوف ، فالريب الشك ، قال جل ثناؤه : ﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى نَبَأُ الْمَسِيحِ بَنِي مَرْيَمَ قَالُوا سِحْرٌ بَشَرٍ أَمْ آيَاتٍ مُّبِينَاتٍ ﴾ [البقرة : آية ١٧٤] .

والريب : ما رابك من أمر . تقول : رابني هذا الأمر : إذا أدخل عليك شكاً وخوفاً^(٢) .

وقال ابن الأثير ، والريب : هو الشك مع التهمة^(٣) .

والريبة : اسم من الريب . قال تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمْ ﴾

(١) تفسير ابن كثير (٢٩٨/٣) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٤٦٣/٢) ، لسان العرب (٤٤٢/١) .

(٣) النهاية في غريب الحديث (٢٨٦/٢) ، معترك الأقران في إعجاز القرآن

(٢/٩٨ ، ١٨٥) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي ، (ت ٩١١) هـ .

تصحيح أحمد شمس الدين .

الَّذِي بَنَوُا رِيْبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴿ [التوبة : آية ١١٠] أي يدل على دغل
وقلة يقين منهم (١) .

والريب في القرآن على ثلاثة أوجه :

فوجه منه الريب : الشك . ومنه قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ
الكتاب لا ريب فيه ﴾ أي لا شك فيه .

والثاني : حوادث الدهر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ
تَتَّبِعُهُ رِيْبٌ الْمُنُونِ ﴾ [الطور : آية ٣٠] .

والثالث : الريبة : الحسرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ
بُنِينَهُمْ الَّذِي بَنَوُا رِيْبَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [التوبة : آية ١١٠] يعني حسرة
في قلوبهم (٢) .

والريبة : هي الخصلة من المكروه تظن بالإنسان فيشك معها
في صلاحه ، فالريبة ظن فقط وليست من الحقيقة في شيء ،
بخلاف التهمة : قد تكون ظناً وقد تكون حقيقة .

أما الشك فهو استواء طرفي التجويز ، فالشاك يجوّز كون ما
شك فيه على إحدى الصفتين لأنه لا دليل هناك ولا أمارة ، فالشك
اجتماع شيئين في الضمير بلا مرجح (٣) .

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/١١٤) ، المفردات في غريب القرآن
ص (٢٠٥) .

(٢) إصلاح الوجوه والنظائر ص (٢١٤) ، نزهة الأعين النواظر
ص (٣١٢ - ٣١٣) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٧٩ ، ٨٠) .

فريب القلب وجود شيء واحد فقط وهو جانب الكره ، تمكّن
من القلب واستولى عليه ، لهذا نفاه الله عن المؤمنين قال تعالى :
﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾
[الحجرات : آية ١٥] .

(أي آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ولا اتهم
لمن صدقوه ، واعترفوا بأن الحق معه)^(١) .

فكان جزاء المرتاب أن يضلّه الله خاصة إذا تمكنت هذه
الصفة من القلب لأنه لا فائدة ترجى منه . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ
جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ
حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رِيسُولًا كَذَلِكَ يَضِلُّ
اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ [غافر : آية ٣٤] .

أي مثل هذا الضلال يضلّ الله كل مسرف في عصيانه مرتاب
في دينه ، فهي حقيقة ثابتة بينها الله جل وعلا في حق هذا المبدأ
الذي طمست فيه أنوار المعرفة به سبحانه وتعالى .

وتدور أسباب ريب القلب في دائرة النفاق ودائرة الحسد الذي
ملاً حشاشة النفس والصدر ، فأساسه عدم الإيمان بالله واليوم
الآخر ، والشك فيما جاء به رسول الله ﷺ والقول باللسان مخالفاً
الاعتقاد ، والإعراض والاستكبار عن الاتباع ، إضافة إلى المشي

(١) تفسير روح البيان (٩٥/٩) الشيخ إسماعيل حقي البرسوي
(ت ١١٣٧ هـ) .

بالنميمة والبغضاء والفتنة . كل هذه الأسس موضحة في تسلسل الآيات التي وسمتهم بهذه الصفة .

من ذلك قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَأَنْقُمُ فِيهِ أَبَدًا الْمَسْجِدَ أَسَّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ مِجْبُتًا الْمُطَهَّرِينَ أَفَمَنْ أَتَّسَسَ بِنِكَئِهِ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَتَّسَسَ بِنِكَئِهِ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَتَّهَارَى بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ لَا يَزَالُ بِنِينَهِمُ الَّذِي بَنَوُا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿ [التوبة : آية ١٠٧ - ١١٠] .

والريبة تآكل القلب كما تآكل النار الحطب ، وتميته تقطيعاً أو لا تزياله حتى تميته . وهذه المرحلة من المراحل السريعة الانحدار فتهوي بصاحبها ، إلا من رحم ربك .

المبحث الثامن تقطيع القلب

قال تعالى : ﴿ لَا يَزَالُ بُنِيتُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : آية ١١٠] .

والقطع إبانة بعض أجزاء الجرم من بعض فصلاً ، وتقطع : شدد للكثرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا ﴾ [المؤمنون : آية ٥٣] أي تقسموا وتفرقوا في أمرهم^(١) .

وقال الراغب : القطع قد يكون مدركاً بالبصر كقطع اللحم ونحوه ، وقد يكون مدركاً بالبصيرة كالأشياء المعقولة ، كقطع السبيل ؛ فيراد به السير والسلوك ، أو يُراد به الغضب من المارة والسالكين^(٢) .

ومن المجاز قطع النهر : عبره أو شقه ، وقطع خصمه بالحجة : غلبه وبكته ، وقطع لسانه : أسكته بإحسانه إليه^(٣) .

(١) لسان العرب (٢٧٦/٨) .

(٢) المفردات ص (٤٠٨) .

(٣) تاج العروس ص (٤٧١/٥) .

وذكر بعض المفسرين أن القطع في القرآن على أحد عشر
وجهاً ، وأوصلها الفيروز أبادي إلى اثني عشر وجهاً ، منها : زوال
الرجاء والأمل ، كما في قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي
يئسوا مما رجوا^(١) .

واختلف القراء في قراءة قوله تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ
قُلُوبُهُمْ﴾^(٢) فقرأ بعض قراء الحجاز والمدينة والبصرة والكوفة بضم
التاء وتشديد الطاء على ما لم يسم فاعله ، وبمعنى : إلا أن يقض
الله قلوبهم .

وقرأ بعض قراء المدينة والكوفة بفتح التاء والطاء مشددة ،
من : تقطع ، على أن الفعل للقلوب ، بمعنى : إلا أن تقطع
قلوبهم .

وعن ابن كثير : بفتح الطاء وتسكين القاف . (قلوبهم)
بالنصب أي : تفعل أنت بقلوبهم .

وكان أصحاب عبد الله بن مسعود يقرؤونها (ريية في قلوبهم
ولو تقطعت قلوبهم) . فنخرج من هذه القراءات أن تقطيع القلوب
على حالتين :

الأول : أن يكون ذلك فعل الله في القلوب . وهذه نأخذها
من قراءة ابن كثير وأهل الحجاز بضم التاء وتشديد الطاء ، فيكون

(١) نزهة الأعين ص (٥٠٢) بصائر ذوي التمييز (٢٨٤/٤) إصلاح الوجوه
ص (٣٨٥) .

(٢) تفسير الطبري (٣٤/١١) ، تفسير ابن كثير (٣٩١/٢) ، التفسير الكبير
(١٩٨/١٦) ، تفسير القرطبي (٢٦٦/٨) .

فعل الله بهم أن يجعل قلوبهم قطعاً وتفرق أجزاء ، إما بالسيف وإما بالحزن والبكاء ، وهذه باقية أبداً ويموتون على هذا النفاق .

الثاني : أن يكون ذلك فعل من أفعال القلوب الميتة : وهذا من قراءة من قرأ بفتح التاء والطاء المشددة ، وهي القراءة المعروفة المشهورة في المصاحف التي بين أيدينا ، فيكون معناها : حتى تنشق قلوبهم غمماً وحسرة ، أو أن يتوبوا توبة تنقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفریطهم . ويؤيد ذلك ختام الآية لقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أي عليم بأحوالهم ، حكيم في الأحكام التي يحكم بها في مجازاتهم عن أعمالهم من خير وشر ، وقد يفتح الله على العبد باباً من أبواب رحمته فينقله إلى نعيم الدارين ، ويهديه لخير طريق النجدين .

ولكن التقطيع ذو مراحل : فهو موت أجزاء من القلب ، فبحسب تفاوت المعصية يتفاوت الغطاء الذي يغطي القلب ، حتى لا يعي شيئاً ، ويسمى غلافاً ، ويوصم به القلب ، فيقال : قلب أغلف .

المبحث التاسع أغلفة القلب

الغلاف لا بُدَّ وأن يكون سميكاً ، لأننا لا نقول رجل مغلف :
إلا لمن عليه غلاف من آدم أي من جلد ونحوه ، فهو إمعان في
الغشاوة . وقد وردت هذه المادة مرتين في القرآن الكريم :

الأول : في قوله تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا

غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة : آية ٨٨] .

الثانية : في قوله تعالى ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بَيَّأْتِ

اللَّهُ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا
بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء : آية ١٥٥] .

وقد ورد في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه -
قال : قال رسول الله ﷺ : «القلوب أربعة : قلب أجرد فيه مثل
السراج يزهر ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ،
وقلب مصفح ، فأما القلب الأجرد : فقلب المؤمن سراج فيه
نوره ، وأما القلب الأغلف : فقلب الكافر ، وأما القلب
المنكوس : فقلب المنافق عرف ثم أنكر ، وأما القلب المصفح :

فقلب فيه إيمان ونفاق ، فمثل الإيمان فيه كمثل البقلة يمدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدّها القيح والدم ، فأبي المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه^(١) .

وفي الحديث الصحيح عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - في صفة رسول الله ﷺ في التوراة وفيه : «ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ويفتح بها أعيناً عمياً ، وأذناً صماً ، وقلوباً غلفاً»^(٢) .

الغلاف : الصوان وما اشتمل على الشيء : كقميص القلب وكمام الزهر ، والجمع غلف ، وغلف القارورة وغيرها : أدخلها في الغلاف ، أو جعل لها غلفاً ، وقلب أغلف بين الغلغة : كأنه غشي بغلاف فلا يعي شيئاً .

ويُقَال : غلام أغلف إذا لم تقطع غرلته ، ورجل مغلف : عليه غلاف من الأدم ونحوها ، وغلف جبهته بالضيب والنحناء وغلفها : لطحها^(٣) .

(وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - في معنى قوله تعالى : ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ : أي في أكنة ، وفي رواية : أي لا تفقه ،

(١) مسند أحمد (١٧/٣) وذكره الحافظ ابن كثير عند تفسير قول الله تعالى : ﴿أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق﴾ [البقرة : آية ١٩] وقال : إسناده جيد حسن (٥٦/١) .

(٢) صحيح البخاري كتاب البيوع باب (٥٠) حديث (٢١٢٥) ، فتح الباري (٣٤٣/٤) (٥٨٥/٨) ، كتاب التفسير : تفسير سورة الفتح ، باب (٣) حديث رقم (٤٨٣٨) .

(٣) لسان العرب (١٧١/٩) ، المفردات ص (٣٦٤) .

وفي أخرى : أي المطبوع عليها .

وقال مجاهد : عليها غشاوة .

وقال عكرمة : عليها طابع .

وقال السدي : عليها غطاء^(١) .

(وقرأ الجمهور قوله تعالى : ﴿وقالوا قلوبنا غلف﴾ بإسكان

اللام ، وقرأ آخرون بضمها . فمن قرأ (غلف) بتسكين اللام
فمعناه : ذوات غلف ، فكأنهم قالوا : قلوبنا في أوعية .

ومن قرأ (غلف) بضم اللام فهو جمع غلاف فكأنهم قالوا :
قلوبنا أوعية للعلم .

فعلى الأول يقصدون إعراضه عنهم ، كأنهم يقولون : ما تفهم
شيئاً .

وعلى الثاني يقولون : لو كان قولك حقاً لقبته قلوبنا^(٢) .

ونستخلص أن الغلف فيه ثلاثة احتمالات :

أحدها : أنه جمع غلاف : أي قلوبنا مغطاة بأغطية لا تسمع
دعوة رسول الله موسى عليه السلام .

الثاني : أنها مملوءة بالعلم والحكمة ، لا حاجة لها إلى شرع
رسول جديد .

والثالث : أنها هي غلاف فارغ ، لا شيء فيه من العلوم التي
بها يستدل على صحة رسالتك .

(١) تفسير ابن كثير (١/١٢٣) ، البحر المحيط (١/٣٠١) .

(٢) زاد المسير (١/١١٣) .

وعلى ذلك فيكون غلف القلب :

إما غطاء يغطيه من أثر الذنوب لا يصل إليه شيء جديد من نور الإيمان ، وهذه الذنوب غطت القلب بما حوى . سواء كان فيه شيء من نور الفطرة فهو بصيص لا يظهر ، ونشبهه بالشعلة المغلقة بزجاجة عتمت من الوساخة فطمست النور ولم يظهر . وهذا يتمشى مع أقوال المفسرين رحمهم الله .

وإما أن تكون قلوبهم فارغة من أي شيء ، وأصبحت كالغلاف الخالي الذي ليس بداخله ما يملؤه ، كجراب السيف . ويكون المعنى : قلوب لم يصلها نور بعد إفراغها من نور الفطرة .

وكلا المعنيين يتمشى مع الحديث الصحيح في صفة رسول الله ﷺ في التوراة الذي فيه : «ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح بها أعينا عميا . وآذانا صما ، وقلوبا غلقا» .

فسواء كان القلب مغطى بركام الذنوب : فإن لا إله إلا الله تكشط هذا الغطاء ، أو كان خالياً كالجراب : فإن لا إله إلا الله تملؤه بنور الإيمان .

الفرق بين الإكنان والغلاف :

قلنا في الإكنان أنه يدور حول الستر والغطاء ، والغلاف مشه لغة . إلا أن الغلاف توعد المتصف به باللعة وبالطبع نتيجة الكفر . والإكنان بسبب عدم التفقه وسلب الهداية ، فيستخلص أنه وإن كان كلاهما غطاء إلا أنه هنا أشد من سابقه ، هذا إذا أردنا التوفيق بين اللفظين .

أما إذا حملنا الغلاف على أنه كالجراب الخالي ، أي ليس

فيه نور الهداية ، فيكون بينهما فارق واضح ، فيصبح كل منهما مغاير للآخر .

ومن ناحية ثانية : نجد أن بني إسرائيل وَصَمُوا أنفسهم بهذه الصفة فهم الذين قالوا : قلوبنا غلف . ومن عادة الإنسان أنه لا يذم نفسه بقصد الذم ؛ إنما يجري على لسانه ما تَكُن سريرته ، فيفصح نفسه ، فهم أرادوا أن قلوبهم مملوءة علماً . فهي جراب مملوءة مقفلة على ما حوت ، فكذبهم الله وأخبر أنه طبع عليها بسبب كفرهم ، فلا يؤمنون إلا قليلاً .

والملاحظ أن آية سورة البقرة ختمت بقوله تعالى : ﴿فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ، وآية سورة النساء ختمت بقوله تعالى : ﴿فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (أي قليل منهم من يؤمن)، وهو قول ابن عباس وقتادة وأبو مسلم ومال إليه أبو حيان^(١) . ونأخذ من هذا : أن القلب الأغلف من الممكن أن تعود إليه الحياة ، فقد يكون فيه شيء من النور ، سواء نور الفطرة أو نور رسالة سابقة ، فرحمة الله لا تحد وهو قريب من عباده ويفرح بتوبة عبده ، أما إذا استمر العبد على التكبر والتجبر والحسد والكفر بما أنزل الله ، وسار على عناده ولم يحاول أن يفتح قلبه حتى أصبح ذلك عادة عنده ؛ فإن القلب يشرب حب المعصية ، بعد أن تكون دخلت فيه وقبلها وسكن إليها .

(١) البحر المحیط (٣٠٢/١) ، زاد المسير (١١٣/١) والتفسير الكبير

(١٧٨/٣) تفسير ابن كثير (١٢٤/١) في ظلال القرآن (٩٠/١) .

وأبو حيان هو : محمد بن يوسف بن علي ابن حيان الغرناطي من كبار علماء اللغة والتفسير ، توفي في عام ٧٤٥ هـ ، الأعلام (١٥٢/٧) .

المبحث العاشر إشراب القلب

وقد وصف القلب بالإشراب في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : آية ٩٣] .

وأوضحت السنة ذلك من حديث حذيفة بن اليمان - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها ؛ نكت فيه نكتة سوداء . . » الحديث^(١) .

والإشراب مخالطة المائع الجامد ، ثم توسع فيه فصار في اللونين^(٢) . يُقال أشرب الأبيض حمرة : أي علاه ذلك ، وكذلك

(١) صحيح مسلم (١/١٢٨) كتاب الإيمان باب (٦٥) حديث (١٤٤) .
(٢) البحر المحيط (١/٣٠٨) ، روح المعاني (١/٣٢٦) .

إن خالطه ذلك ، كأن أحد اللونين سقى اللون الآخر ، فيقال :
بياض مشرب حمرة .

ومما يُقال : أشرب فلان حب فلانة : أي خالط قلبه .

وأشرب قلبه محبة هذا : أي حل محل الشراب^(١) .

وفي حديث الإفك : قالت عائشة لأبيوها - رضي الله
عنهم - : (- والله يشهد إني لصديقة - ما ذاك بنافعي عندكم ، لقد
تكلمتم به وأشربته قلوبكم . .) (٢) .

قال ابن حجر : أي حل فيها محل الشرب وقبلوه ، يقال :
ثوب شرب : أي مصبوغ^(٣) .

(وعبر بالشرب دون الأكل : لأن الشرب يتغلغل في الأعضاء
حتى يصل إلى باطنها ، ولهذا قال بعضهم :

(جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي فأصبح لي عن كل شغل بها شغل)^(٤)

وأيضاً كما أن الشرب مادة الحياة لما تخرجه الأرض ، فكذلك
تلك المحبة كانت مادة للقبائح الصادرة عنهم .

وشرب : من المتضادات ، يُقال : شرب الرجل إذا روي ،

(١) لسان العرب (٤٨٩/١) ، المفردات ص (٢٥٧) ، القاموس المحيط
ص (١٢٨) .

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير ، باب (١١) حديث رقم (٤٧٥٧) فتح
الباري (٤٨٨/٨) .

(٣) هدي الساري ص (١٣٧) مقدمة فتح الباري ، أحمد بن علي بن حجر
العسقلاني ، تخريج وتصحيح محب الدين الخطيب .

(٤) البحر المحيط (٣٠٩/١) .

وشرب إذا عطش^(١) .

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا﴾ دلالة على فاعل فعل بهم ذلك ، ومعلوم أنه لا يقدر عليه سوى الله ، فالحق تولى إشراب هذه المعاصي في قلوب العصاة ، جزاء ارتكابهم المساوىء .

وذكر المفسرون في معنى الإشراب أقوال أربعة :

الأول : أنه داخلهم حب العجل ، ورسخ في قلوبهم صورته ، لفرط شغفهم به ، كما داخل الصبغ الثوب . ورجحه الطبري وبه قال الدامغاني ، وقال بعضهم :

إذا ما القلب أشرب حب شيء فلا تأمل له عنه انصرافا

الثاني : من أشربت البعير : إذا شددت في عنقه حبلاً ، كأن العجل شد في قلوبهم لشغفهم به .

الثالث : من الشراب : ومن عادتهم أنهم إذا عبروا من مخامرة حب أو بغض ؛ استعاروا له اسم الشراب ، إذ هو أبلغ منساغ في البدن .

ولذا قال الأطباء : الماء مطية الأغذية والأدوية ، ومركبها الذي تسافر به إلى أقطار البدن ، ورجحه أبو السعود^(٢) .

وذكر ابن حيان : أن الذين تبين لهم حب العجل أصابهم من

(١) الأضداد للصاغاني ص (٢٣٣) .

(٢) جامع البيان (٤٢٢/١) ، تفسير الألوسي (٣٢٦/١) ، التفسير الكبير

(١٨٦/٣) ، تفسير أبي السعود (٢١٦/١) ، إصلاح الوجوه

ص (٢٦٢) .

ذلك الماء الجبن ، وقال القرطبي عن القشيري^(١) : ما شربه أحد إلا جنّ .

والخلاصة : أن المعاصي يتعوّدها الإنسان ويميل إليها ، فلا يزال يتفكر ويشتهيها حتى تصبح همه الشاغل وفعله ليل نهار ، ويعتادها فتتمكن من القلب فيعشّقها ، ولات حين مناصر عنها ، وذلك دليل قلة التوفيق وفساد الرأي والقلب ، مما يسبب وحشة بين العبد وربّه ، فيستحق بموجبها اللعن أو العذاب أو حرمان الثواب . لأنه اشتغل عن الله بنفسه وغلبت شهوته تعقله .

والملاحظ أن إشراب القلب للمعاصي اتصف به بنو إسرائيل فهم عرفوا الحق وجحدوه حسداً وبغياً ، فهم قالوا بأفواههم سمعنا ، وقالوا بأعمالهم عصينا ، فخالف واقعهم العملي قولهم الشفوي ، فلا قيمة لقول بلا عمل ، ولم ينفعهم التخويف بأكبر المخوفات : وهو رفع الجبل فوقهم ، بل قالوا سمعنا وعصينا وعادوا إلى كفرهم في أسرع وقت ، من عبادة العجل ، حتى أشربته قلوبهم .

هذا السياق بهذه الصفات ينساق على من أحب المعاصي ، وقال : أسلمت ، ولم يرتدع مما أنزل الحق على لسان رسوله ، لا بد أن يتشرب قلبه حب المعاصي ، ما دام الكبر حليفه والحسد رائده .

تنوع إشراب القلب :

والإشراب صفة من صفات القلب ، وليس معنى سد من

(١) القشيري : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك النيسابوري القشيري ، شيخ خراسان في عصره توفي ٤٦٥ هـ ، الأعلام (٥٧/٤) .

خصوصيات القلب الميت فقط ؛ وإنما هي صفة لازمة لمن أحب شيئاً حتى تمكن من حشاشة قلبه ، فقد يشرب القلب قولاً من الأقوال وهو في أعلى مراتب الإيمان ، كقول عائشة لأبيها - رضي الله عنهم - ، كما نستطيع أن نصفهم ونصف الصفوة الصالحة بأن قلوبهم أشربت بحب الله وحب رسوله ، فدافع الفرد منهم عن دينه ومعتقده ، فلا نقول بأن إشراب القلب يعني موته ، إنما موته في إشراب قلبه للمعاصي والكفر والحسد وما شاكلهم ، فإذا أحب شيئاً وهام فيه وعشقه ؛ شرب قلبه تلك الفكرة وناصر ذلك المبدأ ، فلا ينصرف عنه مهما كلفه الثمن .

وما دام الإشراب مخامرة ، فأيضاً من الممكن أن نقول إن المؤمن التقي أشرب قلبه حب الإيمان ، أو أشرب قلبه كره المعاصي . وتقول عن العصاة : أشرب قلبهم حب المعصية ، أو أشرب قلبهم كراهية الطاعة ، وهذا كله من باب توسع استعمال الكلمة في اللغة ، وإن اقتصرنا في التنزيل على حب المعاصي . فالله الذي أشرب قلوبهم ذلك ، وهو الذي أدخلها جزاء كفرهم وعنادهم وإصرارهم على الضلال ، وكل شيء بقضاء الله وقدرته ، فهو هاد عباده المؤمنين إلى جنته ومسير الكافرين إلى جحيمه ، من أطاعه هداه ، ومن عصاه : سلك التكذيب والضلال في قلبه ، جزاء عناده وقفله على نفسه طوق الهداية .

المبحث الحادي عشر الإسلاك في القلب

قال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مِن قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ
كَذَلِكَ نَسُكُّهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾
[الحجر : آية ٩ - ١٣] .

السلك : مصدر سلكت الشيء في الشيء فانسلكت ؛ أي
أدخلته فيه فدخل ، يُقال سلكت الخيط في المخيط أي أدخلته فيه ،
وسلك يده في الجيب والسقاء ونحوهما يسلكها وأسلكتها : أدخلها
فيهما . والسلك : إدخال شيء تسلكه فيه ، كما تطعن الطاعن ،
فتسلك الرمح فيه تلقاء وجهه على سجيته^(١) .

والسلك : السلوك والنفوذ في الطريق ، يُقال سلكت الطريق
وسلكت كذا في طريقه ، قال تعالى : ﴿ لَتَسْلُكُوهَا مِنهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴾

(١) لسان العرب (٤٤٢/١٠) ، تاج العروس (١٤٤/٩) .

[نوح : آية ٢٠] ، وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ كَلَّمْنَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَأَسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ﴾ [النحل : آية ٦٩] .

ومن الثاني قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ [المدثر : آية ٤٢] ، وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكَنَا فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الشعراء : آية ٢٠٠] ^(١) .

وقد وردت هذه المادة في القرآن الكريم اثنا عشرة مرة ، ارتبطت بالقلب في موضعين : الأول في سورة الحجر ، والثاني في وصف القرآن . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ كَذَلِكَ سَلَكَنَا فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴾ [الشعراء : آية ١٩٨ - ٢٠١] .

وذكر بعض المفسرين أن السلوك في القرآن على أربعة أوجه ^(٢) :

أحدها : الدخول ، منه قوله تعالى : ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴾ [المدثر : آية ٤٢] .

الثاني : الجعل . ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن : آية ٢٧] .

والثالث : التكليف . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَسْلُكُهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴾ [الجن : آية ١٧] .

(١) المفردات في غريب القرآن ص (٢٣٩) .

(٢) نزهة الأعين النواظر ص (٣٥٢) ، إصلاح الوجوه والنظائر ص (٢٤٤) .

الرابع : الترك ، ومنه قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ نَسَلُّكَ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الحجر : آية ١٢] .

والأصل في الإسلاك الدخول والنفاذ ، والحق تولى دخول شيء في قلوب المجرمين . روي عن أنس والحسن البصري في قوله ﴿ كذلك نسلكه ﴾ قالوا : الشرك نسلكه في قلوبهم .

وروي عن قتادة أنه قال : إذا كذبوا ؛ سلك الله في قلوبهم أن لا يؤمنوا به .

وروي عن أبي زيد أنه قال : هم كما قال الله : هو أضلهم ومنعهم الإيمان^(١) .

وقال ابن كثير : إنه تعالى سلك التكذيب في قلوب المجرمين الذين عاندوا واستكبروا عن اتباع الهدى^(٢) ، وبه قال ابن قتيبة^(٣) .

وسواء كان الشرك أو التكذيب أو الضلال ؛ فهي سنة الله مع من تمادى في الغي ، واتصف بصفة الإجرام ، التي هي اكتساب كل محرم ، حتى أصبح قلبه لا يحسن أن يتلقى كلام الحق على بصيرة بل على عناد ومكابرة ، سلك الله في قلبه التكذيب به فيؤدي ذلك إلى الشرك ، والشرك هو الضلال المبين .

وقال الإمام الرازي : (إن الكافر يجد من نفسه نفرة شديدة عن قبول قول الرسول ﷺ ونبوة عظيمه عنه ، حتى إنه كلما رآه تغير

(١) الدر المشثور (٥/٦٧ - ٦٨) .

(٢) تفسير ابن كثير (٢/٥٤٧) .

(٣) تفسير غريب القرآن ص (٣٢١) أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، المتوفى عام ٢٧٦ هـ ، تحقيق السيد أحمد صقر .

لونه واصفر وجهه وربما ارتعدت أعضاؤه ، ولا يقدر على الالتفات إليه والإصغاء لقوله ، فحصول هذه الأحوال في قلبه أمر اضطراري لا يمكنه دفعها عن نفسه ، ولا إزالة هذه الدواعي عن القلب ، لأن الفاعل لها هو الله تعالى^(١) فهو مقلب القلوب .

(١) التفسير الكبير (١٩/١٦٥) .

المبحث الثاني عشر صرف القلب

ما دام العبد لا يرمى حقوق الله ولا يرتدع عن غيِّه ؛ سيصرف الله قلبه عن الإيمان وعن طريق الهداية جزاء سلوكه ، فما منعه من الخضوع إلا التكبر الكامن في الصدر . فلا يؤمن بالآيات وإنما يميل مع شهواته ورغباته ، وغفل عما ينفعه في الدنيا والآخرة ، وهذا الصنف أوضحه الحق في محكم بيانه فقال تعالى :

﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : آية ١٤٦] .

وقال تعالى عن صرف القلوب : ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلْنَا سُورَةً نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَيْنَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللّٰهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : آية ١٢٧] .

والصرف : رد الشيء عن وجهه ، وصارف نفسه عن الشيء :

صرفها عنه^(١) .

والصرف : رد الشيء من حالة إلى حالة ، أو إبداله بغيره^(٢) .

فقلوب الخلق بيد الله تعالى ، فهو صارف القلوب ومصرفها . وكان أكثر ما يدعو به رسول الله ﷺ : «يا مصرف القلوب»^(٣) . قال ابن عباس : صرف الله قلوبهم عن كل رشد وخير وهدى .

وقال الحسن : طبع عليهم بكفرهم^(٤) .

وقال سفيان بن عيينة : (سأمنعهم عن فهم كتابي) ، وقال قتادة^(٥) .

وقال الطبري : (صرف الله عن الخير والتوفيق والإيمان بالله ورسوله قلوب هؤلاء المنافقين ، من أجل أنهم قوم لا يفقهون عن الله مواعظه ، استكباراً ونفاقاً)^(٦) . وهذا المعنى متقارب في عموم التفاسير^(٧) .

ذهب الزمخشري : إلى أنها دعاء عليهم بالخذلان وبصرف

-
- (١) لسان العرب (١٨٩/٩) ، القاموس المحيط ص (١٠٦٨) .
 - (٢) المفردات ص (٢٧٩) ، بصائر ذوي التمييز (٤٠٩/٣ ، ٤١٠) .
 - (٣) مسند أحمد (١٧٣/٢) من حديث عمرو بن العاص .
 - (٤) البحر المحيط (١١٧/٥) .
 - (٥) تفسير القرطبي (٢٨٣/٧) .
 - (٦) تفسير الطبري (٧٥/١١) .
 - (٧) تفسير ابن كثير (٤٠٣/٢) ، تفسير القرطبي (٣٠٠/٨) التفسير الكبير (٢٣٤/١٦) .

قلوبهم عن قلوب أهل الإيمان من الانشراح^(١) .

والآية كما تحتمل الدعاء تحتمل الإخبار بأن الله منع قلوبهم من تلقي الحق ، ونحن مع الجمهور في أن صارف القلوب ومقلّبها هو الله تعالى .

والخلاصة : أن من ظهرت له الحجة والبرهان ولكن أصر على تكبره وعناده واستهزائه بآيات الله الدالة على عظمته ، سلك الحق في قلبه النفاق أو الكفر وصرفه عن الحق فمنعه من الإيمان لأنه ليس أهلاً للتشريف ، فقد اضمحل نور الفطرة من قلبه فلم يعد يفهم عن الله خطابه ، ولا يتصدى لفهمه ، ولا يريد ، بل هو في شغل ونفور ، فصار إلى ما صار إليه في درك الموت جزاء تكبره على الناس بغير الحق ، وتكبره عن الطاعة لله تبارك وتعالى ، فلا بد لهذه القلوب أن تذل بالجهل . والصرف والزيغ والتقليب ، وإن كانت متقاربة ؛ ولكنها متفاوتة المعنى في مدلولها وصفاتها على القلوب .

(١) الكشاف (١٧٩/٢) .

المبحث الثالث عشر إحالة الله بين العبد وقلبه

ومن ذلك الإحالة : فالله هو المتصرف في جميع الأشياء ،
والقادر على الحيلولة بين الإنسان وبين قلبه ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَعَلِمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾
[الأنفال : آية ٢٤] .

قال ابن فارس : الحاء والواو واللام أصل واحد . وهو تحرك
في دور ، فالحول العام وذلك أنه يحول ، أي يدور^(١) .
وقال الراغب : أصل الحول : تغير الشيء وانفصاله عن
غيره ، وباعتبار التغير قيل : حال الشيء يحول حولاً واستحال : تهاياً
لأن يحول ، وباعتبار الانفصال قيل : حال بيني وبينك كذا .

وقوله تعالى : ﴿ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ ﴾ إشارة

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/١٢١) .

إلى ما قيل في وصفه يقلب القلوب : وهو أن يلقي في قلب الإنسان ما يصرفه عن مراده لحكمة تقتضي ذلك^(١) ، وبمثله قال الزبيدي في تاج العروس^(٢) . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم ، ومجاهد وغيرهم في معنى الآية : إن الله يحول بين الكافر والإيمان وبين المؤمن والكفر^(٣) .

وروي عن مجاهد أيضاً : أنه يحول بين المرء وقلبه حتى يتركه لا يعقل شيئاً ، فيحول بين قلب الكافر وعمل الخير .

وقال السدي : يحول بين الإنسان وقلبه ، فلا يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه^(٤) .

فالسعيد من أسعده الله ، والشقي من أضله الله ، والقلوب بيد الله يقلبها كيف يشاء ، فالكافر جزاء ما اقترف من معاصي وعدم امتثال ، وتفان في الكبر والحسد ، منعه الله من الإيمان . فالله أملك لقلوب عباده ، ويحول بينهم وبينها إذا شاء ، حتى لا يقدر العبد أن يملك شيئاً من إيمان أو كفر ، ولا يعي بقلبه شيئاً ولا يفهم إلا بإذن الله ومشئته .

فإذا حجز الله بين العبد وقلبه عن شيء فمحال أن يدركه ، فلا يستطيع العبد أن يدرك ما منع الله قلبه إدراكه .

وجميع الأقوال السابقة داخلة في هذا المعنى ، فإذا أحال بين

(١) المفردات في غريب القرآن ص (١٣٧) .

(٢) تاج العروس (٢٩٥/٧) .

(٣) تفسير الطبري (٢١٥/٩) ، تفسير ابن كثير (٢٩٨/٢) . البحر المحيط

(٤) (٤٨١/٤) ، التفسير الكبير (١٤٧/١٥) .

(٤) تفسير الطبري (٢١٦/٩ ، ٢١٧) .

العبد وقلبه فلا يمكن أن يفهم بقلبه أو يعقل شيئاً ، واللفظ للعموم ،
فكما يحيل بين الكافر والإيمان كذلك يحيل بين المؤمن والكفر ،
فللمحسن ثبات الإيمان ، وللمسيء ثبات الكفر ؛ جزاء ما اقترفت
يداه .

وبما أننا نتكلم عن موت القلب فهنا الإحالة بين الكافر بالله
تعالى . أو إن لم يكن كذلك فهي الإحالة بين المتمادي في مهاوي
مرض القلب ودركات موته إلى هذا الحد فلم يع من الحق شيئاً ،
وبين التعقل بما ينجيّه ، وليس على الله بعزير أن يهديه بسبب من
الأسباب ، فهو مقلب القلوب والأفئدة .

المبحث الرابع عشر تقليب القلوب والأفئدة

ونسب التقليب للأفئدة في قوله تعالى : ﴿ وَنَقَلِبْ أَفْعَدَهُمْ
وَأَبْصِرْهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ ۗ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَنَذَرَهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾
[الأنعام : آية ١١٠] ، كما نسب التقليب للقلب في قوله تعالى :
﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا نَنْقَلِبُ فِيهِ الْقُلُوبَ وَالْأَبْصَارَ ﴾ [النور : آية ٣٧] .

وفي حديث أم سلمة أن رسول الله ﷺ كان يكثر في دعائه أن
يقول : «اللَّهُمَّ مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . قالت : قلت يا
رسول الله أو إن القلوب لتتقلب ؟ قال : نعم . ما من خلق الله من
بني آدم من بشر إلا وإن قلبه بين إصبعين من أصابع الله ، فإن شاء
الله عز وجل أقامه وإن شاء أزاعه . . » الحديث (١) .

(١) مسند أحمد (٣٠٢/٦ ، ٣١٥) ، تفسير الطبري (١٨٧/٣) عند تفسير
قوله تعالى ﴿ ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ﴾ [آل عمران : آية ٨] وأورد
عدة أحاديث في هذا المعنى .

وأخرجه الترمذي برقم (٣٥١٧) في الدعوات باب رقم (٩٥) وقال :
حديث حسن . وأيضاً له طرق أخرى عن أنس بن مالك ، جامع الأصول
(٣٤٢/٤ ، ٥٣/٧) .

وأيضاً في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن ، كقلب واحد يصرفه حيث يشاء ، ثم قال رسول الله ﷺ : اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»^(١) .

فالحق تبارك وتعالى متصرف في قلوب العباد كيف شاء ، فجميع الأمور بيده ، والكل ملك لله تعالى يفعل ما يشاء لا علة لأفعاله ، وإن كانت لا تخرج عن حكمة علمنا بها أم لم نعلمه . فهي سر من أسرار الله تعالى التي ضربت من دونها الأستر .

والتقليب في اللغة : تحويل الشيء عن وجهه ، وقلبه : حوله ظهراً لبطن ، وتقلب الشيء ظهراً لبطن : كالحية تتقلب على الرمضاء^(٢) .

والانقلاب : الانصراف ؛ وتقليب الشيء : تغييره من حال إلى حال .

وتقليب الأمور : تدبيرها والنظر فيها .

وتقليب الله القلوب والبصائر : صرفها من رأي إلى رأي^(٣) .

(وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - في تفسير قوله تعالى : ﴿ونقلب أفئدتهم وأبصارهم﴾ : لما جحد المشركون ما أنزل الله لم تثبت قلوبهم على شيء ، وردت عن كل أمر) .

(١) صحيح مسلم (٢٠٤٥/٤) حديث رقم (٢٦٥٤) كتاب القدر ، باب (٣) .

(٢) لسان العرب (٦٨٥/١) .

(٣) المفردات ص (٤١٠) .

وقال مجاهد : (نحول بينهم وبين الإيمان ، ولو جاءتهم كل آية فلا يؤمنون)^(١) .

وقال الرازي : (إن الكفر والإيمان بقضاء الله وقدره ، والتقلب ، والقلب واحد : وهو تحويل الشيء عن وجهه ، ومعنى تقلب الأفئدة والأبصار : هو أنه إذا جاءتهم الآيات القاهرة التي اقترحوها ، وعرفوا كيفية دلالتها على صدق الرسول إلا أنه تعالى إذا قلب قلوبهم وأبصارهم عن ذلك الوجه الصحيح ، بقوا على الكفر ولم ينتفعوا بتلك الآيات)^(٢) .

وسواء قلبها عن الهدى أو قلبها في مهاوي الردى من سيء إلى أسوأ ، فالمقصود أن من تمادى في دركات الموت وكان حليفه الكبر والحسد ، ورائده الشهوات أو الشبهات ؛ لا بد أن يصاب القلب بالعمى ، فالشر يؤدي إلى مثله ، فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها .

(١) تفسير الطبري (٣١٤/٧) .

(٢) التفسير الكبير (١٤٦/١٣) .

المبحث الخامس عشر القلب الأعمى

وكما يفقد البصر قوته الباصرة ، يفقد قدرة البصيرة ، وشتان بين الاثنين ، فالذنوب إذا توالى على العبد طمست من القلب تعقله ، وحجبت عنه نور الإيمان الذي هو حياة القلوب .

قال تعالى في المكذبين بالرسول : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

العين والميم والحرف المعتل أصل واحد يدل على ستر وتغطية .

من ذلك العمى : ذهاب البصر من العينين كليهما^(١) .
والعرب إذا قالوا : فلان أعمى من فلان : أرادوا به عمى القلب ، لأنه لا يُقال للأعميين : هذا أعمى من ذا ، ولا لِمَيْتَيْنِ :

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/١٣٣) .

هذا أموت من ذا^(١) .

والعمى : ذهاب نظر القلب . وكلما ذكر الله عزَّ وجلَّ العمى في كتابه فذمَّه ؛ يريد عمى القلب^(٢) .

والعمى : افتقاد البصر والبصيرة ، ويُقال للأول أعمى ، وفي الثاني : أعمى وعم^(٣) .

والبصر : اسم للإدراك التام الحاصل بالعين التي في الرأس .

والبصيرة : اسم للإدراك التام الحاصل في القلب^(٤) .

والعماية والعمية : الغواية واللجاج في الباطل .

والعمية بالكسر والضم مشددتي الميم والياء : الكبر

والضلال .

والأعماء : الجهال : جمع أعمى^(٥) .

(والعرب إذا قالوا هو أفعل منك : قالوه في كل فاعل وفعال

وما لا يزداد في فعله شيء على ثلاثة أحرف ، وإنما جاز في العمى :

لأنه لم يرد به عمى العينين إنما أريد عمى القلب ، فيقال : فلان

أعمى في القلب ، ولا يُقال هو أعمى منه في العين)^(٦) . ومن ذلك

قوله تعالى ﴿ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا

(١) لسان العرب (٩٦/١٥) تاج العروس (٢٥٥/١٠) .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص (٣٤٨) .

(٤) التفسير الكبير (١٣٣/١٣) .

(٥) القاموس المحيط ص (١٦٩٥) ، تاج العروس (٢٥٥/١٠) .

(٦) لسان العرب (٩٥/١٥) .

لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿ [الحج: آية ٤٦].

نلاحظ :

أولاً : أن القلب مكان التعقل والتدبر ؛ فقد نسب الحق التعقل إلى القلب ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ [ق : آية ٣٧] .

فهو مقر المعرفة وآلة التعقل ، وليس الدماغ ، وإن كان بينهما ترابط وثيق .

ثانياً : الرؤيا بالبصر لها حظ عظيم في الاعتبار ، وكذلك استماع الأخبار ، ولكن لا يكتمل هذان إلا بتدبر القلب ، لأن مجرد المشاهدة والاستماع وحدهما لا ينتفع بها العبد .

ثالثاً : مكان القلب المعنوي هو الصدر : فالآية حددت ذلك والحسي لا يصاب بالعمى المتعارف .

رابعاً : عمى العين مع إبصار القلب لا يضر بخلاف العكس ، فإن أعمى العين يتذكر فتنبه الذكرى ببصيرة قلبه . قال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يُزَكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الْذِّكْرَى ﴾ [عبس : آية ١ - ٤] ^(١) .

وعمى القلب : موت ناتج عن مرض مسبق ، كإفساد في الأرض واستهزاء ومخادعة للمؤمنين ، أدى بهم إلى النفاق التام ، فزادهم الله مرضاً لرغبتهم في الضلال ، فآل بهم إلى العمى ،

(١) أضواء البيان (٣ / ٥٦٢) وستطرق بتوسع لهذا في باب القلب والمعرفة .

وأعمى القلب لا يعقل لأن العقل نور القلب ، وقد سلبهم الله ذلك
النور فأصبحوا كافرين . قال تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ
الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عَمِيٌّ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾
[البقرة : آية ١٧١] .

فإذا بلغ العبد هذا الدرك لا يتدبر آيات الله الكونية ليستدرك
بها على وحدانية الله ، فهو إن فكر فإنه يفكر ما تمليه غريزته
الحيوانية ، مكذباً بكل ما وراء العقل ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ ﴾
[يونس : آية ٣٩] فاستحق بذلك لعنة الله قال تعالى :

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ ﴾ [محمد: آية ٢٣].

وقال البغوي : العمى الضار هو عمى القلب ، فأما عمى
البصر فليس بضرار في أمر الدين .

قال قتادة : (البصر الظاهر بلغة وامتعة ، وبصر القلب هو
البصر النافع)^(١) .

وقال ابن القيم : من عقوبة المعاصي (أنها تعمي بصيرة
القلب ، وتطمس نوره وتسد طرق العلم ، وتحجب مواد الهداية) .

وقد قال مالك للشافعي لما اجتمع به ورأى تلك المخايل :
إني أرى الله تعالى قد ألقى عليك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية .

ولا يزال هذا النور يضعف ويضمحل ، وظلام المعصية يقوى
حتى يصير القلب في مثل الليل البهيم ، فكم من مهلك يسقط فيه

(١) معالم التنزيل في التفسير والتأويل (٤/١٢٣) الحسين بن مسعود الفراء
البغوي (ت ٥١٠ هـ) .

ولا يبصره ، كأعمى خرج بالليل في طريق ذات مهالك ومعاطب ،
فيا عزة السلامة ، ويا سرعة العطب ، ثم تقوى تلك الظلمات وتفيض
من القلب إلى الجوارح ، فيغشى الوجه منها سواد بحسب قوتها
وتزايدها) (١) .

والخلاصة : أن العمى كما يكون طمس للإدراك التام
الحاصل في القلب ، فهو أيضاً بمعنى الغواية واللجاج في الباطل ،
وأيضاً بمعنى الكبر والضلال والجهل ، فعلى مقدار الجهل والغواية
وكثرة المعاصي يزداد ظلام القلب وطمس الإدراك ، فإذا بلغ الحد
إلى التكذيب بيوم الدين والاستهزاء بما أنزل على المرسلين ، فهو
المعتد الأثيم من الذين قال الله فيهم : ﴿ وَيَلُّ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ
الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ وَمَا يُكذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ إِذِ انْتُلِيَ عَلَيْهِ ائِنشَاءُ اسطِيرُ
الْأَوَّلِينَ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّحَجُونَ ﴿١٥﴾

[المطففين : آية ١٥ - ١٥] .

(١) الداء والدواء ص (١٠٧) .

المبحث السادس عشر الران على القلب

فالذنب على الذنب مع الإصرار وسوء الأدب لا بد أن يكسب الإنسان حالة أكبر من أن تنجلي عن قلبه ، بعكس الحسنه على مثلها تكسبه حالة الطمأنينة التي تغمر قلبه ، وكلا الحالتين غمر وغطاء ، ولكن شتان بين الحسنه والمعصية . ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب صقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها ، حتى تعلق قلبه ، وهو الران الذي ذكره الله»^(١) .

والنكت : الأثر في الشيء^(٢) .

(١) أخرجه الترمذي رقم (٣٣٣١) في التفسير ، باب : ومن سورة ويل للمطففين ، وأخرجه ابن ماجه رقم (٤٢٤٤) في الزهد باب ذكر الذنوب ، وأخرجه أحمد في المسند (٢/٢٩٧) ، وقال الترمذي : حديث حسن

صحيح .
(٢) جامع الأصول (٢/٤٢٥) .

فالرين كسبي ، من أثر الذنوب على القلب يحيط به ، فهو كالصدأ يطبق على القلب حتى يقفل ثم يختم ، فإن كان بعد إسلام انتكس العبد حتى تلحقه رحمة الله أو تغلب عليه شقوته ، وإن كان مع كفر وجحود فهي ظلمات بعضها فوق بعض . قال تعالى : ﴿ بَكَرَ مِنْ كَسَبِ سَيِّئَةٍ وَأَحَاطَتْ بِهَا خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : آية ٨١] . فقبل أن يكون الران ، هي مجرد ذنوب تتراكم على القلب حتى تميته .

وقد ذكر الحق تبارك وتعالى (الرين) في كتابه مرة واحدة في سورة المطففين ؛ حالة من حالات مراحل القلب الميت ، الذي استهزأ بآي الذكر الحكيم وكذب بيوم الدين ، ففجر عن الحق واعتدى على الخلق .

قال تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : آية ١٤] .

والرين : الطبع والدنس ، والرين : الصدأ الذي يعلو السيف والمرأة .

وكل ما غطى شيئاً فقد ران عليه .

ورانت عليه الخمر : غلبته وغشيته ، كذلك النعاس والنهم . وكل غلبة : رين^(١) .

وفي حديث أسيفع جهينة قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : (فإن الأسيفع رضي من دينه وأمانته بأن يُقال سبق الحاج ،

(١) لسان العرب (١٣/١٩٢) ، تاج العروس (٩/٢٢٣) .

ألا وإنه قد دان معرضاً فأصبح قد رين به ، فمن كان له عليه دين فليأتنا بالغداة . . الحديث^(١) .

فيقال : رين به : إذا وقع الرجل فيما لا يستطيع الخروج منه ولا قبل له به^(٢) .

وقوله قد دان معرضاً : أي استدان معرضاً عن الأداء ، أو استدان معترضاً لكل من يقرضه^(٣) .

وذكر أهل التفسير للرين معان لا تخرج عن المدلول اللغوي من الغلبة والتغطية .

قال الحسن البصري رحمه الله في تفسير الرين : هو الذنب على الذنب ؛ حتى يموت القلب .

وعنه : هو الذنب على الذنب ؛ حتى يعمى القلب فيموت .

وعن مجاهد قال في تفسير الآية : العبد يعمل بالذنوب فتحيط بالقلب ، ثم ترتفع حتى تغشى القلب .

وقال : كانوا يرون القلب في مثل هذا - يعني الكف - فإذا أذنب العبد ذنباً ضم منه - وقال بإصبعه الخنصر هكذا - فإذا أذنب ضم أصبعاً أخرى ، فإذا أذنب ضم أصبعاً أخرى ، حتى ضم أصابعه كلها ، ثم يطبع عليه بطابع .

(١) الموطأ (٧٧٠/٢) كتاب الوصية ، باب (٨) جامع القضاء وكرهيته ،

مالك بن أنس بن مالك الأصبحي ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي .

ومعنى (قد ران معرضاً : أي اشترى بدين ولم يهتم بقضائه) .

(٢) النهاية في غريب الحديث (٢٩١/٢) .

(٣) لسان العرب (١٩٣/١٣) .

قال مجاهد : وكانوا يرون ذلك : الرين .

وعنه قال : انبثت على قلبه الخطايا حتى غمرته .

وقال قتادة : أعمال السوء ، أي - والله - ذنب على ذنب ،
وذنب على ذنب حتى مات قلبه واسود^(١) .

وقال القاسمي في معنى قوله ﴿كلا بل ران على قلوبهم﴾ أي
غطى على مداركهم ما اكتسبوه من الآثام ، حتى كدر جوهرها وصار
صدأ عليها بالرسوخ فيها^(٢) .

والمهم أن الذنوب كالوسخ والصدأ على القلوب ، فهي ترسخ
في نفس الإنسان بكثرة التكرار وعلى حسب درجاتها حتى تكون
ملكة راسخة ، لا تقبل الزوال ، ثم تصبح صفة من صفات القلب
فيرسخ حبه فيها ولا يزول ، كالصدأ لا يزول بسهولة ، ولكن مهما
علا الصدأ إذا صادف أيدٍ خبيرة زال عن الشيء ، وكذلك الذنوب
مهما تراكمت على القلب وغطته فإنما تغطي الفطرة على أدنى
مراتب الخير ، وقد تقوى الفطرة على هذا الركام إذا شاء الله لها
فيزول الغطاء ، والأمر مشاهد في كثير من الناس ، ولكن إذا أصر
الإنسان في غيه وتمادى في ضلاله ؛ فلا بد لهذا الرين أن يحيط
بالقلب ويقفله ، فتتعطل قوة الإدراك عند أشخاص تهالكوا في درك
الموت ، وزاد بهم المرض حتى أدى بهم إلى العطب .

قطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، فأصمهم ؛ فلم يعد لهذه

(١) جامع البيان (٩٧/٣٠ ، ٩٨) تفسير القرطبي (٢٥٩/١٩) تفسير ابن كثير
(٤٨٥/٤) .

(٢) تفسير القاسمي المسمى محاسن التأويل (٩٢/١٧) محمد جمال الدين
القاسمي م : ١٣٣٢ هـ .

الحاسة وظيفة سماع الحق ، وأعمى أبصارهم ؛ لأنهم لم يعتبروا
بمن مضى من أمم ذكرت في محكم البيان ، ولم يتدبروا القرآن
ليزيل غشاوتهم ويفتح قلوبهم ، ويسكب فيها من نوره ، بل استمروا
على غي وضلال ، فأقفل الله قلوبهم .

المبحث السابع عشر القفل على القلب

قال تعالى في وصف هذه الفئة من الناس : ﴿ فَإِذَا أَنْزَلْتَ
سُورَةً مُحْكَمَةً وَذَكَرَ فِيهَا الْقِتَالَ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ
إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا
عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ
تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ
وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلَمْ عَلَيَّ قُلُوبٌ أَقْفَالُهَا ﴾
[محمد : آية ٢٠ - ٢٤] .

و (أم) في قوله ﴿ أم على قلوب أقفالها ﴾ منقطعة ، بمعنى

(بل) (١) والقفل على القلب ورد في القرآن مرة واحدة .

والقاف والفاء واللام : أصل صحيح يدل على صلابة وشدة

(١) البحر المحيط (٨٣/٨) معالم التنزيل (١٦٠/٥) ، تفسير القرطبي
(٢٤٦/١٦) .

في شيء ، فالقفيل هو الخشب اليابس ، ومنه القفل : لأن فيه شداً
وشدة^(١) .

وقال المفسرون في معنى القفل : أي على قلوب أقفال ،
أقفلها الله عز وجل عليهم ، فهم لا يعقلون لأنهم لم يتفهموا القرآن ،
فيعلمون ما أعد الله للذين لم يتولوا عن الإسلام^(٢) .

أخرج ابن جرير بسنده عن هشام بن عروة^(٣) عن أبيه قال :
(تلا رسول الله ﷺ يوماً ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب
أقفالها﴾ فقال شاب من أهل اليمن : بل عليها أقفالها حتى يكون
الله عز وجل يفتحها أو يفرجها)^(٤) .

وتدبر القرآن واتباع منهجه والتمسك بالسنة من أسباب فتح
أقفال القلوب . وفي أضواء البيان عند تفسير هذه الآية قال : إن
أسباب انحطاط المسلمين في بعض العصور ، وتأثير الغزو الفكري
في عقائدهم ودينهم ؛ راجع إلى عدم تدبر القرآن ، فتتعلق القلوب
ويخلو منها الإيمان ، وإن كانت الآية في المنافقين إلا أن سنة الله
قائمة ، فمن أفسد في الأرض بالمعاصي وقطع الأرحام وسفك
الدماء الحرام ؛ عاجله أو آجله بعقاب من عنده ، وإن أطاع فتح الله
قفل قلبه للإيمان^(٥) .

(١) معجم مقاييس اللغة (١٢/٥) .

(٢) أضواء البيان (٤٢٨/٧) ، القرطبي (٢٤٦/١٦) ، روح المعاني
(٧٤/٢٦) ، ابن كثير (١٨٠/٤) ، الكشاف (٤٥٨/٣) .

(٣) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام - تابعي محدث ، توفي ١٤٦ هـ ،
الأعلام (٨٧/٨) .

(٤) جامع البيان (٥٨/٢٦) ، معالم التنزيل (١٦٠/٥) .

(٥) أضواء البيان (٤٢٨/٧) .

أخرج الإمام أحمد في مسنده بسنده عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير^(١) عن أبيه قال : جلسنا إلى المقداد بن الأسود يوماً فمر به رجل فقال : طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا رسول الله ﷺ : .. وفيه : فجاء بفرقان فرق فيه بين الحق والباطل ، وفرق بين الوالد وولده ، حتى كان الرجل ليرى والده وولده أو أخاه كافراً ، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ، يعلم أنه إن هلك دخل النار ، فلا تقرّ عينه وهو يعلم أن حبيبه في النار . . الحديث^(٢) .

وقفل القلب حقيقة . فالله أضاف الأفعال إلى القلوب ﴿أم﴾ على قلوب أفعالها ﴿للدلالة على أنها أفعال مخصوصة بها ، مناسبة لها ، غير مجانسة لسائر الأفعال المعهودة﴾^(٣) .

والخلاصة : أن السبب الأول في قفل القلوب البعد عن كتاب الله ، وعدم التذكر بمواعظه يؤدّي بالإنسان إلى ارتكاب كثير من الآثام ، وأهمها : الإفساد في الأرض وقطيعة الرحم ، فيستحق اللعنة التي وعد الله بها ، والابتلاء بالصمم عن سماع الموعظة ، وعمى البصيرة عن طريق الهداية ، ولا هداية بغير نور القرآن الذي أنزله الله ليستضاء به ، فيعلم في ضوئه الحق من الباطل ، والحسن من القبيح ، والنافع من الضار ، والرشد من الغي ، ولا شك أن من عميت بصيرته عن النور تخبط في الظلام ، فمن غطت الذنوب جميع قلبه ولم يستيقظ حتى أتاه القفل ، فما بعد القفل إلا الطبع .

(١) عبد الرحمن بن جبير بن نفير الحضرمي ، ثقة ، توفي ١١٨ هـ ، تهذيب التهذيب ، (١٥٤/٦) .

(٢) مسند الإمام أحمد (٣/٦) .

(٣) روح المعاني (٧٤/٢٦) ، التفسير الكبير (٦٦/٢٨) محاسن التأويل (٥٥/١٥) .

المبحث الثامن عشر الطبع على القلب

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ
أَتَتْهُمْ كُفْرًا مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى
كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : آية ٣٥] .

وهذه الآية ذكرها الحق سبحانه وتعالى ، ضمن آيات أخر
قبلها جرت على لسان رجل من آل فرعون وقع الحق في قلبه ،
وكتم إيمانه ، دافع عن موسى عليه السلام أمام طاغية..

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ
إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ
رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ
بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ يَنْقُومُ
لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ
جَاءَنَا فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ

الرَّشَادِ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنَ بِقَوْمِ إِيَّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ
 الْأَحْزَابِ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ
 يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ وَيَقَوْمِ إِيَّيْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ النَّارِ يَوْمَ تُولُونَ
 مُدِيرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِرٍ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ وَلَقَدْ
 جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ
 بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ نَبْعَثَ اللَّهَ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ
 يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ
 اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا
 كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿ غافر : آية ٢٨ -
 [٣٥] .

أوضح لهم أن ما جاء به موسى قد يكون حقاً ، ورفض الحق
 يعرض المرء للانتقام .

أوضح لهم أن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب ، وأن الله لا
 يريد ظلم العباد .

وأوضح لهم أن من يضلل الله فما له من هاد ، وكذلك يضل
 الله من هو مسرف مرتاب في عقيدته .

وأخيراً يخبرهم بمقت الله ومقت المؤمنين لمن يجادل في
 آيات الله بغير حجة ولا برهان ، إنما هو التجبر والتكبر ، فعاقبته
 الطبع على قلبه ، الطبع على موضع الهدى ومنفذ الإدراك ، والطبع
 أينما بحثت عنه في كتاب الله تجده ارتبط بالقلب .

فما هو الطبع ولمن يكون .

ذكرت هذه المادة في كتاب الله إحدى عشرة مرة ، حالة من حالات القلب ، ترتبط به في وقت معين ، تسلبه خصائص يتميز بها .

فمن طبع على قلبه ، قد يحرم من الإيمان ؛ حسب درجته من الإصرار والعناد والبعد عن منهج الصواب . قال تعالى عن بني إسرائيل : ﴿ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَقَهُمْ وَكُفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَقًّا وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا وَيَكُفِّرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بِهَتْنًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : آية ١٥٥ - ١٥٦] .

ويطبع على قلوب الكافرين الذين كذبوا رسل الحق قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف : آية ١٠١] .

والطبع على القلب : يقفل باب العلم وباب الفقه ، فلا يسمع ولا يبصر عن الحق شيئاً .

قال تعالى : ﴿ أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ أَوْنَسَاءُ أَصْبَنَهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [الأعراف : آية ١٠٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رِضْوَانًا يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ

فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿[التوبة : آية ٩٣] .

وكما في قوله تعالى : ﴿ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة : آية ٨٧] . وغيرها آيات أخر .

فالمطبوع على قلبه لا يعي ما جاء عن الحق مجملاً ولا يفقهه مفصلاً ، لأن تأمله محصور في شهواته وغيته .

وقد يطبع على قلب المسلم العاصي تارك الجمعة ، فقد أخرج أبو داود والنسائي وغيرهم من حديث أبي الجعد الضمري ، أن رسول الله ﷺ قال : «من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه»^(١) ، وقال الترمذي : حديث حسن .

والطاء والباء والعين : أصل صحيح ، وهو مثل على نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها . يُقال : طبعت على الشيء طابعاً ، ثم يُقال : على هذا طبع الإنسان وسجيته^(٢) .

وطبعه الله على الأمر ، يطبعه طبعاً : فطره^(٣) .

والطبع : ابتداء صنعة الشيء ، تقول : طبعت اللبن طبعاً ، وطبع الدرهم والسيف وغيرهما يطبعه طبعاً : صاغه .

وأصل الطبع : الصدأ يكثر على السيف وغيره^(٤) .

(١) سنن أبي داود كتاب الصلاة (٢٠٤) ، عون المعبود (٣/٣٧٧) . سنن الترمذي كتاب الجمعة (٧) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٣/٤٣٨) .

(٣) لسان العرب (٨/٢٣٣) ، تاج العروس (٥/٤٣٨) .

(٤) لسان العرب (٨/٢٣٣) .

وقيل : الطبع : أن يصوّر الشيء بصورة ما ، كطبع السكة وطبع الدراهم ، وهو أعم من الختم وأخص من النقش (١) .

والفرق بين الختم والطبع : أن الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه ، فهو يفيد معنى الثبات واللزوم ما لا يفيد الختم ، ولهذا قيل : طبع الدرهم طبعاً ، وهو الأثر الذي يؤثره فيه فلا يزول عنه ، كذلك قيل : طبع الإنسان لأنه ثابت غير زائل ، وقيل : طبع فلان على هذا الخلق : إذا كان لا يزول عنه .

وقال بعضهم : الطبع علامة تدل على كنه الشيء (٢) .

كما وأن الطبع يكون على القلب والسمع والبصر ، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ﴾ [النحل : آية ١٠٨] بخلاف الختم فإنه على القلب والسمع فقط .

يقول سيد قطب - رحمه الله - في تفسير قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [يونس : آية ٧٤] .

(فهؤلاء الرسل جاءوا قومهم بالبينات . والنص يقول : إنهم ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ، وهذا يحتمل أنهم بعد مجيء

(١) بصائر ذوي التمييز (٣/٤٩٤) .

(٢) الفروق اللغوية ص (٥٦) .

الآيات ظلّوا يكذبون كما كانوا قبلها يكذبون ، فلم تحوّلهم الآيات عن عنادهم . كما يحتمل أن المكذبين جماعة واحدة على اختلاف أجيالهم ، لأنهم ذو طبيعة واحدة ، فهؤلاء ما كان يمكن أن يؤمنوا بما كذب به أسلاف لهم ، أو بما كذبوا هم به في أشخاص هؤلاء الأسلاف ، فهم منهم ، طبيعتهم واحدة ، وموقفهم تجاه البيّنات واحد ، لا يفتحون لها قلوبهم ، ولا يتدبرونها بعقولهم ، وهم معتدون متجاوزون حد الاعتدال والاستقامة على طريق الهدى ، ذلك أنهم يعطلون مداركهم التي أعطاه الله لهم ، ليتدبروا بها ويتبينوا ، وبمثل هذا التعطيل تغلق قلوبهم وتوصد منافذها قال تعالى : ﴿كذلك نطبع على قلوب المعتدين﴾ .

وحسب سنة الله القديمة في أن القلب الذي يغلقه صاحبه ينطبع على هذا ويجمد ويتحجر فلا يعود صالحاً للتلقي والاستقبال ، لا أن الله يغلق هذه القلوب ليمنعها ابتداء من الاهتداء ، فإنما هي السنة تتحقق مقتضياتها في جميع الأحوال^(١) .

والطبع منه مخرج وإن كان قليلاً ، إلا إذا انتقل إلى النهاية ، ونهاية مراحل الموت الختم على القلب .

(١) في ظلال القرآن (٣/١٨١٢) .

المبحث التاسع عشر الختم على القلب

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٦ ، ٧] .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه بسنده قال : حدثني الحسن بن علي الحلواني ، حدثنا أبو توبة ، حدثنا معاوية - وهو ابن سلام - عن زيد - يعني أخاه - أنه سمع أبا سلام قال : حدثني الحكم بن مينا ، أن عبد الله بن عمر وأبا هريرة حدثاه أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول - على أعود منبره - : «لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين»^(١) .

فالذنوب والمعاصي لا بد أن يؤثر ضررها في القلب كضرر

(١) صحيح مسلم (٥٩١/٢) حديث رقم (٨٦٥) ، كتاب الجمعة ، باب (١٢) .

السموم في الأبدان ، على اختلاف درجاتها في الضرر ، فالمعاصي بريد الكفر ، فلا يأمن عاقبة المعاصي إلا مغرور . فلا تزال به حتى ينسلخ من القلب استقباحها ، فتصير له عادة ، فيكون الطبع أو الختم فالغفلة .

وذكر الختم في كتاب الله تعالى مرتباً بالقلب في أربعة مواضع :

الأول : في قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٧] .

الثاني : في قوله تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهُ غَيْرَ اللَّهِ بِآتِيكُمْ بِهِ أَنْظَرَكُمْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَنْهُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ [الأنعام : آية ٤٦] .

الثالث : في قوله تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا قَدْ يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتَمَ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى : آية ٢٤] .

الرابع : في قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوْنَهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمِهِ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشْوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : آية ٢٣] .

الخاء والتاء والميم أصل واحد ، وهو بلوغ آخر الشيء ، يُقال : ختمت العمل ، وختم القارىء السورة . فأما الختم : وهو

الطبع علي الشيء ؛ فذلك من الباب أيضاً ، لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره في الإحراز^(١) .

وختمه بمعنى : طبعه ؛ فهو مختوم ، والختم المنع^(٢) .

والختم : إخفاء خبر الشيء بجمع أطرافه عليه ، على وجه يحتفظ به .

قال الزجاج : معنى ختم وطبع واحد في اللنة ، وهو : التغطية على الشيء ، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء^(٣) .

والختم ينبيء عن إتمام الشيء وقطع فعله وعمله . تقول : ختمت القرآن أي أتممت حفظه وقرآته ، وختمت الكنز : لأنه آخر ما يفعل به لحفظه^(٤) .

والختم : الطبع بالخاتم ، والمراد منه إحراز ما وراءه لئلا يخرج منه شيء ، أو يصل إليه شيء من الخارج^(٥) .

والختم في القرآن على أربعة أوجه :

أحدها : الطبع . ومنه قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةً ﴾ [البقرة : آية ٧] ، وقوله تعالى : ﴿ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَقَلْبِهِمْ ﴾ [الجاثية : آية ٢٣] .

(١) معجم مقاييس اللغة (٢/٢٤٥) .

(٢) لسان العرب (١٢/١٦٣) .

(٣) تاج العروس (٨/٢٦٦) .

(٤) الفروق اللغوية ص (٥٦) .

(٥) نزهة الأعين النواظر (ص) (٢٧٢) .

والثاني : الحفظ والربط ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ
يَخْتِمُ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ [الشورى : آية ٢٤] أي يحفظه ويربطه .

والثالث : المنع . ومنه قوله تعالى : ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ
أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [يس : آية ٦٥] أي نمنعها الكلام .

والرابع : الآخر ومنه قوله تعالى : ﴿ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ
التَّيِّنَاتِ ﴾ [الأحزاب : آية ٤٠] ، وقوله تعالى : ﴿ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ
مَّخْتُومٍ خِتْمُهُ مِسْكٌ ﴾ [المطففين : آية ٢٦] (١) .

والحق تبارك وتعالى وصف القلب الميت بأوصاف عدة ،
كلاشمئزاز والطبع والإسلاك والختم والرین والريب والغفلة والغفلة
والقفلة ، وغيرها من الصفات ، وكل صفة لا بد أن تكون لمرتبة
معينة يصل إليها العبد ، حسب استعداد نفسه لقبول المعاصي
والتدرج في إنكار المعرفة ، ولا يمكن أن تكون هذه الأوصاف مجرد
أسماء فالختم لا بد أن يكون غير الطبع وغير الإقفال ، وكلها معان
حقيقية .

فإذا عدم الوعي عن مفهوم مخاطبة الحق سبحانه والتفكير في
آياته ختم على القلب ، وإذا السمع انصرف عن سماع الحق كما
قال الله تعالى على لسان نوح عليه السلام : ﴿ وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ
لِتُغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أُصْغِرًا وَأَصَلَّوْا أَصْوَابَهُمْ وَأَسْتَفْسَؤْا شِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا
أَسْتَكْبَارًا ﴾ [نوح : آية ٧] ختم عليه ، والفاعل لذلك هو الحق

(١) نزهة الأعين النواظر ص (٢٧٣) ، إصلاح الوجوه والنظائر ص (١٥٣) .

تبارك وتعالى مجازاة لكفرهم وفعله عدل . قال تعالى : ﴿ قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُم بِلِ اللَّهِ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [الحجرات : آية ١٧] فهو المالك المطلق .

وقال القرطبي - رحمه الله - في الختم والطبع هو : معنى يخلقه الله في القلب يمنع من الإيمان به ، دليله قوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ ﴾ [الشعراء : آية ٢٠٠] (١) .

(فالختم : هو الشد على القلب ؛ حتى لا يشعر ولا يفهم ، فهو مانع يمنع العلم والتقصّد) (٢) .

فإذا منع العلم بعد الختم وبلد التفكير امتنع التعقل ، لأن القلب محل الفهم والإدراك ، فهو العضو الذي يفقه في الإنسان ، لذلك ينزل القرآن على قلب رسول الله ﷺ . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبِكَ ﴾ [البقرة : آية ٩٧] .

فإذا ختم على القلب وليس قبله إيمان ؛ كان منعاً من قبول وارد إيماني آخر ، فتكون حالة الفرد كما وصفها الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : آية ١٧١] .

(١) تفسير القرطبي (١/١٨٧) .

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص (١٩٠) .

صفة الختم :

طالما الأمر معنوي ؛ تولى الله ذلك ولم يأت إلينا من الشارع ما يدل على الكيفية ، والعقل قاصر عن الإدراك المادي ، فلو تبجر فيما وراء المادة لكان عجزه أشد وأدهى . ولكن العلماء رحمهم الله تكلموا في ذلك حسب ما ورد من نصوص يستشف منها العالم تقارب المعنى ، ولكن لم يفرقوا بين الختم والطبع والران مثلاً ، إلا أن البعض أعلى من الآخر ، والمرجع تراكم الذنوب على القلب . كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب صقل منها ، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه ؛ فذلك الران الذي ذكره الله عز وجل : ﴿كلا بل ران على قلوبهم﴾^(١) .

أخرج الطبري بسنده عن مجاهد قال : نبئت أن الذنوب على القلب تحف به من نواحيه حتى تلتقي عليه . فالتقاؤها عليه الطبع ، والطبع الختم .

وقال الطبري : إن الذنوب إذا تابعت على القلوب أغلقتها ، وإذا أغلقتها أتاها حينئذ الختم من قبل الله عز وجل والطبع ، فلا يكون للإيمان إليها مسلك ، ولا للكفر منها مخلص ، فذلك هو الطبع والختم الذي ذكره الله تعالى في قوله : ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ نظير الطبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف التي لا يوصل إلى ما فيها إلا

(١) المستدرک : کتاب الإيمان (٥/١) وقال : حديث صحيح ، وأخرجه ابن جرير الطبري بسنده ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم﴾ الآية ، (١/١١٢) .

بفض ذلك عنها ثم حلها ، فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وصف الله أنه ختم على قلوبهم ؛ إلا بعد فضه خاتمه وحلّه رباطه عنه^(١) .

الختم على قلوب المؤمنين :

ورد الختم على القلب في حق المصطفى ﷺ قال تعالى :
﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ
الْبَطْلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الشورى : آية
٢٤] .

وهنا ذكر العلماء أقوالاً في معنى هذه الآية :

١ - قال قتادة : يطبع على قلبك فينسيك القرآن ، فأخبرهم الله أنه لو افتري عليه لفعل بمحمد ﷺ ما أخبرهم به في هذه الآية^(٢) .
ومثله قال ابن كثير .

٢ - قال مجاهد ومقاتل : إن يشأ الله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم ، حتى لا يدخل قلبك مشقة من قولهم^(٣) .

٣ - أي : حتى لا يشق عليك قولهم : إنه مفتر كذاب .

وبالتبع نجد أن الختم وغيره على القلوب لا يكون إلا بعد تمادٍ في الكفر أو العصيان ، فيكون ذلك عقاب من الله لهم على مبادرتهم للكفر وتكذيب الرسل باختيارهم ومشيتهم ، كما بيّنه تعالى

(١) جامع البيان (١/١١٢ - ١١٣) .

(٢) تفسير القرطبي (١٦/٢٥) ، تفسير ابن كثير (٤/١١٤) ، تفسير الطبري

(٢٥/٢٧) ، التفسير الكبير (٢٧/١٦٧) .

(٣) المرجع السابق نفسه .

بقوله : ﴿ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ ﴾ [النساء : آية ١٥٥] ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ﴾ [المنافقون : آية ٣] ، وقوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : آية ٥] .

ورسول الله ﷺ أعرف الناس بربه فلا تصدر منه المعاصي .
ثم إن الختم : إغلاق على القلب بما حوى ، فلا يخرج منه ولا يدخل إليه شيء ، وقلب المصطفى ﷺ ملىء إيماناً ، فالختم على قلبه الشريف يكون بعدم المبالاة بتكذيبهم إياه ، والاطمئنان أن لا فائدة ترجى منهم ، وأن الله يفعل ما يريد ، ولا يكون بنزع الإيمان منه ﷺ .

المبحث العشرون القلب الغافل

فالقلب إذا ختم عليه بعد أن غطته الذنوب وعمه الصمم ،
وعمى البصيرة ، لا بد أن يكون من الغافلين ، فهو قلب غافل . وقد
حذر الحق تبارك وتعالى رسوله من اتباع أصحاب القلوب الغافلة ،
فقال تعالى : ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ
وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف:
آية ٢٨] .

فمن أغفل قلبه واتجه إلى ملذاته الدنيوية ، ولم يعد في قلبه
متسع للهداية ، وجعل الدنيا غايته ؛ غفل عن ذكر الله ، فاستحق أن
يغفل الله قلبه .

والغين والفاء واللام أصل صحيح ، يدل على ترك الشيء
سهواً وربما كان عن عمد . من ذلك : غفلت عن الشيء غفلة : إذا
تركته ساهياً ، وأغفلته : إذا تركته على ذكر منك له^(١) .

(١) معجم مقاييس اللغة (٤/٣٨٦) ، لسان العرب (١١/٢٩٨) .

والغفل : سهو يعتري الإنسان من قلة التحفظ واليقظ ،
يُقال : غفل فهو غافل . من ذلك قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ
كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا ﴾ [ق : آية ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾
[القصص : آية ١٥]^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ﴾ أي تركناه
غير مكتوب فيه الإيمان ، وقيل : من جعلناه غافلاً عن الحقائق^(٢) .
ولكن هناك فروق بين النسيان والسهو والغفلة يجب التنبه
إليها .

فالنسيان إنما يكون عما كان ، والسهو يكون عما لم يكن .
تقول : نسيت ما عرفته ، ولا يُقال : سهوت عما عرفته ، وإنما
تقول : سهوت عن السجود في الصلاة ، فتجعل السهو بدلاً عن
السجود الذي لم يكن ، والسهو والمسهو عنه يتعاقبان .
وفرق آخر : إن الإنسان إنما ينسى ما كان ذاكرًا له ، والسهو
يكون عن ذكر وعن غير ذكر ، لأنه خفاء المعنى بما يمتنع به
إدراكه .

وفرق آخر وهو أن الشيء الواحد محال أن يسهى عنه في وقت
ولا يسهى عنه في وقت آخر ، وإنما يسهى في وقت آخر عن مثله .
ويجوز أن ينسى الشيء الواحد في وقت ويذكره في وقت آخر .

(١) المفردات في غريب القرآن ص (٣٦٢) .

(٢) بصائر ذوي التمييز (٤/١٤٠) ، المفردات مادة «غفل» ص (٣٦٢) .

أما الغفلة فإنما تكون عما يكون ، والسهو يكون عما لا يكون ، تقول : غفلت عن هذا الشيء حتى كان ، ولا تقول : سهوت عنه حتى كان ، لأنك إذا سهوت عنه لم يكن ، ويجوز أن تغفل عنه ويكون . وفرق آخر : أن الغفلة تكون عن فعل الغير ، تقول : كنت غافلاً عما كان من فلان ، ولا يجوز أن يسهى عن فعل الخير^(١) .

فإذا عرضت الآيات الدالة على وحدانية الله ؛ على قلب غافل ، معرض عن الهدى ؛ قابلها باللهو والاستهتار بلا وقار ولا تقديس ، فتصبح الحياة عاطلة هينة رخيصة .

فأعمال العبد مرتبطة بالنية ، والنية دليل اليقظة . ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة ، واعلموا أن الله لا يقبل دعاء من قلب غافل لاه»^(٢) .

واليقظة تتجلى في مواظبة العبد على فضائل الأعمال ، ففي حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « من قرأ عشر آيات في ليلة لم يكتب من الغافلين»^(٣) .

وبين الختم والغفل ترابط ، فإذا ختم على القلب غفل العبد عن أسباب الخير . ففي حديث عبد الله بن عمر وأبي هريرة أنهما

(١) الفروق اللغوية ص (٧٨) .

(٢) المستدرک (٤٩٣/١) كتاب الدعاء ، وقال الذهبي : في إسناده صالح المروي ، وهو متروك الحديث . وأخرجه الترمذي في كتاب الدعوات (٥١٧/٥) وقال : حديث غريب . وأخرجه أحمد في مسنده (١٧٧/٢) .

(٣) المستدرک (٥٥٥/١) كتاب فضائل القرآن ، صحيح على شرط مسلم وأيده الذهبي .

سمعا رسول الله ﷺ يقول على أعواد منبره : «ليتهم أقوام عن ودعهم الجمعات أو ليختمن الله على قلوبهم ، ثم ليكونن من الغافلين»^(١) . والودع : الترك .

فإذا تمادى العبد في المعاصي فهو سائر في طريق الغفلة ، يطبع على قلبه أو يختم على قلبه وسمعه وبصره ، فأصبح من الغافلين ، يفضل الدنيا على الآخرة ، يرتاح صدره وينشرح للكفر ، فاستحق بذلك غضب الله . قال تعالى : ﴿ ذَلِكْ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [النحل : آية ١٠٧ - ١٠٨] .

والحق تبارك وتعالى شبه الغافلين بالأنعام بل أضل منها ؛ لأن باب المعرفة أغلق ، فالقلب لا يفقه ، والعين لا تبصر ، والأذن لا تسمع ، فلا يؤمن إلا بالمادة التي يحس بها ويلمسها ، أما كلمة الحق فلا .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : آية ١٧٩] .
فالغفلة ليست سهواً ولا نسياناً إنما هي تماد في البطلان

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجمعة (٣/١٥٢) ، مسند أحمد (٨٤/٢) عن ابن عمر وابن عباس - رضي الله عنهما - .

والتكبر والتجبر . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَأَطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ أُولَٰئِكَ
مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يونس : آية ٧ - ٨] .

الباب الخامس
القلب والمشاعر والإرادة

- الفصل الأول : المشاعر الداخلية في الانسان .
- الفصل الثاني : الكسب وأثره في القلب .

الفصل الأول المشاعر الداخلية في الانسان

- المبحث الأول : رعب القلب .
- المبحث الثاني : القسوة .
- المبحث الثالث : القلب الواجف .
- المبحث الرابع : القلب مقر الحمية .
- المبحث الخامس : القلوب وتشتيتها .
- المبحث السادس : قذف الوهن في القلب .

المبحث الأول رعب القلب

إن للقلوب أحوالاً وأعراضاً تصاحبها ، قد تكون أحوال مدح أو ذم ، ولا يعني بالضرورة أن يمتاز بها قلب بعينه أو تجتمع في قلب واحد أو حالة واحدة ، وكما أنها للقلب المعنوي فهي أيضاً تصاحب القلب الحسي ، وتظهر أعراضاً يشعر بها الإنسان ويشعر بها ذوي الاختصاص في مجال الطب كالرعب والفرع ، وقد يمتاز بها المعنوي ؛ كالقسوة والحمية والتشتيت والوهن .

فالرعب حالة من حالات القلب أياً كان نوعه وحاله ، والرعب والفرع من درجات الخوف .

والخوف : انفعال في النفس يحدث لتوقع ما يرد من المكروه أو يفوت من المحبوب^(١) . وعرفه الراغب بقوله : (توقع مكروه عن أمانة مظنونة أو معلومة ، وهو ضد الأمن)^(٢) ، ويستعمل في الأمور الدنيوية والأخروية .

(١) دائرة معارف البستاني (٧/٥٠١) .

(٢) المفردات ص (١٦١) .

ففي الأمور الدنيوية كقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي
 الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مِثْنَى وَتِلْكَ وَرِيعٌ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِلُوا
 فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء : آية ٣] .
 وكقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْعَثُوا حَكَمًا مِنَ
 أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنَ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : آية ٣٥] .

وفي الأمور الأخروية كقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ
 خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم : آية ١٤] .
 وكقوله تعالى : ﴿ نَتَجَاوَىٰ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
 خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [السجدة : آية ١٦] .

(والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب ،
 كاستشعار الخوف من الأسد ، بل إنما يراد به الكف عن المعاصي
 واختيار الطاعات ، ولذلك قيل : لا يعد خائفاً من لم يكن للذنوب
 تاركاً) (١) .

أما الرعب فهو حالة من حالات القلب :

قال تعالى : ﴿ بَتَّأَيْهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ
 كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ بَلِ اللَّهُ
 مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا
 الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ

(١) المفردات ص (١٦٢) .

النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿ [آل عمران : آية ١٤٩ - ١٥١] .
ففي الآية وعد من الله تبارك وتعالى بنهاية معركة الكفر
والإيمان الحقيقي ، لا بد أن ينصر الإيمان وأهله بإلقاء الرعب في
قلوب الكافرين ﴿سنلقي﴾ ، (بنون العظمة على طريقة الالتفات ،
جرياً على سنن الكبرياء لتقوية المهابة)^(١) . وإلقاء الرعب في قلوب
الذين كفروا كفيل بحسم نتيجة المعركة .

والراء والعين والباء أصول ثلاثة : أحدها : الخوف ،
والثاني : الملاء ، والآخر : القطع^(٢) .

فالأول : الرعب : بسكون العين وضمها : الخوف
والفزع^(٣) . وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن
النبي ﷺ قال : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : نصرت
بالرعب مسيرة شهر . . » الحديث^(٤) .

والثاني : الرعب : بفتح العين : الامتلاء ، يُقال : رعب
السيال الوادي إذا ملأه .

الثالث : الرعب : بفتح الراء وتشديد العين : القطع ،
يُقال : سنام مرعب أي مقطوع^(٥) .

والرعب : الانقطاع من امتلاء الخوف^(٦) .

(١) تفسير أبي السعود (١/٥٧٦) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٢/٤٠٩) .

(٣) لسان العرب (١/٤٢٠) ، تاج العروس (١/٢٧١) ، النهاية في غريب
الحديث (٢/٢٣٣) .

(٤) صحيح البخاري كتاب التيمم ، انظر فتح الباري (١/٤٣٦) .

(٥) لسان العرب (١/٤٢١) .

(٦) المفردات ص (١٩٧) .

وقيل : هو الخوف الذي يملأ الصدر والقلب .

وقيل : الرعب أشد الخوف^(١) .

والخوف هو : توقع مكروه عن أمانة مظنونة أو معلومة ، وهو عكس الأمن^(٢) .

أو هو : توقع حلول مكروه أو فوات محبوب^(٣) .

وقال ابن حجر : الرعب : الفرع^(٤) .

وقال الراغب : الفرع انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف ، وهو من جنس الجزع^(٥) . والجزع أبلغ من الحزن ، فهو حزن يصرف الإنسان عما هو بصدده .

ولكن الخوف ارتبط بالنفس قال تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ ﴾

خِيفَةً مُوسَى ﴿ [طه : آية ٦٧] ثم هو طبيعة في الإنسان فطر عليها ، وهو ضد الأمن ، فالمؤمن يخاف الله ، ولا يُقال يرتعب من الله . ولم يرد الخوف حالة من حالات القلب .

فالرعب : شيء مغاير للخوف ، أو هو شدته ، وضعه الله في القلوب أيّاً كان نوعها ، ولكنه جلت قدرته ينصر بهذا الرعب عباده المؤمنين ، فيلقيه أو يقذفه في القلوب المريضة أو الميتة لتضعف أمام القلوب الطاهرة .

(١) تاج العروس (١/٢٧١) .

(٢) المفردات ص (١٦١) .

(٣) التعريفات ص (١٠١) .

(٤) فتح الباري (١/٢٨) .

(٥) المفردات ص (٣٧٩) .

وهذا النوع من الرعب ذكره الله في كتابه في أربعة مواضع ،
مرتان بكلمة (ألقى) ومرتان بكلمة (قذف) .

١ - قال تعالى : ﴿ سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ
بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ . . . ﴾ الآية [آل عمران : آية ١٥١] .

٢ - وقال تعالى : ﴿ سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ
فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ . . . ﴾ الآية [الأنفال : آية ١٢] .

والإلقاء : الطرح ، يُقال : ألقى الشيء : طرحه . وفي
الحديث : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يلقي لها بالاً» أي ما يحضر
قلبه لما يقوله منها^(١) .

٣ - قوله تعالى : ﴿ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ
وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴾ [الأحزاب : آية ٢٦] .

٤ - قوله تعالى : ﴿ فَأَنزَلْنَاهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي
قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ﴾ [الحشر : آية ٢] .
والقذف : الرمي بقوة^(٢) .

وذكر الرعب مرة خامسة في القرآن الكريم ولكن لم يصرح فيه
بذكر القلب ، قال تعالى عن أصحاب الكهف : ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ
أَيْقَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ
بَسِيطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ

(١) لسان العرب (٢٥٦/١٥) .

(٢) لسان العرب (٢٧٧/٩) .

مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿ [الكهف : آية ١٨] .

فالرعب دائر في حالات القلب لا ينفك عنه ، وفي كلمة (ملئت) دليل على أن القلب كالوعاء يملأ ، والرعب هنا ليس الخوف وإنما مكانة أعلى من الفزع ، لأن الفزع : انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المخيف^(١) ، فإذا نظر إليهم الإنسان من مكان قريب بدلالة قوله تعالى : ﴿لَوْ أَطَّلَعْتُ﴾ فهو في أول توقع حلول مكروه وهذا هو الخوف ، فإذا شاهد الشيء المخيف اعتراه الفزع ، خاصة إذا كان أكبر مما يتوقع ، فإن كان مهولاً كان الرعب ، وهو أمر فطري في الإنسان (لأن الله عز وجل ألبسهم من الهيبة والهيئة ، وقد قال المفسرون : كانت أعينهم مفتوحة ، كالمستيقظ الذي يريد أن يتكلم)^(٢) .

ومنه ما ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ وهو يحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه : «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري ، فإذا الملك الذي جاءني ، جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت فقلت : زملوني . . . الحديث^(٣) .

والخلاصة : يمكن لنا أن نقسم الرعب إلى نوعين :

الأول : نوع فطري جبل الإنسان عليه ، يعتريه من الشيء المخيف أو المهول ، وهو ما يسمى لغة : الخوف أو الفزع ، ومنه قوله تعالى : ﴿لَوْ أَطَّلَعْتُ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتُ مِنْهُمْ

(١) المفردات ص (٣٧٩) .

(٢) تفسير أبي السعود (٥٠٨/٣) .

(٣) فتح الباري (٢٧/١) كتاب الوحي باب (٣) حديث (٤) .

رُعْبًا ﴿ [الكهف : آية ١٨] .

والثاني : أمر حادث يقذفه الله في قلوب أعدائه ، فتضعف قدرتهم أمام المسلمين ، ومنه قوله تعالى : ﴿ سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : آية ١٢] .

المبحث الثاني القسوة

وأيضاً من أعراض القلوب القسوة :

أخرج الإمام مسلم بسنده قال : «بعث أبو موسى الأشعري إلى قراء أهل البصرة ، فدخل عليه ثلاثمائة رجل قد قرأوا القرآن . فقال : أنتم خيار أهل البصرة وقراؤهم . فأتلوه . ولا يطولن عليكم الأمد فتَقَسُّوْ قلوبكم كما قست قلوب من كان قبلكم . . .» الحديث^(١) .

فهذا تحذير أهل المعرفة ، مدرسة النبوة ؛ من عاقبة التباطؤ والتقاعد ، وبيان لما يغشى القلوب من الصدأ ، وما تؤول إليه من القسوة بعد اللين ؛ حين تغفل عن ذكر الله ، فتحرم الخشوع ، وبيان الداء والدواء ، حتى يعيش العبد قريباً من الله .

والخشوع : من مراتب عُليا في حياة القلوب ، كما أن القسوة درك أسفل .

(١) صحيح مسلم (١٠٥٠) في الزكاة (١١٩) باب لو كان لابن آدم واديان (٧٢٦/٢) .

القاف والسين والحرف المعتل : يدل على شدة وصلابة ، من ذلك الحجر القاسي .

والقسوة غلظ القلب . وهي من قسوة الحجر^(١) . فتأويل القسوة في القلب ذهاب اللين والرحمة والخشوع منه^(٢) .

والقسوة وإن دلت على شدة وصلابة إلا أنها تعبير أقوى في المعنى ، فالقسوة تستعمل فيما لا يقبل العلاج ، ولهذا يوصف بها القلب وإن لم يكن صلباً^(٣) .

وقد كررت هذه المادة في التنزيل سبع مرات مرتبطة بالقلب .

مرتان : في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ [البقرة : آية ٧٤] .

وقد وردت ذمماً لقوم موسى عندما اختبروا في مدى الطاعة والاستجابة والتسليم ، أمام اختبار أتى من عند الله ؛ فما ازدادوا إلا لجاجة ، فقسّت قلوبهم .

ثالثاً : في قوله تعالى : ﴿ فِيمَا نَقَضِهِمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ﴾ [المائدة : آية ١٣] .

وهذه القسوة خلقها الله أو صيّر لها في قلوب بني إسرائيل ، بعد أن نقضوا ميثاق الله ، وتهاونوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، والإيمان بالرسول ونصرتهم .

(١) معجم مقاييس اللغة (٨٧/٥) ، المفردات في غريب القرآن ص (٤٠٤) .

(٢) لسان العرب (١٨٠/١٥) ، تاج العروس (٢٩٣/١٠) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٨٨) .

وهذه القسوة التي يخلقها الله غير القسوة اللغوية ، فهي معنى فوق أن يوصف . عقاباً لأنهم حَرَفُوا كَلامَ الله ونسوا أوامر دينهم ، ولا زالت الخيانة طابعهم ودأبهم فعلاً وقولاً .

رابعاً : في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ

فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَالَهُمْ بِئَضْرَعُونَ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : الآيتان ٤٢ - ٤٣] .

فالقلب الذي لا تردّه الشدة إلى الله قلب تحجر ومات ، فلا تثير فيه الشدة إحساساً ، كقوم فرعون وقوم موسى . فالشدة ابتلاء تجدد للقلب الحي حياته ، وتحجر القلب القاسي .

خامساً : في قوله تعالى : ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً

لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [الحج : آية ٥٣] .

وهذه فرقت بين مرض القلب وقسوته ، فالقسوة موت لا شك ، من ابتلي بها يحب الجدل والشقاق ؛ لإتمام الفرقة ونقض عرى الإسلام .

سادساً : في قوله تعالى : ﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ

عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِٗ فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [الزمر : آية ٢٢] .

هناك فرق كبير بين قلب استضاء بنور الإسلام وبين قاسي القلب ، وشتان بين هؤلاء وهؤلاء .

سابعاً : قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ
لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ
فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : آية
. [١٦]

وختام الآيات أوضح الدواء ، وشرحه أبو موسى الأشعري في
حديثه مع القراء ، وقد روى ابن عمر - رضي الله عنهما - عن رسول
الله ﷺ أنه قال : « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله ؛ فإن كثرة الكلام
بغير ذكر الله قسوة للقلب ، وإن أبعد الناس من الله القلب
القاسي»^(١) .

فمن مال إلى الدنيا وزخرفها وأعرض عن مواعظ الله ، وأكثر
الكلام فيما لا طائل تحته قرب من الغفلة . ولا يزال حاله حتى
تزول صفات الحياة من قلبه ، فيتدرج في المرض ، ثم في مراتب
الموت ، حتى يصل إلى القسوة .

والقلب القاسي تعود له الحياة بدلالة قوله تعالى : ﴿ وَكَثِيرٌ
مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ [الحديد : آية ١٦] . فدلالة المفهوم أن منهم من
قسي قلبه ولم يصل إلى الفسق ، والفسق نفاق أو كفر . قال تعالى
في المنافقين : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمْ
الْفَاسِقُونَ ﴾ [التوبة : آية ٦٧] .

(١) أخرجه الترمذي (٦٠٨/٤) برقم (٢٤١١) في الزهد باب رقم (٦١)
وإسناده حسن غريب ، جامع الأصول (٣٧/١١) ، وأخرجه مالك في
الموطأ رسلاً (٩٨٦/٢) كتاب الكلام ، باب (٣) .

وقال عن الكفار : ﴿ وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور : آية ٥٥] .

وقال عن قوم نوح وقوم فرعون : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ (١) .
فمنهم من أنقذه الله من النفاق أو الكفر ، وعاد إلى قدسية
الإيمان ، وشعّ فيه نور القرآن ، فإن من تلك القلوب القاسية ما يقبل
الإيمان يوماً ما ، فينتقل من القسوة إلى اللين من خشية الله ، فقد
تلين القلوب القاسية بلطف الله تعالى ، ويخشى العاصي . وقد
أخبر الله أن من أهل الكتاب من يؤمن بالله قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ
أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ
خَشِعِينَ لِلَّهِ ﴾ [آل عمران : آية ١٩٩] وكما أخبر أن من الأعراب
من يؤمن بالله ؛ من بعد أن أخبر أن الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ،
وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ ﴾ [التوبة : آية ٩٩] .

وقال تعالى : ﴿ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ﴾ [التوبة : آية
٩٧] .

(١) الآيات : النمل : آية ١٢ ، القصص : آية ٣٢ ، الذاريات : آية ٤٦ .

المبحث الثالث القلب الواجف

وأيضاً من خصائص القلوب : الوجوف ، وهو : شدة الاضطراب ، ويشمل جميع أحوال القلب الحسي والمعنوي ، وقد وردت مرتبطة بالقلب في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ تَرَجُّفُ الرَّاجِفَةُ تَتَّبَعَهَا الرَّادِفَةُ * قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴾ [النازعات : آية ٦ - ٨] .

وفي السنة : في قوله ﷺ في وصف جبريل وفيه : « فرفعت رأسي ، فإذا هو على العرش في الهواء ، فأخذتني وجفة شديدة . . » الحديث^(١) .

يُقال : وجف الشيء إذا اضطرب ، وأيضاً : الوجف والوجيف : ضرب من سير الخيل والإبل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ ﴾ [الحشر : آية ٦] أي ما أعلمتم .

(١) مسند الإمام أحمد (٣/٣٠٦) .

وقال الأزهري^(١) : استوجف الحب فؤاده : إذا ذهب به^(٢) .
ووجف الشيء : إذا اضطرب ، ووجف وجيفاً : خفق .
وقلب واجف - قال الزجاج - : شديد الاضطراب^(٣) .
وقال البغوي في قوله تعالى : ﴿قلوب يومئذ واجفة﴾ خائفة
قلقة مضطربة .
وقال مجاهد : أي وجلة ، وقال السدي : زائلة عن
أماكنها^(٤) .
وبمثل قول البغوي قال أكثر المفسرين .

(١) محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي ، إمام في اللغة والأدب ،
ت : ٣٧٠ هـ ، الأعلام (٣١١/٥) .
(٢) بصائر ذوي التمييز (١٦٨/٥) .
(٣) لسان العرب (٣٥٢/٩) .
(٤) معالم التنزيل (٥١٧/٥) ، تفسير القاسمي (٤٢/١٧) ، البحر المحيط
(٤٢٠/٨) .

المبحث الرابع القلب مقر الحمية

ومن خصائص القلوب: الحمية .

والحمية: هي القوة الغضبية إذا ثارت وكثرت^(١) .

ونسبت إلى القلب في قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الفتح: آية ٢٦] .

ورسول الله ﷺ كانت تأخذه الحمية . ففي حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - في قصة تطليق أبي ركانة زوجته ، وفيه : « فجاءت - أي أم ركانة - النبي ﷺ فقالت : ما يغني عني إلا كما تغني هذه الشعرة ، ففرق بيني وبينه ، فأخذت النبي ﷺ حمية ، فدعا بركانة وإخوته . . » الحديث^(٢) .

والحمية هنا المراد منها : الأنفة والغيرة^(٣) .

(١) المفردات ص (١٣٢) .

(٢) سنن أبي داود (٢/٢٥٩) كتاب الطلاق حديث رقم (٢١٩٦) .

(٣) النهاية في غريب الحديث (١/٤٤٧) ، لسان العرب (١٤/١٩٩) .

فتكون الحمية نوعان : محمود ومذموم .
فالمحمود : ما كان أنفة وغيره أن تنتهك محارم الله .
والمذموم : ما أضيف إلى الجهل ، كحمية الجاهلية التي لا
يراعى فيها حقوق الله .
فالقلوب لها أحوال بحسب متعلقها بالخير أو ضده ، فالقلوب
السليمة وإن اكتسبت صفة اشتركت مع غيرها ؛ فنجد في اللغة أن
هذه الصفة اكتسبتها مدحاً لا ذماً .

المبحث الخامس القلوب وتشتيتها

ومن خصائص القلوب المريضة أو الميتة التشتيت والتفرقة ،
بعكس القلوب السليمة التي اكتسبت بفعل الله الألفة والمودة ، وقد
نسب التشتيت للقلب في قوله تعالى : ﴿ نَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ
شَتَّىٰ ﴾ [الحشر : آية ١٤] .

والتشتيت : تفريق الشعب ، يُقال : جاؤوا أشتاتاً أي متفرقي
النظام^(١) .

قال البغوي في تفسير الآية : (قلوبهم متفرقة مختلفة ، قال
قتادة : أهل الباطل مختلفة أهواؤهم ، مختلفة شهادتهم ، مختلفة
أعمالهم ، وهم مجتمعون في عداوة أهل الحق ، وقال مجاهد :
أراد أن دين المنافقين يخالف دين اليهود)^(٢) .

وقال ابن كثير : (تراهم مجتمعين فتحسبهم مؤتلفين ، وهم
مختلفون غاية الاختلاف)^(٣) .

(١) المفردات ص (٢٥٥) .

(٢) معالم التنزيل (٣٥٠/٥) .

(٣) تفسير ابن كثير (٣٤٠/٤) .

وقال الزمخشري وغيره : (قلوبهم متفرقة لا إلفة بينها ، يعني أن بينهم إحناً وعداوات ، فلا يتعاضدون حق التعاضد ، ولا يرمون عن قوس واحدة ، وهذا تجسير للمؤمنين وتشجيع لقلوبهم على قتالهم)^(١) .

ولكن بشرط حب الآخرة والتفاني في إعلاء كلمة الله ، والتهيؤ بالشجاعة والقدرة ، وإلّا قذف الله في قلوبهم الوهن .

(١) الكشف (٨٣/٤) ، التفسير الكبير (٢٩٠/٢٩) ، البحر المحيط (٢٤٩/٨) .

المبحث السادس قذف الوهن في القلب

أخرج أبو داود في سننه من حديث ثوبان - رضي الله عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها ، فقال قائل : ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال : بل أنتم يومئذ كثير ، ولكنكم غثاء كغشاء السيل ، ولنزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم ، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن . فقال قائل : يا رسول الله ! وما الوهن ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت»^(١) .

والوهن : الضعف^(٢) .

(وحب الدنيا وكراهية الموت متلازمان ، فكأنهما شيء واحد ؛ يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين)^(٣) .

(١) سنن أبي داود (١١١/٤) كتاب الملاحم ، حديث رقم (٤٢٩٧) ،

وأخرجه أحمد بسنده في مسنده من حديث أبي هريرة (٣٥٩/٢) .

(٢) النهاية في غريب الحديث (٢٣٤/٥) .

(٣) عون المعبود (٤٠٥/١١) .

الفصل الثاني الكسب وأثره في القلب

- المبحث الأول : أنواع الكسب .
- المبحث الثاني : ضرب القلوب .
- المبحث الثالث : تشابه القلوب .

المبحث الأول أنواع الكسب

أسباب نعيم الدنيا والآخرة أو العكس ، عائد إلى ما اكتسبه الإنسان من خير أو شر ، فإن اكتسب خيراً اكتسب القلب مثله ! وتدرج في مدارج القلب ، وإن اكتسب العبد شراً ؛ اكتسب القلب حب المعصية وأشربها .

ونسب الكسب للقلب في قوله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٢٢٥] .

ونسب الكسب للنفس كما في قوله تعالى : ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : آية ٢٥] .
ونسب أيضاً للجراحة كقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مِمَّا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ [الروم : آية ٤١] .

كما نسب إلى مطلق الأمة في قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا نَسَبْتُمْ ﴾ [البقرة : آية ١٣٤] .

(وأصل الكسب طلب الرزق . قال سيويوه : كسب : أصاب ، واكتسب : تصرف واجتهد) .

قال ابن جني^(١) في قوله تعالى : ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ : عبّر عن الحسنه بكسبت ، وعن السيئة باكتسبت ، لأن معنى كسب دون معنى اكتسب ، لما فيه من الزيادة ، وذلك أن كسب الحسنه بالإضافة إلى اكتساب السيئة أمر يسير ومستصغر ، وذلك كقوله تعالى : ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام : آية ١٦٠] أفلا ترى أن الحسنه تصغر بإضافتها إلى جزائها ؛ ضعف الواحد إلى العشرة ؟ ولما كان جزاء السيئة إنما هو بمثلها لم تحتقر إلى الجزاء عنها ، فعلم بذلك قوة فعل السيئة على فعل الحسنه ، فإذا كان فعل السيئة ذاهبا بصاحبه إلى هذه الغاية البعيدة المترامية ؛ عظم قدرها ، وفخم لفظ العبارة عنها ، فقليل : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، فزيد في فعل السيئة وانتقص من لفظ فعل الحسنه^(٢) .

والكسب وإن كان في الأصل ما يتحراه الإنسان مما فيه اجتلاب نفع وتحصيل حظ ، ككسب المال ؛ فإنه قد يستعمل فيما يظن الإنسان أنه يجلب منفعة ثم يستجلب به مضرة ، فالكسب يُقال فيما أخذه لنفسه ولغيره ، والاكْتَسَاب لا يُقال إلا فيما استفاده لنفسه ، وكل اكتساب كسب ، وليس كل كسب اكتساب .
وقد ورد في القرآن في فعل الصالحات والسيئات .

(١) ابن جني : عثمان بن جني الموصلي أبو الفتح ، إمام في الأدب والنحو ، ت ٣٩٢ هـ ، الأعلام (٢٠٤/٤) .

(٢) لسان العرب (٧١٦/١) ، تاج العروس (٤٥٥/١) .

ففي الصالحات كقوله تعالى : ﴿ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾
[الأنعام : آية ١٥٨] .

وفي السيئات كقوله تعالى : ﴿ أَنْ تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ
[الأنعام : آية ٧٠] . والاكْتِسَابُ ورد فيهما أيضاً .

ففي الصالحات قال تعالى : ﴿ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا
أَكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ ﴾ [النساء : آية ٣٢] وقوله :
﴿ لَهُمَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : آية ٢٨٦] .

قيل : خص الكسب ها هنا بالصالح ، والاكْتِسَابُ بالسيء .
وقيل : عنى بالكسب ما يتحراه من المكاسب الأخروية ،
والاكْتِسَابُ ما يتحراه من المكاسب الدنيوية^(١) .

والخلاصة : أن الله أثبت للقلوب والنفوس قصداً وعزماً ،
على علم ومعرفة منها بما تقصده وتريده ، فما خرج منها من غير
قصد لا تحاسب عليه ؛ كلغو اليمين ، والذنوب التي لا تكون عن
إصرار القلب ؛ سيغفرها الله ، والله غفور رحيم .

وقد أوضح ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا
أَخْطَأْتُمْ بِهِ بَلْ كُنْتُمْ مَآ تَعْمَدُونَ قُلُوبِكُمْ ﴾ [الأحزاب : آية ٥] .

والعمد : ضد الخطأ وسائر الجنايات ، يُقال : تعمدت وتعمدت
له : أي قصده بجند ويقين^(٢) . فالعمد : قصد الشيء والاستناد

(١) بصائر ذوي التمييز (٤/٣٥٠) .

(٢) لسان العرب (٣/٣٠٢) ، بصائر ذوي التمييز (٤/٩٨) .

إليه ، والعمد والتعمد في التعارف خلاف السهو ، وهو المقصود
بالنية^(١) .

(١) المفردات ص (٣٤٦) .

المبحث الثاني ضرب القلوب

عندما نعود إلى مراجعة تنالي الذنوب على القلوب وكثرة الإفساد ؛ نجد أنه لا يقتصر ضرره على العاصي فقط ، بل يعم غيره ، فالكل معرض إلا مَنْ عصم الله ، ولا يظن أصحاب القلوب السليمة أنهم في مأمن من مهالك دركات المرض والموت القلبي ، لأنهم إن لم يأخذوا بيد ذوي القلوب السقيمة ؛ خلط الله قلوبهم بقلوب غيرهم ، وقست قلوبهم ، فقد حذر رسول الله ﷺ من ذلك ، فقال : «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل : كان الرجل يلقي الرجل فيقول : يا هذا ! اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض»^(١) .
ومعنى ضرب الله قلوب بعضهم ببعض : أي خلطها ، وقيل : أي سَوَّد الله قلب من لم يعص بشئ من عصى ، فصارت قلوب

(١) عون المعبود (٤٨٧/١١) كتاب الملاحم باب (١٧) ، وأخرجه الترمذي في تفسير سورة المائدة (٥ ، ٦ ، ٧) وقال : حسن غريب ، وأخرجه ابن ماجه في الفتن رقم (٢٠) .

جميعهم قاسية ، بعيدة عن قبول الحق والخير والرحمة ، بسبب المعاصي ومخالطة بعضهم بعضاً^(١) .

(١) عون المعبود (٤٨٧/١١) ، القاموس المحيط ص (١٣٨) . معنى ضرب الشيء بالشيء أي خلطه . وتكملة الحديث في سنن أبي داود : (ثم قال : ﴿لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم - إلى قوله - فاسقون﴾ ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ، ولتنهون عن المنكر ، ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً - زاد ابن مسعود في رواية : أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ثم ليلعنكم كما لعنهم) (٤/١٢١) .

المبحث الثالث تشابه القلوب

الحب في الله من علامات طهارة القلب وصلاحه ، فيقتضي أن يبعد هذا القلب عن تلك القلوب ، لأن جليس السوء له تأثير ، والقلوب إذا خلطت ببعضها تشابهت . والتشابه كما يكون في الخير يكون في ضده ، وقد ورد تشابه قلوب أهل المعاصي في قوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [البقرة : آية ١١٨] .

(وهي وردت في تشابه قلوب اليهود والنصارى في ارتكاب المعاصي وقلة معرفتهم بعظمة الله وجرأتهم على أنبيائه ورسله ، كما اشتبهت أقوالهم التي قالوها . ذكر ذلك الإمام الطبري)^(١) ، وبمثله قال أكثر أهل التفسير .

والشبهه : المثل ، وأشبهه الشيء بالشيء : ماثله ، وفي

(١) جامع البيان (١/٥١٤) ، التفسير الكبير (٤/٢٩) ، محاسن التأويل (٢/٢٤٠) .

المثل : من أشبه أباه فما ظلم^(١) .

والمهم أن أهل الضلال تتشابه أقوالهم وأفعالهم . بما تكنه قلوبهم من التعنت واقتراح الأباطيل واللجاج والعناد وطلب الباطل ، ولا مانع أن تتشابه قلوب أهل الهدى أيضاً ؛ في محبة الله وتقواه وعبادته ، والتراحم فيما بينهم ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، والله أعلم بقلوب عباده .

(١) لسان العرب (١٣/٥٠٣) .

الباب السادس القلب والمعرفة

- الفصل الأول : مكانة القلب من الأعضاء وارتباط التعقل به .
- الفصل الثاني : المعارف المباشرة للقلب .

الفصل الأول

مكانة القلب من الأعضاء وارتباط التعقل به

- المبحث الأول : تمهيد عن مقر العقل .
- المبحث الثاني : أهمية القلب .
- المبحث الثالث : التعقل عمل من أعمال القلب .
- المبحث الرابع : تعريف الفهم .
- المبحث الخامس : النظر الصحيح أول مراتب المعرفة .
- المبحث السادس : تدرج رقي المعرفة .
- المبحث السابع : رعاية أحوال القلب أهم من رعاية غيره .
- المبحث الثامن : مكانة الخشية .
- المبحث التاسع : مكانة السمع وتعريفه .
- المبحث العاشر : النظر وأقسامه .

المبحث الأول تمهيد عن مقر العقل

أين مقر العقل ؟ وما الفرق بينه وبين الفكر والنظر ؟ .
سؤال لا بد أن يطرقه من أراد أن يتحدث عن المعرفة ، وقد
أجاب شيخ الإسلام ابن تيمية عن هذا السؤال فقال :
(العقل قائم بنفس الإنسان التي تعقل ، وأما من البدن : فهو
متعلق بقلبه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَهُمْ
قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

وقيل لابن عباس - رضي الله عنه - : بماذا نلت العلم ؟ قال :
بلسان سؤول ، وقلب عقول .

لكن لفظ القلب قد يُراد به المضغّة الصنوبرية الشكل التي في
الجانب الأيسر من البدن ، التي جوفها علقة سوداء ، كما في
الصحيحين عن النبي ﷺ : «إن في الجسد مضغّة إذا صلحت صلح
لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد»^(١) .

(١) صحيح البخاري بشرحه فتح الباري (١/١٢٦) كتاب الإيمان باب
(٣٩) ، من حديث النعمان بن بشير يقول : سمعت رسول الله ﷺ =

وقد يراد بالقلب باطن الإنسان مطلقاً ، فإن قلب الشيء باطنه ، كقلب الحنطة واللوزة والجوزة ونحو ذلك ، وقد سمي القلب قليلاً لأنه أخرج قلبه ، وهو باطنه . وعلى هذا ، فإذا أريد بالقلب هذا ؛ فالعقل متعلق بدماعه أيضاً .

ولهذا قيل : إن العقل في الدماغ كما يقول كثير من الأطباء ، ونقل ذلك عن الإمام أحمد . ويقول طائفة من أصحابه : إن أصل العقل في القلب ، فإذا كمل انتهى إلى الدماغ . لكن مبدأ الفكر والنظر في الدماغ ، ومبدأ الإرادة في القلب ، والعقل يراد به العلم ويراد به العمل ، فالعلم والعمل الاختياري أصله الإرادة ، وأصل الإرادة في القلب ، والمريد لا يكون مريداً إلا بعد تصور المراد ، فلا بد أن يكون القلب متصوراً ، فيكون منه هذا وهذا^(١) .

فسيد الأعضاء ورأسها هو القلب ؛ كما صرح به رسول الله ﷺ في الحديث : «إن في الجسد مضغة» ، فهو أمير البدن ، وبصلاح الأمير تصلح الرعية ، وبفساده تفسد . وقال ابن حجر : (يستدل من الحديث على أن العقل في القلب)^(٢) .

= يقول : «الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى المشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه . ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا إن حمى الله في أرضه محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسد فسد الجسد كله ؛ ألا وهي القلب» .

(١) مجموع الفتاوى (٣٠٣/٩) .

(٢) فتح الباري (١٢٩/١) .

والحق تبارك وتعالى نسب التعقل للقلب فقال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : آية ٤٦] .
وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق : آية ٣٧] .

والحق تبارك وتعالى أنزل القرآن على أشرف الأعضاء وهو القلب ، قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَيَّ قَلْبًا ﴾ [البقرة : آية ٩٧] .

وقال تعالى : ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحَ الْأَمِينَ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : آية ١٩٣ - ١٩٤] .

ولا يعقل إلا القلب الحي ، فهو الذي يعي من الحق ما أمر به ، فالقلب آلة التعقل والتدبر ، ومحل الإرادة والاعتبار ، ومحل العلم ، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين^(١) . وقيل : الدماغ محل العلم .

ولا يبعد أن يكون بين الدماغ والقلب رابطة معنوية ، ومعرفة حقيقة تلك الرابطة لا يعلمها إلا الله .

(١) تفسير الطبري (٤٣٦/١) ، (١١٢/١٩) ، (١٧٧/٢٦) ، تفسير ابن كثير (٢٢٧/٣) ، التفسير الكبير (٤٥/٢٣) ، (١٦٧/٢٤) ، تفسير القرطبي (٧٧/١٢) .

المبحث الثاني أهمية القلب

القلب هو المخاطب والمقصود بإلزام الحجة ؛ لأنه موضع التمييز والاختيار ، وأما سائر الأعضاء فمسخرة له بإذن الله ، والدليل على أنه موضع التمييز والاختيار ؛ أن الله ذكر استحقاق الجزاء على كسب القلوب ، كما في قوله تعالى :

﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبِكُمْ ﴾ [البقرة : آية ٢٢٥] .

كما أن الله ألزم الحجة على وسائل الإدراك وهي السمع والبصر والفؤاد .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : آية ٣٦] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعَادَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل : آية ٧٨] .

ومن المعلوم أن السمع والبصر لا يستفاد منهما إلا بما يؤديانه إلى الفؤاد ، والفؤاد باطن القلب ولبه ، فكأن السؤال عنهما في الحقيقة سؤال عن القلب .

المبحث الثالث التعقل عمل من أعمال القلب

مما سبق يتضح أن التعقل عمل من أعمال القلب ، فالخطاب موجه إليه لتقوم به الحجة ، فلا يعرف بحال من الأحوال إلا بأفعاله ، فهو نور في القلب كالنور في العين ، يولد مع الإنسان ويزيد بالتعليم والاطلاع ، حتى يكون حجة لازمة للعبد .

قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾

[فصلت : آية ١٧] .

فالله بين لهم ما يعقلوه بقلوبهم إن تدبروا ذلك ، فاستحبوا الضلالة . فالله خاطب العباد من قبل ألبابهم ، واحتج عليهم بما ركب فيها من عقولهم .

كما قال تعالى : ﴿ وَأَتَقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : آية

[١٩٧] .

وفي مثل قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [آل

عمران : آية ٧] وغيرها من الآيات . فإذا أخذ معنى العقل على اللغة ؛ فالمراد به الفهم أو مطلق المعرفة . فهو أمر مشترك بين أهل

الهدى وأهل الضلال ، وبين المطيع والعاصي ، وهو فهم البيان ،
كما قال تعالى عن أهل الكتاب ﴿ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ
مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : آية ٧٥] قال ابن
كثير : أي من بعد ما فهموه على الجلية ، ومع هذا يخالفونه على
بصيرة^(١) .

وقال تعالى : ﴿ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾ [البقرة : آية

[١٤٦] .

فهذا فهم وبيان يشترك فيه المؤمن وغيره ، ويسمى عقلاً ،
فهؤلاء الكفار (لديهم التحقق والإتقان العلمي)^(٢) على صدق رسول
الله في نبوته ، ومع هذا جحدوا هذه المعرفة ، وأنكروا هذا الفهم .

(١) تفسير ابن كثير (١/١١٥) .

(٢) ابن كثير (١/١٩٤) .

المبحث الرابع تعريف الفهم

والفهم (هيئة للإنسان بها يتحقق معاني ما يحسن)^(١) . وله مراتب : أدناه الغريزة والملكة الفطرية في العبد ، وهو القدر المشترك بين الجميع . وأعلاه : ما كان عن طريق الوحي ، لخصوصية العبد ، كقوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء : آية ٧٩] .

وهذا الفهم تسميه العرب عقلاً^(٢) .

فإذا اجتمع مع الفهم نور البصيرة والمعرفة ، بتعظيم قدرة الله في الحال والمآل ، لعظيم إحسانه وقدرته وعقابه ، معتنياً بطلب العلم النافع ، راغباً في الفهم الصحيح ، عاقلاً عن الله في كل ما جاء به ، ملتزماً بأدابه ، مجتنباً لنواهيه ؛ فهذا هو العاقل .

ولا يلتزم بهذه المحاسن ؛ إلا عبد آمن وازداد إيماناً ، فيرتقي قلبه بزيادة إيمانه ، ويرتقي تعقله بنور قلبه .

(١) المفردات ص (٣٨٦) .

(٢) القاموس المحيط ص (١٣٣٦) .

أما من زال عن ذلك ومعه غريزة العقل التي يفرق بها بين العقلاء والمجانين ؛ فهو فاهم لما جاء من عند الله ، ولكنه ينكر هذا الفهم .

فقال تعالى عن الصنف الأول : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾ [العنكبوت : آية ٤٣] ، وكقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الرعد : آية ٤] .
وقال عن الصنف الآخر : ﴿ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾ [البقرة : آية ٧٥] ، وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : آية ٤٦] .
وهؤلاء قال الله في وصفهم : ﴿ إِنَّهُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَكِيلًا ﴾ [الفرقان : آية ٤٤] .

ومع هذا قال الحق عنهم : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم : آية ٧] .

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - في معنى الآية : يعني معاشهم : متى يحصدون ، ومتى يزرعون ، ومتى يغرسون .
وروي عنه أنه قال : المراد : الكفار ؛ يعرفون عمران الدنيا ، وهم في أمر الدين جهال^(١) .
وقال الحسن البصري رحمه الله : والله ليبلغ من أحدهم

(١) تفسير الطبري (٢٢/٢١) .

بدنياه ، أنه يقلب الدرهم على ظفره فيخبرك بوزنه ، وما يحسن أن يصلي^(١) .

أقسام الناس بالنسبة للعقل :

الحارث المحاسبي^(٢) قسّم الناس إلى فرق نذكرها باختصار :
فرقة عقلت عن الله عظم قدره وقدرته ، وما وعد وتوعد ؛ فأطاعت وخشعت .

وفرقة عقلت البيان ثم جحدت ، كبيراً وعناداً ؛ لطلب الدنيا ، كإبليس : تكبر وعاند كبيراً ، وكذلك اليهود الذين قال الله في حقهم : ﴿ لَيَكْفُرُنَّ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : آية ١٤٦] .

وثالثة عقلت قدر الله عز وجل في تدبيره وتفردته بالصنع ، وعرفت قدر الإيمان في النجاة بالتمسك به ، وقدر العقاب في ضرره في مجانبة الإيمان ، فأقرت وآمنت ، ولم تعقل عظيم قدر ثوابه وعقابه في إتيان معاصيه والقيام بفرائضه ؛ فعصت وضيعت وغفلت ونسيت ، إلا أنها علمت عظيم قدر الإيمان في النجاة وعظيم ضرر الكفر ، قد عقلته عن الله تعالى ، فهي قائمة به دائمة عليه^(٣) .

وعلى هذا التقسيم ؛ فالفرق التي عقلت بيان الله وآياته الكونية فأقرت وآمنت ، سواء عقلت عظيم ثوابه فأطاعت وخشعت ، أو لم تعقل عظيم عقابه فعصت وضيعت ؛ هؤلاء هم الذين نطلق عليهم لقب عقلاء .

(١) تفسير ابن كثير (٤٢٧/٣) .

(٢) الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله - من أكابر الصوفية - توفي ٢٤٣ هـ - صفة الصفة (٢/ ٣٦٧) .

(٣) العقل وفهم القرآن ص (٢١٤ - ٢١٦) بتصرف/ الحارث بن أسد المحاسبي .

والفرق التي جحدت كبراً وعناداً أو قلّدت فعميت عن الحق ،
فلديهم الفهم الغريزي الذي تسميه العرب عقلاً : لتفريقهم بين
العقلاء والمجانين ، وبهذا الفهم والإدراك يكون حسابهم وتلزمهم
الحجة .

تعريف العاقل وأقسام العقل :

وفي الإحياء : (العاقل من أطاع الله وإن كان ذميم المنظر ،
حقير الخطر ، ذني المنزلة ، رث الهيئة . وإن الجاهل من عصى
الله تعالى وإن كان جميل المنظر ، عظيم الخطر . شريف المنزلة ،
حسن الهيئة ، فصيحاً نطوقاً ، فالقردة والخنازير أعقل عند الله ممن
عصاه) (١) .

فالمدار مدار إيمان ، ورقي إيمان من مرتبة خشوع القلب
حتى نهاية مراتبه ، فبداية التعقل بداية يقظة القلب بإلقاء نور
الإسلام فيه ، أي بانسراح الصدر . وأرجح الناس عقلاً وأفضلهم
رأياً ؛ خاتم الأنبياء محمد رسول الله ﷺ ، فعقول الناس عند عقله
كقطرة ماء في بحر لحي .

وعلى هذا فمن الممكن أن نعرّف العقل فنقول : العقل
نوعان :

الأول : عقل الطبع والفطرة ، وهذا لعموم بين الإنسان ،
وهو الذي قال عنه ذوو الاختصاص بالطب بأن مركزه المخ أو بينه
وبين القلب ترابط . ونوافق ذوي الاختصاص بالطب فيما قالوه عن
مقره ، إن ثبت صحة الاستدلال لديهم عن مقره . ولم يسلبه الله من
الكافرين فقال تعالى : ﴿ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ

(١) إحياء علوم الدين (١/١٤١) .

مَا عَقَلُوهُ ﴿ [البقرة : آية ٧٥] .

والثاني : نور الإيمان في القلب ، وهذا مقصور على المؤمن ؛ يزداد برقيته في درجات الإيمان ، ومسلوب عن الكافرين بدلالة قوله تعالى : ﴿ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ﴾ [الحج : آية ٤٦] .

فالقلب كما أسلفنا من خصائصه التعقل وعمل من أعماله ، ولكن قبل نور الإيمان فهو مجرد معرفة قاصرة عن رسم منهج لحياة الإنسان ؛ تحقق الحياة التي يريدتها الله أو تصل إلى الهدى . لهذا بعث الله الرسل ، وبدون الرسل لا يؤخذ الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء : آية ١٥] ، وفي مثل قوله تعالى : ﴿ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : آية ١٦٥] .

فأول حياة القلب وبداية تيقظ العقل الامتثال لما جاءت به الرسل . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنفال : آية ٢٤] .

فالرسالة من الله على لسان رسوله ؛ توقظ العقل وتوجهه ، وتقيم له منهج النظر الصحيح ، وترفع عنه وعن الفطرة ركام الشهوات المضلة .

المبحث الخامس النظر الصحيح أول مراتب المعرفة

وأول يقظة القلب الرؤية الصحيحة بالنظر الموصل إلى المعرفة ، لهذا نجد أكثر السور المكية فيها التوجيه للرؤية المنهجية ، فقد تكرر فيها كثيراً قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا ﴾ في نطاق ما يشاهده الإنسان العادي . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [الشعراء : آية ٧] ، وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا آلِثَلَّ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾ [النمل : آية ٨٦] .

وغيرها من الآيات على هذا النسق التي تتحدث عن الطير مسخرات في جو السماء ، وعن النبات ، وعن الليل والنهار ، وعن بسط الرزق والمطر والأنعام .

وهذه الآيات تدل على أن القلب قادر على التلقي وإدراك المدلولات ، فهذه وظيفته وفرصته في النور والهداية .

فالقلب بمصاحبة وحي الله وهداه بصير ، وبتكذيب وحي الله أعمى ، إذ فيه أجهزة استقبال ولكنها أجهزة قاصرة ، وإن كانت

تهديه إلى الأصل الأول أن له إلهاً ؛ ولكن لا تتعدى أكثر من ذلك ،
والكمال الفطري كان مع أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام ؛ إذ بنور
الفطرة والنظر الصحيح في المشاهدة العادية للكون ، استدل على
أن الخالق لا شريك ولا ند له .

قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَذَا
رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا
رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا
رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَنْقُومِ
إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿ [الأنعام: آية ٧٥ -
٧٩] فقد استدل بمحض فطرته إلى معرفة الله .

العقل وسيلة من وسائل الإدراك :

والعقل السوي جزء من الفطرة السوية ، مثله مثل بقية وسائل
الإدراك الأخر ، كالسمع والبصر ، ولولا ما أودع الله فيها من قابلية
السمع لكانت وسيلة قاصرة . وبدون الإيمان في القلب ؛ يكون
تعقله وسيلة قاصرة محدودة في مسار الرقي الدنيوي ، بما أودع فيه
من غريزة التعقل .

أما إذا غمره الإيمان فسيظهر نور العقل ، وعلى سبيل المثال
توضح ما يعمله الإيمان في القلب ؛ قصة الصحابية : الخنساء بنت

عمرو بن الشريد ، عندما قتل أخوها لأبيها صخر ؛ أكثر من الشعر في رثاه ، وملأت الدنيا بكاء وعويلًا ، وبعد ذلك أسلمت ، وجاء لها خبر أبنائها الأربعة في معركة القادسية ؛ إذ استشهدوا في المعركة . كان هذا أخاها وهؤلاء أولادها ، وكان أخوها واحد وهؤلاء أربعة . فماذا قالت ؟ :

قالت : (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته)^(١) .

فعندما عقل القلب استسلم واطمأن .

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٦٧/٨) .

المبحث السادس تدرج رقي المعرفة

فالمعرفة إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره ، وهو أخص من العلم ، ويضاده الإنكار ، ويُقال : فلان يعرف الله ، ولا يُقال يعلم الله^(١) . وبين المبدأ والكمال يظهر تفاوت المعرفة .

فمن عرف الإسلام وأسلم ، لكن سيئاته رجحت على حسناته ، أي بمعنى أنه لم يلتزم بشرائع الله كاملة ، ولم يأخذ بأسباب حياة القلوب ؛ فالنور في قلبه ضئيل ، وما دامت المعرفة فعل العقل ، والتعقل من أفعال القلوب المؤمنة ، فلديه معرفة محدودة لأنه عقل أن الإسلام ينجيه من الخلود في النار ، لكن نظراً لأن تعقله ومعرفته بالله على قدر إيمانه ، وإيمانه ضعيف ، لذا لم تكن له المعرفة الكاملة التي تمنعه عن معصية الله عزّ وجلّ .

وآخر عرف الإسلام وأسلم ، ولكن استوت حسناته وسيئاته ، أي خلط عملاً سيئاً بعمل حسن ، واستويا عند ذلك ، لأنه أطاع الله تعالى على قدر معرفته به تعالى ، ووقع في بعض المعاصي ؛ لأن معرفته به تعالى لم ترتق إلى الدرجة التي توصله للتقوى المانعة له

(١) المفردات ص (٣٣١) .

من الوقوع في المعاصي . ومن ثمَّ نقول عن أمثال هذا إنه أطاع الله بقدر معرفته به ، وعصاه بقدر جهله به ، فهؤلاء لم يدخل الإيمان قلوبهم بعد ؛ لأن الاستقرار في القلب تمكين ، وقد يشملهم قول رسول الله ﷺ : «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ..» الحديث^(١) . وفي رواية عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - : «يا معشر من أسلم ولم يفض الإيمان إلى قلبه ، فالمعرفة على قدر الإيمان .

قال المحاسبي : واعلم أن ما يصل العبد إليه من الفهم ، بقدر تقديم عقله وموجود علمه ؛ بتقواه لله وطاعته ، فمن وهب الله له العقل ، وأحياه بالعلم بعد الإيمان ، وبصره باليقين عيوب نفسه ؛ فقد نظمت له خصال البر^(٢) .

فزيادة المعرفة بزيادة التدرج في سلم الإيمان . فمن أدى فرائض الله وترك ما حرم الله ، مقتصرًا على ذلك لا يزيد عليه ولا ينقص منه ؛ فهذا هو المؤمن الذي عقل عن الله ما جاء به ، وهو من المفلحين ، فهم عن الله وعده بتكفير السيئات ؛ إذا أدى فرائضه واجتنب ما نهى الله عنه ، كما قال تعالى : ﴿ إِن جَحَّتْ نُبُوءًا كَبِيرًا

(١) سنن أبي داود رقم (٤٨٨٠) في الأدب باب الغيبة ، ونصه عن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من اتبع عوراتهم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه في بيته ، وهو حديث صحيح ، ورواه أحمد في مسنده (٤٢١/٤) ورواية عبد الله بن عمر في جامع الأصول (٦٥٣/٦) .

(٢) رسالة المسترشدين ص (٩٣ - ٩٤) الحارث بن أسد المحاسبي ، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة .

مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ مُكْفِرٌ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلُكُمْ مُدْخَلًا
كَرِيمًا ﴿ [النساء : آية ٣١] وعقل عن رسول الله ﷺ أن الصلوات
الخمسة ، ورمضان إلى رمضان ، والجمعة إلى الجمعة ؛ مكفرات
لما بينهن ، ما لم يغش كبيرة .

أعمال الخير دليل على ترقى الفهم :

تظهر زيادة التعقل بزيادة القصد لأعمال الخير ، فمن فتح الله
له باباً من أبواب الخير ولكنه اقتصره على نفسه : كالصلاة والحج
والعمرة والصيام وقراءة القرآن ونحوها ، مضافة إلى أداء الفرائض
 واجتناب النواهي ، فقد أفلح وترقى فهمه ، فإن صاحبه خشوع وهو
أول مراتب تنوير القلب ، لا بد أن يصاحب ذلك تنوير العقل
ورقيه ، فزيادة الحب من الله للعبد بزيادة التقرب إليه بالنوافل بعد
الفرائض ، كما في الحديث الصحيح : «عن أبي هريرة - رضي الله
عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله قال : من عادى لي ولياً فقد
أذنته بالحرب ، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته
عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته
كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي
يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، وإن سألني لأعطينه ، ولئن
استعاذ بي لأعيذنه»^(١) .

فمن فتح الله عليه أبواب الخير فأثر الصدقة والإحسان ، وسار
في قضاء حوائج الناس والصلح بينهم ، ودفع الأضرار عنهم ؛ فهو

(١) فتح الباري (٣٤١/١١) كتاب الرقاق ، باب التواضع ، حديث رقم
(٦٥٠٢) .

لم يؤثر الخير لنفسه بل تعداه للآخرين ، فهذا عقل أموراً منها على سبيل المثال :

عقل معنى القرض بينه وبين الله في قوله تعالى : ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللهَ قرضاً حسناً فيضعفه له وله أجرٌ كبيرٌ ﴾ [الحديد : آية ١١] كما عقل معنى أن يكون حسناً ، فأخرجه بطيب نفس طلباً لمرضاة الله من طيب ماله بدون من ، ولا أذى ، كما أنه استحضر في ذهنه الحبة التي دفنت في الأرض فأنبتت سبع سنابل ، كما قال تعالى : ﴿ مثلُ الذين يُنفقونَ أموالهم في سبيلِ اللهِ كمثلِ حبةٍ أنبَتت سبعَ سنابلٍ في كلِّ سُنبلةٍ مائةُ حبةٍ واللهُ يُضعفُ لمن يشاءُ واللهُ واسعٌ عليهِم ﴾ [البقرة : آية ٢٦١] . فقد نظر بقلبه كما تنظر العين إلى هذه السنابل ، فجمع بين المشاهد بالعيان والمشاهد بالإيمان بما جاء به القرآن ، فتسخو نفسه وبالسخاء تصفو .

ومنها أنه فقه عن الله تعالى أن قول المعروف أفضل من الصدقة التي يتبعها أذى ، كما قال تعالى : ﴿ قولٌ معروفٌ ومغفرةٌ خيرٌ من صدقةٍ يتبعها أذىً واللهُ غنيٌ حلِيمٌ ﴾ [البقرة : آية ٢٦٣] .

وفهم أن هناك في الآية حستين مستلزمة لبعضها ، فحسن الخلق والعفو مترابطان ، ولا يعرف الأول إلا بالثاني ، والآخر يدل على الأول ، ولا يصل إلى هذا إلا بالتفكير . وكلما ازداد تدرجاً في حياة القلب ومراتبه ؛ استنبط معاني أدق ، وفهم مراد الله من كلامه . والأمثلة على هذا كثيرة اقتصرنا على بعض منها .

فإذا ارتقى العبد في إيمانه ، ورجح الهدى على الهوى ،

والآخرة على الأولى ، وعقد مع الله عقداً أن يبيع نفسه وماله لله مقابل عوض وهو الجنة ، وفهم مراد الله من قوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقْنِلُونَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْنِلُونَ وَيَقْنِلُونَ وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْبَةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : آية ١١١] فهذا أرجح عقلاً ، وأبين معرفة ممن قبله .

قال الإمام الرازي : (هذا البدن يجري مجرى الآلة والأدوات والمركب ، وكذلك المال خلق وسيلة إلى رعاية مصالح هذا المركب ، فالحق سبحانه اشترى من الإنسان هذا المركب وهذا المال بالجنة ، لأن الإنسان ما دام يبقى متعلق القلب بمصالح عالم الجسم المتغير المتبدل وهو البدن والمال ؛ امتنع وصوله إلى السعادات العالية والدرجات الشريفة ، فإذا انقطع التفاته إليها وبلغ ذلك الانقطاع إلى أن عرض البدن للقتل ، والمال للإنفاق في طلب رضوان الله ، فقد بلغ إلى حيث رجح الهدى على الهوى ، والمولى على الدنيا ، والآخرة على الأولى ، فعند هذا يكون من السعداء الأبرار والأفاضل الأخيار^(١) .

وهذه المكانة يبلغها من اتصف ببعض صفات كلها تدل على كمال التعقل ، فقال تعالى عنهم في الآية التي تلي السابقة : ﴿ التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُخْلِصُونَ

(١) التفسير الكبير (١٦/٢٠٠) .

الرَّكَعُونَ السَّاجِدُونَ الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ
عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿ [التوبة:
آية ١١٢] .

المبحث السابع رعاية أحوال القلب أهم من رعاية غيره

وهذه الأمور التسعة وإن كانت أعمال الجوارح ؛ إلا أن المقصود منها ظهور أحوال القلوب ، لأن رعاية أحوال القلب أهم من رعاية أحوال الظاهر . فإذا استنار القلب بالتوبة والعبادة وكثرة الركوع والسجود ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وحافظ على حدود الله ؛ فهذا دليل على زيادة إيمانه وتيقظ قلبه مع الله تعالى ، فتزداد معرفته بزيادة قربه .

قال الحسن البصري رحمه الله : مرّ أعرابي على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ فقال : كلام من هذا ؟ قال : كلام الله ، قال : بيعُ والله مريح ، لا نقيه ولا نستقيه . فخرج إلى الغزو واستشهد^(١) .

فهذا الأعرابي ارتقى إيمانه بمجرد سماعه كلام الحق من حبيب الخلق ، فأقسم على ربح هذا البيع حين لصقت هذه الكلمات بقلبه وجذبتة إليها ، فأشرق في قلبه نور الإيمان ، وارتقى

(١) تفسير القرطبي (٢٦٨/٨) .

تعقله فلم يضمن بنفسه في سبيل الله تعالى ، لمعرفة بما بعدها وما يترتب عليها معرفة يقين .

ثم هناك فئة أخرى أعلي في المعرفة مما قبلها ، استحققت ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله ، ازداد فيها نور الإيمان في القلب ، فعقلت عن الله بيانه ، فكان للقلب دور في السيطرة على الأعضاء ، فانقادت طائفة ملبية لأمر الله فيه .

ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه»^(١) .

وقال ابن حجر : إن العدد المذكور لا مفهوم له ، فقد وردت أحاديث صحيحة أخر فيمن يظلهم الله تحت ظل عرشه غير هؤلاء السبعة .

والعادل هو الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير أفراط ولا تفريط^(٢) . والعدل من صفات النبوة ، قال تعالى : ﴿ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [الشورى : آية ١٥] .

وكمال العقل والمعرفة لدى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ،

(١) صحيح البخاري : كتاب الأذان باب (٣٦) انظر فتح الباري (٢/١٤٣) .

(٢) فتح الباري (٢/١٤٥) .

فمن اتصف ببعض ما وصفهم الله ؛ دلّ على علو إيمانه ويقظة قلبه وفطنته .

والشباب مظنة غلبة الشهوة ، فملازمة العبادة منه مع غلبة الشهوة يدل على غلبة التقوى ، والتقوى من المراتب العليا في حياة القلوب ، وملازمة المساجد وتعلق القلب بها دليل على حبها .
وكذلك الحب في الله والخوف من الله ، والصدقة الخفية يريد بها القرب من الله .

المبحث الثامن مكانة الخشية

والخشية معرفة . ولا تدمع العين إثر ذكر الله إلا من قلب عامر بالإيمان .

قال ابن حجر : (ففي حال أوصاف الجلال ؛ يكون البكاء من خشية الله ، وفي حال أوصاف الجمال ؛ يكون البكاء من الشوق إليه)^(١) .

ولا يبلغ هذه المرتبة إلا بالمعرفة الصادقة ، والعلم النافع والصلاح التام ، الذي يرضاه الله ورسوله . ومن الممكن أن نطلق على أهل هذه الفئة الصالحة : (هم الذين لا يدخل في علمهم بالله تعالى ، ولا إيمانهم به وبما جاء من عنده سبحانه ؛ خلل)^(٢) .

وذلك تمشياً مع قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء : آية ٦٩] .

(١) فتح الباري (٢/١٤٧) .

(٢) روح المعاني (٥/٧٧) .

والمراد بالشهداء في الآية ؛ أعم من أن يكون شهيد معركة بين الكفار والمسلمين .

ففي الحديث الصحيح : «الشهداء خمسة : المطعون والمبطون والغرق وصاحب الهدم ، والشهيد في سبيل الله»^(١) .

وقال ابن حجر في شرح الحديث : (وقد اجتمع لنا من الطرق الجيدة أكثر من عشرين خصلة) أي أنواع الشهداء عشرون ، بالطرق الجيدة صحيحة أو حسنة . والمهم أن هذه المرتبة في المعرفة تشمل العلماء العاملين ، وأن الله لم يأمر نبيه ﷺ بطلب الازدياد من شيء إلا من العلم ، فقال تعالى : ﴿ فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : آية ١١٤] . أي زدني منك علماً^(٢) .

والعلماء متفاوتون في العلم فرب مبلغ أوعى من سامع . كما قال رسول الله ﷺ : «فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له

(١) صحيح الإمام البخاري : كتاب الجهاد ، باب : الشهادة سبع سوى القتل . انظر فتح الباري (٤٢/٦) .

وأنواع الشهداء عددهم ابن حجر كما يلي : (المطعون ، المبطون ، الغريق ، صاحب الهدم ، المقتول في سبيل الله ، الحريق ، صاحب ذات الجنب ، المرأة تموت بجمع ، السل ، من قتل دون ماله ، من قتل دون دينه ، دون دمه ، دون أهله ، دون مظلّمته ، من وقصه فرسه أو بغيره ، من لدغته هامة أو مات على فراشه على أيّ حثف شاء الله تعالى ، موت الغريب ، المرابط في سبيل الله ، والذي يفرسه السبع) .

(٢) تفسير ابن كثير (١٦٧/٣) .

فقد يأتي في الآخرين من يكون أفهم ممن تقدموه ، وكلهم خير ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، والعلماء ربانيون ، كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - : (كونوا ربانيين حلماء فقهاء . ويُقال : الرباني : الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره كما قال الإمام البخاري في تفسيره لهذا القول (٢) .

زيادة الفهم بزيادة الايمان :

لا يؤتى العلم إلا من قبيل الفهم ، والفهم : فطنة يفهم بها صاحبها من الكلام ما يقترن به من قول أو فعل ، ففي حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - : «أن رسول الله ﷺ جلس على المنبر فقال : إن عبداً خيره الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده ، فاختار ما عنده ، فبكى أبو بكر وقال : فدينك بآبائنا وأمهاتنا . فعجبنا له . وقال الناس : انظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد خيره الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول : فدينك بآبائنا وأمهاتنا ، فكان رسول الله ﷺ هو المخير وكان أبو بكر هو أعلمنا به» (٣) .

فأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - بزيادة إيمانه فهم خطاب المصطفى أكثر من فهم غيره من الصحابة رضوان الله عنهم أجمعين ، وهذه مرتبة الصديقة أعلى من مرتبة الشهداء

(١) صحيح الإمام البخاري : كتاب العلم باب (٩) انظر فتح الباري (١٥٨/١) .

(٢) فتح الباري (١٦٠/١) كتاب العلم باب (١٠) .

(٣) صحيح البخاري : كتاب مناقب الأنصار باب (٤٥) وانظر فتح الباري (٢٢٧/٧) ، سنن الترمذي (٦٠٦/٥) كتاب المناقب باب (١٥) .

والصالحين ، فقد قرنهم الله في كتابه بالأنبياء في قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ ﴾ [النساء : آية ١٣] .

فهؤلاء راسخون في العلم هم خلفاء رسول الله وخاصته ، ذوي الإيمان التام الذي يستلزم العلم والعمل والدعوة إلى الله بالتعليم والصبر عليه .

قال ابن القيم رحمه الله : (وهم كانوا السبب في وصول الإسلام إلينا ، وفي تعليم كل خير وهدى وسبب تنال به السعادة والنجاة ، وهم أعدل الأمة فيما ولّوه ، وأعظمها جهاداً في سبيل الله . والأمة في آثار علمهم وعدلهم وجهادهم إلى يوم القيامة ، فلا ينال أحد مسألة علم نافع إلا على أيديهم ومن طريقهم ينالها ، ولا يسكن بقعة من الأرض آمناً إلا بسبب جهادهم وفتوحهم ، ولا يحكم إمام ولا حاكم بعدل وهدى إلا كانوا هم السبب في وصوله إليه . فهم الذين فتحوا البلاد بالسيف ، والقلوب بالإيمان وعمروا البلاد بالعدل ، والقلوب بالعلم والهدى ، فلهم من الأجر بقدر أجور الأمة إلى يوم القيامة مضافاً إلى أجر أعمالهم التي اختصوا بها)^(١) .

مراتب الأنبياء في المعرفة :

ثم يرتقي العلم والمعرفة بالطاعة الكاملة التامة فيبلغ مداه ومنتهاه عند سادات البشر ، عند أنبياء الله ، فيشتركون مع غيرهم في العلم النظري والعملي والتفكير والتدبر ، ويتميزون بعلم من لدن الله بواسطة الوحي ، وهم ثلاث مراتب في المعرفة :

(١) طريق الهجرتين ص (٣٦٢) شمس الدين محمد ابن قيم الجوزية .

الأول : نبوة دون الرسالة ، فاشتركوا مع الرسل في الوحي ونزول الملائكة عليهم .

الثاني : رسل الله ، على مراتبهم من تفضيلهم بعضهم لبعض .

الثالث : أولو العزم من الرسل : وهم الطبقة العليا من الخلائق .

فهؤلاء المصطفون اختصهم الله بوحيه ، وجعلهم أمناء على رسالته ، وخصهم بأنواع كراماته ، فمنهم خليل الله ومنهم كليم الله ، ومنهم من رفعه الله مكاناً علياً ، خصهم الله بكمال العلم ، فخير الدنيا والآخرة إنما ناله العباد على أيديهم ، وبهم عرف المؤمنون ربهم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا ، وبهم عبد وأطيع ، أعطاهم كمال النور في قلوبهم وكمال النور يقتضي كمال الإيمان ، وكمال الإيمان يقتضي كمال العقل ، وكمال العقل ينبىء عن كمال العلم والمعرفة ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور : آية ٤٠] .

خصوصيات المعرفة :

الفهم والمعرفة تزيد بزيادة نور الإيمان في القلب ، وقد يكون في الطبقة الواحدة من هو أعلم من غيره ، ولا يدل ذلك على زيادة إيمانه عنهم ، بل لخصوصية اختصاصه الله بها ، أو اختصاصه بها رسول الله ﷺ كابن عباس - رضي الله عنه - دعا له رسول الله ﷺ أن يزيده فهماً وعلماً ، كما في الحديث الصحيح عن ابن عباس قال : ضمنني رسول الله ﷺ وقال : «اللهم علمه الكتاب»^(١) وفي رواية

(١) صحيح البخاري كتاب العلم ، باب (١٧) ، فتح الباري (١/١٦٩) .

«اللَّهُمَّ علمه الحكمة»^(١) .

وقال ابن حجر في شرحه للحديث : (والمراد بالتعليم : ما هو أعم من حفظه والتفهم فيه) .

(وكذلك الحكمة : اختلف الشراح في المراد بها هنا ، فقيل : القرآن ، وقيل : العمل به ، وقيل : السنة ، وقيل : الإصابة في القول ، وقيل : الخشية ، وقيل : الفهم عن الله ، وقيل : العقل ، وقيل : ما يشهد العقل بصحته ، وقيل : نور يفرق بينه وبين الإلهام والوسواس ، وقيل : سرعة الجواب مع الإصابة)^(٢) .

وقال ابن كثير : هي الفهم والعلم والتعبير^(٣) .

وكل المعاني الواردة تدل على زيادة في الفهم والإدراك .

وقد كان علقمة يقول لأصحابه : امشوا بنا نزداد إيماناً : يعني تفقهاً^(٤) .

وفي الحديث : «القلوب أوعية ، وبعضها أوعى من بعض»^(٥) .

فإذا امتلأ القلب إيماناً امتلأ معرفة وعلماً ، وقد يحتمل قلب

(١) صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة ، باب (٢٤) ، فتح الباري (١٠٠/٧) .

(٢) فتح الباري (١٧٠/١) ، (١٠٠/٧) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤٤٤/٣) .

(٤) الفقيه والمتفقه ص (٣٦) أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ١٤٠٠/٢ هـ .

(٥) مسند الإمام أحمد (١٧٧/٢) وقال ابن الأثير : إسناده حسن - جامع الأصول (١٥٣/٤) وبه قال المنذري في الترغيب (٤٩٢/٢) .

عبد من المعرفة أكثر مما يحتمله قلب عبد آخر ، وكل ذلك فضل من الله تعالى .

شرط كمال المعرفة :

والكمال في أن يقترن العلم بالعمل والتعليم ، وقد اجتمعت هذه الخصال في الصفوة الخيرة من السلف الصالح ، كلما ازداد الفرد منهم علماً ازداد عمله ، وبث علمه لخلق الله تعليماً وسلوكاً ، فنشأت أمة لا تخشى في الله لومة لائم ، ويقدر نقص إحدى هذه الثلاث الخصال تنقص الأخرى وتقل المعرفة من القلب .

(فالإنسان له قوتان : قوة علمية نظرية ، وقوة عملية إرادية ، وسعاده التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية والإرادية ، واستكمال القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فطره وبارئه ، ومعرفة أسمائه وصفاته ومعرفة الطريق التي توصل إليه ، ومعرفة آفاتها ، ومعرفة نفسه ومعرفة عيوبها ، فهذه المعارف الخمس يحصل كمال قوته العلمية ، وأعلم الناس أعرفهم بها ، وأفقههم فيها ، واستكمال القوة العملية الإرادية لا تحصل إلا بمراعاة حقوقه - سبحانه - على العبد والقيام بها إخلاصاً وصدقاً ونصحاً وإحساناً ومتابعة وشهوداً لمنتته عليه ، وتقديره هو في أداء حقه ، فهو مستح من مواجهته بتلك الخدمة ؛ لعلمه أنها دون ما يستحقه عليه ، ودون دون ذلك ، وأنه لا سبيل له إلى استكمال هاتين القوتين إلا بمعونته ، فهو مضطر إلى أن يهديه الصراط المستقيم ، الذي هدى إليه أوليائه وخاصته ، وأن يجنبه الخروج عن ذلك الصراط ، إما بفساد قوته العلمية فيقع في الضلال ، وإما في قوته العملية فيوجب له الغضب)^(١) .

(١) الفوائد ص (١٨ - ١٩) شمس الدين محمد ابن أبي بكر ابن قيم الجوزية ، مكتبة النهضة العلمية ، مكة .

وهذه المعارف الخمس لا تحصل إلا بزيادة رقي القلب في مراتبه ، وبقدر زيادة الإيمان تحصل المعرفة .
قال الجنيد^(١) : الرضا على قدر قوة العلم والرسوخ في المعرفة^(٢) .

الخشية طريق جامع للمعرفة :

فالعلم إن كان بتدبر وانتفاع وتصديق وطاعة فهو في دائرة المعرفة والفهم ، فلا بد أن يؤدي إلى تعظيم الله والخوف منه ، وهذه هي الخشية^(٣) التي أودعها الله في صدور العلماء . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : آية ٢٨] (أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى ، وكلما كانت المعرفة به أتم والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم) .

أما مرضى القلوب أو موتاها ؛ فتجد الفرد عالماً متمكناً مما يقول ومعرفة قاصرة على الاستمتاع الدنيوي ، أو البحث عن مطاعن ما تعلم ، فيهوي في درك موت القلوب .

ونستطيع أن نقول : إن الأمر الجامع للمعرفة بالله والمعرفة بحق عبوديته ، والطريق الأمثل لرقى القلب في دائرة الإيمان ؛ هو

(١) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادي الخزاز ، صوفي ، توفي ٢٩٧ هـ ،
الأعلام (١٤١/٢) .

(٢) روح المعاني (٢٠٦/٣٠) .

(٣) الخشية : خوف يشوبه تعظيم . المفردات ص (١٤٩) ، بصائر ذوي
التمييز (٥٤٤/٢) .

الخشية ، ولا تكون الخشية إلا بالعلم ، تزداد بزيادته وتنعدم بانعدامه ، ومدارنا على العلم الذي يؤدي إلى العمل والتسليم والتعليم ، فاجتماع هذه الثلاث بداية يقظة القلب من نوم الغفلة ، وأول النور الذي يشرق فيه بعد نور الشهادتين ، وهذا دأب السلف الصالح .

أقسام المعرفة :

والمعرفة إما مباشرة للقلب : كالرؤى والإلهام ، أو غير مباشرة له .

فالمعرفة غير المباشرة تكون بوسائل الإحساس الخمس : السمع والبصر والذوق والشم واللمس ، وهذه حواس الإنسان التي بها يشعر . وهي حواس مباشرة للإنسان . فالحاسة : اسم لما يقع به إدراك مخصوص ، وهو أول العلم^(١) .

والإحساس : العلم بالحواس ، ويُقال : أحسست بالشيء ؛ إذا علمته وعرفته^(٢) .

ومنه قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ٥٢] .

أي استشعر منهم التصميم على الكفر^(٣) .

وتأتي بمعنى اليقين ، كما في قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَّ بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ [الأنبياء : آية ١٢] أي تيقنوا أن العذاب

(١) الفروق اللغوية ص (٧١) .

(٢) لسان العرب (٤٩/٦) .

(٣) مختصر تفسير ابن كثير (٢٨٥/١) .

واقع بهم لا محالة كما وعدهم نبيهم^(١) .
أما القلب فليس من الحواس المباشرة للإنسان .

(١) تفسير ابن كثير (٣/١٧٤) .

المبحث التاسع مكانة السمع وتعريفه

وأهم الحواس السمع ، يتلوه البصر ثم ما عداهما ، لتقديم الله إياه في كتابه ، والتقديم دليل التفضيل . وأيضاً أكثر المعارف مدارها على السمع ، بل بعضها مستغن عن البصر تماماً ، وأيضاً لارتباطه بالنطق ، فإذا تعطل السمع بطل النطق .

والسمع لا يجدي من لا تعقل له ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الْأُصْمَ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [يونس : آية ٤٢] ، (أي يسمعون كلامك الحسن ، والقرآن العظيم ، والأحاديث الصحيحة الفصيحة النافعة في القلوب والأديان والأبدان ، وفي هذا كفاية عظيمة . ولكن ليس ذلك إليك ولا إليهم ، فإنك لا تقدر على إسماع الأصم وهو الأطرش ، فكذلك لا تقدر على هداية هؤلاء ؛ إلا أن يشاء الله) (١) .

فالسمع : إدراك المسموع ، والسمع اسم الآلة التي يسمع بها ، فالذي يريده الله هو الإدراك المؤدي إلى معرفته والامتثال له ،

(١) تفسير ابن كثير (٢/٤١٨) .

والإدراك لا يكون إلا بالإصغاء .

والإصغاء : طلب إدراك المسموع بإمالة السمع إليه^(١) .

فإذا أمال السمع إلى كلام الحق برغبة المعرفة المؤدية إليه ؛
كان الصغو محموداً ومطلوباً .

ونهاية السمع الحفظ .

والحفظ : هو العلم بالمسموعات دون غيره من
المعلومات^(٢) .

فلا يُقال للعلم بالمشاهدات حفظ ، فلا يقال : حفظت أن
زيداً في البيت ، وإنما يُقال : حفظت قولك : أي فهمته ، فيستعمل
الحفظ في الكلام فقط ، أي في المسموعات ، وأيضاً الحفظ نقيض
النسيان ، وهو أي الحفظ : التعاهد وقلة الغفلة^(٣) .

أو هو : العلم بالشيء حالاً بعد حال ، من غير أن يتخلله
جهل أو نسيان^(٤) .

ولهذا سمي حفاظ القرآن حفاظاً ؛ لأنهم رزقوا حفظ ما سمعوا
وقلما ينسون شيئاً يُعَوَّنُهُ .

(١) سبق تعريف الإصغاء في (صغو القلب) .

(٢) الفروق اللغوية ص (٧٤) .

(٣) لسان العرب (٧/٤٤١) .

(٤) الفروق اللغوية ص (٧٤) .

المبحث العاشر النظر وأقسامه

أما البصر : فهو أداة الرؤية ، والرؤية : إدراك المرئي بالبصر ، ولا يجدي النظر إذا انعدم البصر .

(والنظر : طلب معرفة الشيء من جهته ومن جهة غيره) .

وحدّ النظر : طلب إدراك الشيء من جهة البصر أو الفكر ، ويحتاج في إدراك المعنى إلى الأمرين جميعاً ، كالتأمل للخط الدقيق بالبصر أولاً ثم بالفكر ، لأن إدراك الخط الدقيق التي بها يقرأ ؛ طريق إلى إدراك المعنى ، وكذلك طريق الدلالة المؤدية إلى العلم بالمعنى .

وأصل النظر المقابلة ، فالنظر بالبصر : الإقبال به نحو المبصر، والنظر بالقلب : الإقبال بالفكر نحو المفكر فيه ، ويكون النظر باللمس ليديرى اللين من الخشونة^(١) .

فهنا النظر إما أن يكون مجرد تقليب العين طلباً للرؤية ، فهذا لا يغني في المعرفة شيئاً .

(١) الفروق اللغوية (٥٧ - ٥٨) .

وقد يكون طلباً للهدى ، وهذا بحده نوعان :

الأول : أن يكون بديهة :

(والبديهة : أول النظر ، يُقال : عرفته على البديهة : أي في أول أحوال النظر ، وله في الكلام بديهة حسنة : إن كان يرتجله من غير فكر فيه)^(١) .

فبديهة القول : ما يكون من غير فكر .

والنوع الثاني : ما كان بتفكر ، والفكر ما عدا البديهة . وهو تصرف القلب بالنظر في الدلائل ، والفكر جنس من النظر الذي هو سبب العلم^(٢) .

ويشمل التأمل والروية فالتمييز والشهادة .

تعريف التأمل ومراتبه :

فالتأمل : هو النظر المؤمل به معرفة ما يطلب ، ولا يكون إلا في طول مدة ، فكل تأمل نظر وليس كل نظر تأمل^(٣) .

والتأمل الثابت ، وتأملت الشيء : إذا نظرت إليه مستتباً له ، وتأمل الرجل : تثبت في الأمر والنظر^(٤) .

والروية : آخر النظر ، ولهذا يُقال للرجل إذا وصف بسرعة الإصابة في الرأي : بديهته كروية غيره ، أو هي إشباع الرأي والاستقصاء في تأمله^(٥) .

(١) الفروق اللغوية (٥٨) .

(٢) الفروق ص (٥٨) .

(٣) الفروق ص (٥٨) .

(٤) لسان العرب (٢٧/١١) .

(٥) الفروق اللغوية ص (٧٥) .

والروية في الأمر : أن تنظر ولا تعجل^(١) .
فالروية نظر وتفكر في الأمر ، فنقول للطالب : تأمل في
الأسئلة وتروى في الإجابة لتمييز الرأي الصحيح من غيره .
والتمييز : هو استعمال العقل ؛ بالنظر والفكر اللذين يؤديان
إلى تمييز المعلومات .
والتمييز : قوة في الدماغ يستنبط بها المعاني^(٢) .
فإذا ميزَ شهد بوجود الشيء من قبيل ذاته .
فالشهادة أخص من العلم ، وذلك أنها علم بوجود الأشياء لا
من قبيل غيرها ، ولهذا يسمّى ما يدرك بالحواس وما علم
بالضرورة : شاهد .
فالشهادة علم يتناول الموجود ، والعلم يتناول الموجود
والمعدوم^(٣) .
والمشاهد للشيء هو المدرك له رؤية .
وقال بعضهم : أو سمعاً ، وفي الرؤية أشهر^(٤) .
وبقية الحواس من الشم واللمس والذوق تدخل في معنى
النظر ، فإذا لمس الشيء ليدري نعومته من خشونته فهو بمعنى لينظر
وصفه ، ومثله لو شمّ أو ذاق مطعوماً .

(١) لسان العرب (١٤/٣٥٠) .

(٢) المصباح المنير ص (٥٨٧) .

(٣) الفروق ص (٥٨) .

(٤) الفروق اللغوية ص (٧٦) .

أهمية الحواس المباشرة للإنسان بالنسبة للقلب :

فوسائل الإحساس المباشر للإنسان لا بد أن تنتقل إلى الحاسة غير المباشرة وهي حاسة القلب ؛ ليتم التعقل في إدراك الشيء المدل على صانعه جلت عظمته ، وقد فصل تعالى هذا المعنى في قوله : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف : آية ١٧٩] .

فما تسمعه الأذان وتراه الأبصار لا يجدي إذا لم يكن بتأمل وتفكر لآيات الله في خلقه ، وآياته المنزلة على رسله ، ومن أخبار التاريخ الدالة على سننه تعالى في خلقه . فالآذان قد خلقت للإنسان ليستفيد من كل ما يسمع لا من القرآن فقط .

كما أن الأبصار خلقت له ليستفيد من كل ما يبصر ، وإنما يكون ذلك بتوجيه إرادته إلى استعمال كل منها فيما خلق له . قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهَلَكْنَا مَن قَبْلِهِمْ مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي السَّمْعِ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زُرْعَاتًا كُلُّ مَنهُ أَعْمَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴾ [السجدة : آية ٢٦ - ٢٧] .

فقد ضرب الله فيها مثلين للآيات البصرية والسمعية وأمثالهما كثير ، فلا بد أن ترتبط آلات العلم والعرفان بمواهب القلوب ؛ لتم المعرفة الدالة إلى طريق الهدى والإيمان ، فكثير من الخلق تجد نظره في منتهى الكمال ، وسمعه صحيح ، ويصل باختراعاته إلى ما

يريد من ملاذ الدنيا ، قاصراً حواسه الظاهرة والباطنة على ذلك ، فلا يستدل بما يبصر أو يسمع على وجود خالقه ، وحتى إن استدل فلا يطيعه فيما أمر . قال تعالى بعد ذكر هلاك عاد : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرَ وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأحقاف : آية ٢٦] .

قال الإمام الرازي : (والمعنى أنا فتحنا عليهم أبواب النعم وأعطيناهم سمعاً ، فما استعملوه في سماع الدلائل ، وأعطيناهم أبصاراً فما استعملوها في تأمل العبر ، وأعطيناهم أفئدة فما استعملوها في معرفة الله تعالى ، بل صرفوا كل هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذاتها ، فلا جرم ما أغنى سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من عذاب الله شيئاً^(١) . فالذي يبحث في منافع الأشياء لأجل الانتفاع بها في هذه الحياة الدنيا ، من غير ملاحظة كونها آيات دالة على أن لها رباً خالقاً مدبراً عليمًا حكيمًا يجب أن يعبد وحده ؛ فقد بعد عن منتهى كل غاية من الحياة ، وأصبح علمه ناقصاً ، وكان الانتفاع به مشوباً بضرر عظيم ، فإن الأمور بمقاصدها ، «إنما الأعمال بالنيات» ، والنية عمل القلب ، وبهذا ؛ يصدق على العلماء الذين استعملوا عقولهم وأبصارهم وأسماعهم في استنباط حقائق العلوم ونفعها المادي العاجل ؛ ما يصدق على الذين أهملوا استعمالها ؛ أنهم كالأنعام .

(١) التفسير الكبير (٢٨/٢٩) .

التقليد من أسباب نقص المعرفة :

وهنا نقطة نلاحظها : أنه بقدر تقليد أخذ العلوم عن مكتشفها في الانتفاع الدنيوي يكون نقص في المعرفة فعندما يمعن سليم النظر والسمع والفؤاد في آيات الله في الأنفس والآفاق ، فيرى آيات الله في الإنسان والجماد والنبات والحيوان والهواء والماء والبخار وسنن الضوء والكهرباء والهيئة الفلكية وغيرها ، يزداد إيماناً ويعمر قلبه النور الذي يهديه بخلاف لو أخذها تقليداً عن مكتشفها القاصر ، فتكون عادة لديه تدل بديهية على خالقه ، وهذا في فطرته ، فلا يرتقي في مراتب الإيمان ، بل ربما يحاربها ويتجه إلى الشكليات المتعلقة بالحياة الدنيا وملذاتها ، فينصرف عن الجوهر المؤدي إلى الإيمان بالله والدار الآخرة .

فالمهم أن عموم المعارف لا بد أن تؤدى إلى أعلى أنواع المعرفة ، وهي معرفة الحق تبارك وتعالى ، ولا يكون ذلك إلا عن طريق القلب العاقل الذي يشعر ثم يتدبر بما أكرم من بصيرة .

الشعور :

(والشعور علم يوصل إليه من وجه دقيق كدقة الشعر ، ولهذا قيل للشاعر شاعراً لفظته لدقيق المعاني .
وقال بعضهم : الذم للإنسان بأنه لا يشعر أشد مبالغة من ذمه بأنه لا يعلم ، لأنه إذا قال : لا يشعر ؛ فكأنه أخرجه إلى معنى الحمار ، وكأنه قال : لا يعلم من وجه واضح ولا خفي ، وهو كقولك : لا يحس .
وهذا قول من يقول : إن الشعور هو أن يدرك بالمشاعر وهي الحواس)^(١) .

(١) الفروق ص (٦٤) .

والتدبر : تصرف القلب بالنظر في العواقب^(١) .
والبصر تكامل العلم والمعرفة بالشيء^(٢) .

والخلاصة : أن عموم الحواس الخارجية لا بد أن ترتبط بالقلب ، فإن كان القلب فيه نور الإيمان كان تعقله فيما يرضي الله وينفع الإسلام والمسلمين ، وإلا كانت معرفته قاصرة على ملذات الدنيا . فلا عبرة بالمعرفة في هذا الحال ، كما ذكر الله ذلك في كتابه الكريم في آيات كثيرة ذكرت في ثنايا البحث .

(١) الفروق اللغوية ص (٥٨) .

(٢) الفروق اللغوية ص (٦٤) .

الفصل الثاني المعارف المباشرة للقلب

- المبحث الأول : الرؤيا .
- المبحث الثاني : خاطر والإلهام والتحديث والفراسة .
- المبحث الثالث : نزول كلام الله على أنبيائه .

المبحث الأول الرؤيا

وهناك معرفة مباشرة للقلب لا دخل للجوارح فيها . فالقلب الحي له معرفة ، يهبها الله له تزيده إيماناً وترفعه مكانة أعلى ، والقلب المريض له معرفة : قد تكون من الله ؛ فتوقظه من سنة الغفوة وتعيد إليه حياته ، وقد تكون من الشيطان ؛ تزيده ضلالاً ومرضاً ، والقلب الميت له معرفة من الشيطان ، تزيده غوايته التي هي من الله ، وتكون مباشرة بالقلب .

وأولى المعارف : الرؤيا .

والرؤيا : ما يراه الشخص في منامه ، وهي من الله تعالى .

والرؤية - بالهاء - : إدراك المرء بحاسة البصر^(١) .

(والرؤيا : إدراكات علقها الله تعالى في قلب العبد ، على يدي ملك ، أو شيطان ، إما بأسمائها أي حقيقتها ، وإما بكنائها أي بعباراتها ، وإما تخليط)^(٢) .

(١) المفردات ص (٢٠٩) ، لسان العرب (١٤/٢٩٧) .

(٢) فتح الباري (١٢/٣٥٢) .

(والبعض من العلماء يرى أنها اعتقادات وليست إدراكات ، لأن الإنسان قد يرى نفسه في الرؤيا أو الحلم بهيمة أو طائراً ، والاعتقاد قد يكون على خلاف المعتقد)^(١) .

كما اختلف في حقيقة الرؤيا إلى أقوال كثيرة لأنها أمور لا تدرك بالعقل ولا يقوم عليها برهان . فمن ينتمي إلى الطب مثلاً يرى أنها أخلاط : أي زيادة خلط في جسم الإنسان يسبب له هذه الرؤيا ، ومن ينتمي إلى الفلسفة يقول : إن صور ما يجري في الأرض هي في العالم العلوي كالنقوش ، فما حاذى بعض النقوش منها انتقش فيها .

قال ابن حجر : (والصحيح ما عليه أهل السنة أن الله يخلق في القلب النائم اعتقادات كما يخلقها في قلب اليقظان ، فإذا خلقها فكأنه جعلها علماً على أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال ، ومهما وقع على خلاف المعتقد فهو كما يقع لليقظان)^(٢) .

أنواع ما يراه النائم :

وأحاديث المنام نوعان : رؤيا وأحلام ، ففي الحديث الصحيح عن أبي قتادة قال : قال رسول الله ﷺ : «الرؤيا من الله ، والحلم من الشيطان»^(٣) .

وقد سمى الله تعالى هذين النوعين أحاديث ، كما في قوله

(١) فتح الباري (٣٥٣/١٢) .

(٢) فتح الباري (٣٥٣/١٢) وستكلم في الرؤيا من ناحية ارتباطها بالقلب فقط ، أي من ناحية أنها معرفة قلبية مباشرة .

(٣) صحيح مسلم : كتاب الرؤيا : باب (١) حديث رقم (٢٢٦١) ، شرح النووي (١٦/١٥) .

تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ يَجْنِبُكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ﴾ [يوسف : آية ٦] .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : آية ٢١] .

وفي قوله تعالى : ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ [يوسف : آية ١٠١] .

والأحلام قسمان :

الأول : حديث النفس ، كالحزن الذي يعتري الإنسان ، والخوف والآمال ، وما يغشى قلب النائم الممتلىء من الطعام أو الخالي منه .

وقد ضرب لها النابلسي^(١) بعض الأمثلة فقال : مثل أن يرى الإنسان مع من يحب قلبه أو يخاف من شيء فيراه ، أو يكون جائعاً فيرى أنه يأكل ، أو ممتلئاً فيرى أنه يتقيأ ، أو ينام في الشمس فيرى أنه يحترق ، أو في أعضائه وجع ويرى أنه يعذب^(٢) .

والثاني : تحزين الشيطان ، وهي ما يلعب الشيطان بالنائم ، كما ورد في الحديث الصحيح عن جابر قال : «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال : يا رسول الله رأيت في المنام كأن رأسي ضرب فتدحرج فاشتدت علي أثره ، فقال رسول الله ﷺ للأعرابي :

(١) النابلسي ، عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي ، متصوف عالم بالدين والأدب ، توفي عام ١١٤٣ هـ ، الأعلام (٤/٣٢) .
(٢) تعطير الأنام في تعبير المنام ص (٤) ، عبد الغني النابلسي .

« لا تحدث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك »^(١) .

قال ابن تيمية : (فهذان النوعان من وسواس النفس ، ومن وسواس الشيطان ؛ كلاهما معفو عنه ، فإن النائم قد رفع القلم عنه ، ووسواس الشيطان يغشى القلب كطيف الخيال ، فينسيه ما كان معه من الإيمان حتى يعمى عن الحق فيقع في الباطل ، فإذا كان من المتقين كان كما قال تعالى : ﴿ إِنَّا الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف : آية ٢٠١] . فإن الشيطان مسهم بطيف منه يغشى القلب .

وقد يكون لطيفاً وقد يكون كثيفاً ، إلا أنه غشاوة على القلب تمنعه إِبصار الحق)^(٢) .

وبذلك يكون ما يراه النائم على ثلاث حالات ، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : «الرؤيا ثلاثة : فالرؤيا الصالحة بشرى من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث المرء نفسه»^(٣) .

درجات الرؤيا :

والرؤيا توافق طبيعة الإنسان ، فيقدر إيمانه وبيزادته في درجات نور القلب تصدق رؤياه ، ففي الحديث الصحيح : «أصدقكم رؤيا : أصدقكم حديثاً»^(٤) .

(١) صحيح مسلم : كتاب الرؤيا حديث (١٥) ، انظر شرح النووي (٢٧/١٥) .

(٢) الفتاوى (٥٢٢/١٧) .

(٣) صحيح مسلم (١٧٧٣/٤) كتاب الرؤيا حديث (٢٢٦٣) .

(٤) صحيح مسلم (١٧٧٣/٤) كتاب الرؤيا حديث (٢٢٦٣) .

ويقول ابن سيرين^(١) : (وقد يكون الإنسان صدوقاً في حديثه ، فتصدق رؤياه ، ويكون كذاباً في حديثه ويحب الكذب ؛ فتكذب عامة رؤياه)^(٢) .

وهذا يوضح لنا درجات رؤيا المؤمن بالنسبة لدرجات النبوة ، فقد ورد في الحديث الصحيح : «عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح ، جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»^(٣) .

وورد في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «رؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة»^(٤) .

كما ورد في الحديث الصحيح : «الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة»^(٥) .

فحصل لدينا ثلاث روايات مشهورة ، في رواية : الرؤيا الصالحة ستة وأربعين ، وخمسة وأربعين ، وسبعين جزءاً ، ووردت روايات أخرى في غير الصحيحين :

قال الإمام النووي : (وفي غير مسلم من رواية ابن عباس : من أربعين جزءاً ، وفي رواية : من تسعة وأربعين ، وفي رواية

(١) ابن سيرين : محمد بن سيرين البصري الأنصاري ، تابعي اشتهر بالورع وتعبير الرؤيا ، توفي ١١٠ هـ ، الأعلام (٦/١٥٤) .

(٢) منتخب الكلام في تفسير الأحلام ص (١١) محمد بن سيرين ، بهامش تعطير الأنام .

(٣) صحيح البخاري كتاب الرؤيا ، فتح الباري (١٢/٣٦١) ، صحيح مسلم بشرح النووي (١٥/٣٦٢) .

(٤) صحيح مسلم كتاب الرؤيا ، شرح النووي (١٥/٢٠) .

(٥) صحيح مسلم كتاب الرؤيا ، شرح النووي (١٥/٢٤) .

العباس : من خمسين ، ومن رواية ابن عمر : ستة وعشرين ، ومن
رواية عبادة : من أربعة وأربعين^(١) .

وقد أوصلها ابن حجر إلى خمسة عشر لفظاً ثم قال : (وأما
خصوص العدد فهو مما أطلع الله عليه نبيه ، لأنه يعلم من حقائق
النبوة ما لا يعلمه غيره)^(٢) .

والحاصل أن الرؤيا علم من علم الغيب يكشفه الله لمن يشاء
من عباده ، ولهذا شبهه بجزء من أجزاء النبوة ، يحصل منها العبد
بقدر صفاء قلبه ، فإن كان قلبه أبيض مثل الصفا ؛ كانت الرؤيا جزء
من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة .

وبقدر علو الإيمان تنخفض الدرجات ، وبقدر نقص الإيمان
يزداد تفاوت الدرجات .

قال ابن حجر رحمه الله : (إذا قلت الأجزاء ؛ كانت الرؤيا
أقرب إلى الصدق ، وأسلم من وقوع الغلط في تأويلها ، بخلاف ما
إذا كثرت)^(٣) .

الرؤيا الجليلة :

وممكن أن نستشف من العدد ميزة أخرى ، لعله والله أعلم :
كلما قل العدد كانت الرؤيا جليلة لا تحتاج إلى تأويل ، وكلما زاد
العدد كانت الرؤيا خفية تحتاج إلى مفسر .

ومن الرؤى الجليلة رؤيا رسول الله ﷺ التي كان يراها في
بدء الوحي ، كما في الحديث الصحيح عن أم المؤمنين عائشة -

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (٢١/١٥) .

(٢) فتح الباري (٣٦٣/١٢) .

(٣) فتح الباري (٣٦٥/١٢) .

رضي الله عنها - قالت : «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»^(١) .

فرؤيا الأنبياء وحي ، بخلاف غيرهم ، والوحي لا يدخله خلل لأنه محروس من الحق تبارك وتعالى .

أما بعد الوحي الجلي فقد تؤول رؤيا الأنبياء ، كما ورد في الصحيح عن ابن عمر - رضي الله عنه - قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن ، فشربت منه حتى إني لأرى الرِّي يخرج في أظافيري ، ثم أعطيت فضلي - يعني عمر - قالوا : فما أولته يا رسول الله ؟ قال : العلم»^(٢) .

الرؤيا نوع من أنواع الكرامة :

والمهم أن الرؤيا : (نوع من أنواع الكرامات ، وتحقيق الرؤيا : خواطر ترد على القلب ، وأحوال تتصور في الوهم ؛ إذا لم يستغرق النوم جميع الاستشعار . ومثاله : كالذي يكون في ضوء السراج عند اشتداد الظلمة ، فإذا طلعت الشمس عليه غلبت ضوء السراج ، فيتقاصر نور السراج بالإضافة إلى ضياء الشمس .

فمثال حال النوم كمن هو في ضوء السراج ، ومثال المستيقظ كمن تعالى عليه النهار ، فإن المستيقظ يتذكر ما كان متصوراً له في حال نومه)^(٣) .

(١) صحيح البخاري : كتاب التعبير ، فتح الباري (٣٥١/١٢) .

(٢) صحيح البخاري : كتاب التعبير ، فتح الباري (٣٩٣/١٢) .

(٣) الرسالة القشيرية (٧١٥/٢) أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري ، تحقيق عبد الحلیم محمود .

الرؤيا في القرآن الكريم :

وقد أورد القرآن الكريم عدة رؤى منها : رؤيا رسول الله ﷺ في موقعة بدر ، تثبيتاً من الله له وللمؤمنين ، ورفعاً لروحهم الجهادية الصادقة .

قال تعالى : ﴿ إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرْنٰكَهُمْ كَثِيرًا لَفُشِلْتُمْ وَلَتَنْزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ مَكْلَمٌ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [الأنفال : آية ٤٣] .

فالرؤيا النبوية صادقة ؛ لأن العدد المادي ليس كل شيء في حساب النصر ، فكانت الرؤيا البصرية - اليقظة - مؤيدة للرؤيا المنامية .
ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾ [الأنفال : آية ٤٤] .

ومن الرؤيا الجليلة التي ذكرها الحق في كتابه الكريم ؛ رؤيا خليل الرحمان إبراهيم عليه السلام . قال تعالى : ﴿ قَالَ يَبْنَئِي إِنِّي آرِي فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ ﴾ [الصافات : آية ١٠٢] .

ومنها رؤيا يوسف عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ يَتَأْتِيَ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ زَائِنُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ [يوسف : آية ٤] .

وقد ورد تأويل هذه الرؤيا في نفس السورة : ﴿ وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ

عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴿ [يوسف : آية ١٠٠] .

وأيضاً في نفس السورة رؤيا السجينين مع يوسف ، قال تعالى : ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ [يوسف : آية ٣٦] .

وأولها لهما يوسف عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ﴾ [يوسف : آية ٤١] .

وفي السورة نفسها رؤيا الملك ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ ﴾ [يوسف : آية ٤٣] .

الرؤيا في السنة المشرفة :

وقد ورد في السنة الصحيحة كثير من الرؤى ، رآها الرسول ﷺ ، أو رآها الصحابة وفسرها لهم رسول الله ﷺ ، أو فسروها فيما بينهم ، فلو لم تكن علماء من علم الله لما كان في تفسيرها أدنى فائدة ، ولكنها علم قلبي مباشر يختص به الله من يشاء من عباده ، فقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على تأويل الرؤيا . ففي الحديث الصحيح عن سمرة بن جندب قال : « كان النبي ﷺ إذا صلى الصبح أقبل عليهم بوجهه ، فقال : هل رأى أحد منكم البارحة رؤيا » (١) .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الرؤيا (٣٥/١٥) .

وقد قال النووي في شرحه لهذا الحديث : (وفيه : استحباب السؤال عن الرؤيا والمبادرة إلى تأويلها وتعجيلها أول النهار ، لهذا الحديث ، ولأن الذهن جمع قبل أن يتشعب بإشغاله في معاش الدنيا ، ولأن عهد الرائي قريب لم يطرأ عليه ما يهوش الرؤيا عليه ، ولأنه قد يكون فيها ما يستحب تعجيله ؛ كالحث على خير أو تحذير من معصية ونحو ذلك)^(١) .

ثم هي من المبشرات ، كما قال رسول الله ﷺ : «لم يبق من النبوة إلا المبشرات . قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤيا الصالحة»^(٢) .

وهذا كله يثبت لنا : أن الرؤيا معرفة مباشرة للقلب حال نوم الإنسان .

(١) صحيح مسلم بشرح النووي (١٥ / ٣٥) .

(٢) فتح الباري ، كتاب التعبير (١٢ / ٣٧٥) وللرؤيا الصالحة علامات وآداب ينبغي لمريد الرؤيا أن يفعلها ، وإذا رأى ما يكره له حصل يفتعها . هناك أوقات تقوى في الرؤيا وآداب لمعبر الرؤيا تحتاج إلى بحث مستقل ، يلتزم فيه الباحث بأصول الدين ليتفجع به المسلمون ، والتوسع فيه يخرجنا عن المقصود .

المبحث الثاني الخاطر والإلهام والتحديث والفراسة

أولاً: الخاطر:

وهناك معارف مباشرة للقلب حال يقظته ، خواطر ترد عليه .

والخاطر : ما يخطر في القلب من تدبير أوامر ، والباطن : الهاجس^(١) . وعرف أيضاً بأنه (مرور معنى بالقلب ، بمنزلة خطاب مخاطب يحدث بضروب الأحاديث)^(٢) .

والباطن إن كان من الله فهو الإلهام ، وإن كان من الشيطان فهو النزغ .

(والنزع : هو الإغواء بالوسوسة ، وأكثر ما يكون عند الغضب ، وقيل : أصله الإيعاز بالحركة إلى الشر ، ويقال : هذه نزعة من الشيطان للخصلة الداعية إلى الشر)^(٣) .

فإن كان صوتاً خفياً فهو الوسواس (وأصل الوسوسة الصوت

(١) لسان العرب (٤/٢٤٩) .

(٢) الفروق اللغوية ص (٦٠) .

(٣) الفروق اللغوية ص (٥١) .

الخفي ومنه يُقال لصوت الحلبي : وسواس ، وكل صوت لا يفهم
تفصيله لخفائه : وسوسة ووسواس^(١) .

والنزغ والوسواس من الشيطان قال تعالى : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ
يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء : آية ٥٣] ، وقال تعالى على لسان يوسف
عليه السلام : ﴿ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي
وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ ﴾ [يوسف : آية ١٠٠] .

وقال عن الوسواس : ﴿ فَوَسَّوَسَ لَهَا الشَّيْطَانُ ﴾ [الأعراف :
آية ٢٠] وكذلك في قوله تعالى : ﴿ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾
[طه : آية ١٢٠] .

وسوسة الشيطان مقرها الصدر ، قال تعالى : ﴿ مِنْ شَرِّ
الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ
الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴾ [الناس : آية ٤ - ٦] .

قال الحكيم الترمذي : (فهذا الصدر موضع دخول الوسواس
والآفات)^(٢) .

وقال أيضاً : (وكذلك الشيطان يدخل بوسوسته في صدر
العبد ، وهو آخر ولاية حد النفس)^(٣) .

وعلاج نزغ الشيطان الاستعاذة . قال تعالى : ﴿ وَإِمَامًا يَنْزَغُكَ

(١) الفروق اللغوية ص (٥١) .

(٢) الفروق بين الصدر والقلب ص (٣٥) .

(٣) الفروق بين الصدر والقلب ص (٤٠) .

مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذُ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿ [الأعراف : آية ٢٠٠] ، وفي الأخرى قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : آية ٣٦] .

ثانياً : الإلهام :

أما الإلهام (فهو أن يلقي الله في النفس أمراً يبعثه على الفعل أو الترك ، وهو نوع من الوحي يخص الله به من يشاء من عباده ، والإلهام ما يلقي في الروح ، وألهمه الله خيراً : لقنه إياه^(١) .

وعرّفه مرتضى الزبيدي فقال : (الإلهام ما يلقي في الروح بطريق الفيض ، ويختص بما من جهة الله والملا الأعلى ، ويُقال : إيقاع شيء في القلب يطمئن له الصدر ، يخص الله به بعض أصفياه^(٢) .

وهذا التعريف للإلهام نواجه فيه كلمة (الفيض) فإن كان المراد معناه اللغوي وهو : جريان الشيء بسهولة ، كما عرفه ابن فارس في معجم مقاييس اللغة ؛ فلا بأس ، فهو عطاء من الله تعالى ، وإن كان المقصود التعريف الصوفي ، كما عرفه ابن عربي^(٣) فقال : (هو تجلي الذات الأحادية لنفسها في صور جميع الممكنات)^(٤) ؛ فهذا من الباطل ، ولكن الزبيدي أراد به المعنى

(١) لسان العرب (١٢/٥٥٥) .

(٢) تاج العروس (٩/٦٨) .

(٣) ابن عربي : محمد بن علي بن محمد بن محمد بن محمد بن عربي المعروف بمحيي الدين ابن عربي ، اشتهر بمذهبه الباطل في القول بوحدة الوجود ، ت ٦٣٨ هـ ، الأعلام (٦/٢٨١) .

(٤) المعجم الصوفي مادة (فيض) ص (٨٨٩) ، د . سعاد الحكيم .

اللغوي كما هو معروف من سيرته .

وعرفه ابن فارس فقال : اللام والهاء والميم أصل صحيح ، يدل على ابتلاع شيء ، ثم يقاس عليه . ومن هذا الباب : الإلهام ، كأنه شيء ألقى في الروح فالتهمه^(١) .

قال ابن تيمية رحمه الله : (والإلهام في القلب تارة يكون من جنس القول والعلم والظن والاعتقاد ، وتارة يكون من جنس العمل والحب والإرادة والطلب . فقد يقع في قلبه أن هذا القول أرجح وأظهر للصواب ، وقد يميل قلبه إلى أحد الأمرين دون الآخر .

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال : «قد كان في الأمم قبلكم مُحدِّثون ، فإن يكن في أمتي أحد فعمر»^(٢) .

والمحدِّث الملهَم المخاطب ، وفي مثل هذا قول النبي ﷺ في حديث وابصة : «البر ما اطمأنت إليه النفس وسكن إليه القلب ، والإثم ما حاك في نفسك وإن أفتاك الناس وأفتوك»^(٣) وهو في السنن . وفي صحيح مسلم عن النواس عن النبي ﷺ قال : «البر حسن الخلق ، ؛ والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس»^(٤) .

وقال ابن مسعود : الإثم حزاز القلوب .

(١) معجم مقاييس اللغة (٢١٧/٥) .

(٢) فتح الباري (٤٢/٧) فضائل الصحابة ، باب (٦) حديث رقم (٣٦٨٩) وفيه : (زاد زكريا بن أبي زائدة عن سعد عن أبي هريرة قال : قال النبي ﷺ «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر» .

(٣) مسند أحمد (١٩٤/٤) .

(٤) صحيح مسلم : كتاب البر (١٥/١٤) .

وأيضاً ، فإذا كانت الأمور الكونية قد تنكشف للعبد المؤمن يقيناً أو ظناً ؛ فالأمور الدينية كذلك بطريق الأولى ، فإنه إلى كشفها أحوج ، لكن هذا في الغالب لا بد أن يكون كشفاً بدليلاً ، وقد يكون بدليلاً ينقدح في قلب المؤمن ولا يمكنه التعبير عنه ، وهذا أحد ما فسره به الاستحسان^(١) .

وقال رحمه الله : (ومن طرق ذلك (الإلهام) فقد يلهم بعض عباده حال هذا المال المعين ، وحال هذا الشخص المعين ، وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره .

وقصة موسى مع الخضر هي من هذا الباب ، ليس فيها مخالفة لشرع الله تعالى ، فإنه لا يجوز قط لأحد لا نبي ولا ولي أن يخالف شرع الله ، لكن فيها علم حال ذلك المعين بسبب باطن يوجب فيه الشرع ما فعله الخضر ، كمن دخل إلى دار وأخذ ما فيها من المال لعلمه بأن صاحبها أذن له وغيره لم يعلم ، ومثل من رأى ضالة أخذها ولم يعرفها لعلمه بأنه أتى بها هدية له ، ونحو ذلك ، ومثل هذا كثير عند أهل الإلهام الصحيح^(٢) .

وقال في موضع آخر رحمه الله : (وإذا كانت الرؤيا على ثلاثة أقسام : رؤيا من الله ، ورؤيا من حديث النفس ، ورؤيا من الشيطان ، فكذلك ما يلقي في نفس الإنسان في حال يقظته ثلاثة أقسام .

ولهذا كانت الأحوال ثلاثة : رحماني ، ونفساني ، وشيطاني .

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٤٧٦ - ٤٧٧) .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٤٧٩) .

وما يحصل من نوع المكاشفة والتصرف ثلاثة أصناف : ملكي ، ونفسي ، وشيطاني ، فإن الملك له قوة ، والنفس لها قوة ، والشيطان له قوة ، وقلب المؤمن له قوة ، فما كان من الملك ومن قلب المؤمن فهو حق ، وما كان من الشيطان ووسوسة النفس فهو باطل^(١) .

الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان :

وقد فرّق ابن القيم رحمه الله بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه ، فقال : الفرق بين إلهام الملك وإلقاء الشيطان من وجوه : منها : أن ما كان لله موافقاً لمرضاته وما جاء به الرسول ؛ فهو من الملك ، وما كان لغيره غير موافقاً لمرضاته ؛ فهو من إلقاء الشيطان .

ومنها : أن ما أثمر إقبالاً على الله ، وإجابة إليه ، وذكراً له ، وهمة صاعدة إليه ؛ فهو من إلقاء الملك ، وما أثمر ضد ذلك ؛ فهو من إلقاء الشيطان .

ومنها : أن ما أورث أنساً ونوراً في القلب ، وانشراحاً في الصدر ؛ فهو من الملك ، وما أورث ضد ذلك ؛ فهو من الشيطان .
ومنها : أن ما أورث سكينته فهو من الملك ، وما أورث قلقاً وانزعاجاً واضطراباً فهو من الشيطان .

فالإلهام الملكي يكثر في القلوب الطاهرة النقية التي استنارت بنور الله ، فللملك بها اتصال وبينه وبينها مناسبة ، فإنه طيب طاهر لا يجاور إلا قلباً يناسبه ، فتكون لمة الملك بهذا القلب أكثر من لمة الشيطان .

(١) مجموع الفتاوى (١٠/٦١٣) .

وأما القلب المظلم الذي قد اسودَّ بدخان الشهوات والشبهات ؛ فإلقاء الشيطان ولّمته به أكثر من لمة الملك^(١) .

الفرق بين التحديث والإلهام :

استشهد ابن تيمية عند ذكره للإلهام بحديث أبي هريرة الصحيح الذي فيه : «لقد كان فيمن كان قبلكم من الامم ناس محدثون . . .» الحديث . فما الفرق بين الحديث والإلهام ؟ .

قال ابن حجر : (اختلف في تأويله ف قيل : ملهم ، قاله الأكثر . قالوا : المحدث - بالفتح - هو الرجل الصادق الظن ، وهو من ألقى في روعه شيء من قِبَل الملائكة الأعلى ، فيكون كالذي حدثه غيره به ، وبهذا جزم أبو أحمد العسكري ، وقيل : من يجري الصواب على لسانه من غير قصد ، وقيل : مكلم أي تكلمه الملائكة بغير نبوة)^(٢) .

التحديث ومرتبته :

فالمحدث من تكلم الملائكة على لسانه ، ويؤيده الحديث الصحيح : «لقد كان فيمن كان قبلكم من بني إسرائيل ؛ رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء ، فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر»^(٣) .

فعلى هذا فمرتبة التحديث أعلى من مرتبة الإلهام ، سواء رأى الملائكة ، أم جرى اللفظ على لسانه بإلهام من الله تعالى .
وعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - خير الملهمين والمحدثين

(١) الروح ص (٢٥٦ - ٢٥٧) شمس الدين ابن قيم الجوزية .

(٢) فتح الباري (٥٠/٧) .

(٣) فتح الباري (٤٢/٧) كتاب فضائل الصحابة حديث رقم (٣٦٨٩) .

يقول عن نفسه : (وافقت ربي عز وجل في ثلاث : قلت يا رسول الله ! لو اتخذنا من مقام إبراهيم مصلى فنزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : آية ١٢٥] . وقلت : يا رسول الله ! إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجبن ، فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه في الغيرة فقلت لهن : ﴿ عَسَىٰ رَيْبُهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنْكُمْ ﴾ [التحریم : آية ٥] فنزلت كذلك^(١) .

وبلغ التحديث في عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : أن خرج - رضوان الله عليه - يوم الجمعة إلى الصلاة فصعد المنبر ثم صاح : يا سارية بن زنيم ! الجبل ؛ يا سارية بن زنيم ! الجبل ؛ ظلم من استرعى الذئب الغنم ، فلم يدر الناس ما يقول حتى قدم سارية المدينة على عمر - رضي الله عنه - فقال : يا أمير المؤمنين ! كنا محاصري العدو ، وكنا نقيم الأيام لا يخرج علينا منهم أحد ، نحن في خفض من الأرض وهم في حصن عال ، فسمعت صائحاً ينادي بكذا وكذا ، فعلوت بأصحابي الجبل ، فما كان إلا ساعة حتى فتح الله علينا ، ولما سئل عمر قال : والله ما ألقيت له بالاً ، شيء أتى به على لساني^(٢) .

(١) مناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . ابن الجوزي ص (٢٢) ، تفسير ابن كثير (١/١٦٩) .

(٢) ذكر القصة كثير من العلماء على سبيل المثال : «الفرقان» لابن تيمية ص (٢٦٧) ، «مناقب عمر» لابن الجوزي ص (١٧٢) ، «ختم الولاية» للحكيم الترمذي ص (٣٩١) .

على قدر الطاعة والاتباع تكون المخاطبة والمكاشفة :

وذكر ابن تيمية رحمه الله : (أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كان يقول : اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون ، فإنه تتجلى لهم أمور صادقة) وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنها تتجلى للمطيعين ؛ هي الأمور التي يكشفها الله عزَّ وجلَّ لهم ، فقد ثبت أن لأولياء الله مخاطبات ومكاشفات ، وأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر ؛ عمر بن الخطاب - رضي الله عنهما - ، فإن خير هذه الأمة بعد نبينا : أبو بكر ثم عمر .

وقد ثبت في الصحيح تعيين عمر بأنه محدث في هذه الأمة .
وأبي محدث ومخاطب فرض في أمة محمد ﷺ ؛ فعمر أفضل منه^(١) .

وقال الشاطبي رحمه الله : (إن جميع ما أعطيته هذه الأمة من المزايا والكرامات والمكاشفات والتأييدات وغيرها من الفضائل ؛ إنما هي مقتبسة من مشكاة نبينا ﷺ لكن على مقدار الاتباع ، فلا يظن ظان أنه حصل على خير بدون وساطة نبوته ﷺ ، كيف وهو السراج المنير الذي يستضيء به الجميع ، والعلم الأعلى الذي يهتدى به في سلوك الطريق)^(٢) .

ومما ذكره ابن حجر رحمه الله في شرحه للحديث الصحيح

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : ٢٩ ، شيخ الإسلام تقي

الدين أحمد بن تيمية .

(٢) الموافقات في أصول الشريعة (٢/٢٥٩) ، أبو إسحاق الشاطبي .

«لم يبق من النبوة إلا المبشرات»^(١) ، قال : وقال ابن التين^(٢) :
 معنى الحديث ؛ أن الوحي ينقطع بموتي ولا يبقى ما يعلم منه ما
 سيكون إلا الرؤيا ، ويرد عليه الإلهام ؛ فإن فيه إخباراً بما سيكون
 وهو للأنبياء بالنسبة للوحي كالرؤيا ، ويقع لغير الأنبياء ، كما في
 الحديث الماضي في مناقب عمر : «قد كان فيمن مضى من الأمم
 محدثون» ، وفسر المحدث - بفتح الدال : بالملهم - بالفتح أيضاً ،
 وقد أخبر كثير من الأولياء عن أمور مغيبة فكانت كما أخبروا ،
 والجواب أن الحصر في المنام لكونه يشمل آحاد المؤمنين ، بخلاف
 الإلهام فإنه مختص بالبعض ومع كونه مختصاً فإنه نادر ، وإنما ذكر
 المنام لشموله وكثرة وقوعه ، ويشير إلى ذلك قوله ﷺ : «فإن يكن،
 وكان السر في ندور الإلهام في زمنه وكثرته من بعده ؛ غلبة الوحي
 إليه ﷺ في اليقظة وإرادة إظهار المعجزات منه ، فكان المناسب أن
 لا يقع لغيره منه في زمانه شيء ، فلما انقطع الوحي بموته ؛ وقع
 الإلهام لمن اختصه الله به ، للأمن من اللبس في ذلك . وفي إنكار
 وقوع ذلك مع كثرته واشتهاره مكابرة ممن أنكره»^(٣) .

وهكذا تبين لنا أن أكثر العلماء كابن تيمية وابن القيم وابن
 حجر وغيرهم يثبتون المعرفة المباشرة للقلب ، والاعتماد عليهم
 أولى ، لأن إقناع البعض بثبوتها وارتباطها بالقلب ليس باليسير ، وفتح
 هذا الباب على مصراعيه يدخله كثير من الشك ، فهو أمر غيبي
 بحث يطلعه الله من يشاء من عباده ، فالواجب أن يراعى بشرط أن

(١) صحيح البخاري كتاب التعبير ، باب المبشرات ، حديث (٦٩٩٠) .
 (٢) عبد الواحد ابن التين السفاقي المالكي المعروف بابن التين أحد شراح
 الصحيح . كشف الظنون (١/٥٤٦) .
 (٣) فتح الباري (١٢/٣٧٦) .

لا يخرم حكماً شرعياً ولا قاعدة دينية ، وإلا كان خيلاً ووهماً من إلقاء الشيطان ، ولا يستمد منه حكماً شرعياً ، فالأحكام الشرعية تبنى على الظاهر . أما إنكاره بالكلية بعد إثباته فمكابرة ، والأخذ به بالكلية لا يحفظ ترتيب الظواهر التي هي مبنى الشريعة ، فليت هذا الأمر يُتقصى ، فهو بحث مستقل حباه الله خلقه الأصفياء المخلصين .

الفِراسة :

ومن باب الإلهام : الفِراسة ، وقسمها الإمام الرازي إلى قسمين :

فقال : (أحدهما : أن يحصل خاطر في القلب أن هذا الإنسان من حاله وخلقته كذا وكذا ، من غير أن يحصل هناك علامة جسمانية ، ولا أمانة محسوسة . والسبب فيه : ما ثبت أن جواهر النفوس الناطقة مختلفة بالماهيات ، فمنها ما يكون في غاية الإشراق والتجلي والبعد عن العلائق الجسمانية ، ومنها ما لا يكون كذلك ، وكما أن النفس تقدر على معرفة الغيوب في وقت النوم ، فكذلك النفس المشرقة الصافية قد تقدر على معرفة المغيبات حال اليقظة ، والنفوس التي شأنها ذلك تكون أيضاً مختلفة المعنى بالكم والكيف^(١) .

أما النوع الآخر وهو : الاستدلال بالأحوال الظاهرة على الأخلاق الباطنة ؛ فهذا علم مستقل لا دخل للإلهام فيه ، ولكنه علم له أصول وفروع ، مجال بحثها كتب استقلت به .

(١) الفِراسة ص (٣٠) ، محمد بن عمر فخر الدين الرازي ، تحقيق مصطفى عاشور .

والمهم : أن من الفراسة علم لا دخل للمدارك المحسوسة فيه بشيء ، إنما هو ضرب من إشراق القلوب .

فهذه الفراسة : استنباط الأسرار بالنظر الثاقب المعزز بنور البصيرة ، وسببه رقي القلب في مراتب حياته .

قال ابن تيمية في ذكر فوائد غض البصر : (أنه يورث نور القلب والفراسة . قال تعالى عن قوم لوط : ﴿لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون﴾ . فالتعلق في الصور يوجب فساد العقل وعمى البصيرة ، وسكر القلب بل جنونه .

وقال : وذكر سبحانه آية النور عقب آيات غض البصر فقال : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ .

وكان شاه بن شجاع الكرمانى^(١) لا تخطيء له فراسة ، وكان يقول : من عمر ظاهره باتباع السنة ، وباطنه بدوام المراقبة ، وغض بصره عن المحارم ، وكف نفسه عن الشهوات ، وذكر خصلة خامسة وهي أكل الحلال ، لم تخطيء فراسته . والله تعالى يجزي العبد على عمله بما هو من جنس عمله ، فغض بصره عما حرم يعوضه الله عليه من جنسه بما هو خير منه ، فيطلق نور بصيرته ، ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشف ونحو ذلك ، مما ينال ببصيرة القلب^(٢) .

وقد ورد في الحديث عن أبي سعيد الخدري - رضي الله

(١) شاه بن شجاع الكرمانى ، صوفي ذكره الأصفهاني في ترجمة (٥٦٦) وقال : إنه صحب أبا تراب النخشي وأبا عبيد البصري . ولم يذكر تاريخ وفاته ، حلية الأولياء (٢٣٧/١٠) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢١/٢٥٦ - ٢٥٨) وقول شاه الكرمانى ذكره أيضاً ابن القيم في «مدارج السالكين» (٢/٥٠٥) .

عنه - قال : قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »^(١) .

فراصة المؤمن على قدر إيمانه :

الفراصة على حسب قوة الإيمان في القلب ، فليس كل مؤمن ذا فراصة ، أما من كان إيمانه أقوى كان أحداً فراصة ، وليس لأحد أن يدعيها ؛ لأنها هبة في القلوب . فعلى المؤمن أن يتقي الفراصة من الغير لا أن يدعي الفراصة .

وذكر ابن القيم (عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال :

أفرس الناس ثلاثة : العزيز في يوسف حيث قال لامرأته : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [يوسف : آية ٢١] ، وابنة شعيب حين قالت لأبيها في موسى ﴿ اسْتَجِرْهُ ﴾ [القصص : آية ٢٦] ، وأبو بكر في عمر - رضي الله عنهما - حيث استخلفه ، وفي رواية أخرى : وامرأة فرعون حين قالت : ﴿ قَرَّتْ عَيْنِي لِىَ وَلَكَ لَا نَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ﴾ [القصص : آية ٩]^(٢) .

(١) سنن الترمذي (٢٩٨/٥) كتاب التفسير باب (١٦) حديث (٣١٢٧) وقال

الترمذي : هذا حديث غريب ، إنما نعرفه من هذا الوجه ، وقد روي عن

بعض أهل العلم .

(٢) مدارج السالكين (٥٠٦/٢) .

المبحث الثالث نزول كلام الله على أنبيائه

وأخيراً ننتقل إلى أعلى مراتب المعرفة في القلب ، كلام الله للعبد ، ومنه : الوحي .
والواو والحاء والحرف المعتل : أصل يدل على إلقاء علم في إخفاء أو غيره إلى غيرك^(١) .
والوحي : الإشارة والكتابة والرسالة والإلهام والكلام الخفي ، وكل ما ألقيته إلى غيرك يُقال : وحيته إليه الكلام^(٢) .
وقيل : أصله التفهيم . وكل ما دلت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة فهو وحي .
وشرعاً : الإعلام بالشرع^(٣) وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه ، أي الموحى ، وهو : كلام الله المنزل على نبي من أنبيائه ، عليهم الصلاة والسلام .

(١) مقاييس اللغة (٦/٩٣) .

(٢) لسان العرب (١٥/٣٧٩) .

(٣) فتح الباري (١/٩) .

ومن التعريف اللغوي نلاحظ أن كلمة الوحي تشمل وحي الإلهام ووحى الرسالة ، وقد تحدثنا عن وحي الإلهام في قلوب المؤمنين .

أما وحي الرسالة فمختص بأنبيائه ورسله عليهم السلام .

أقسام المعرفة لدى الأنبياء عليهم السلام :

فالمعرفة لديهم على أقسام ثلاثة :

أحدها : سماع كلام الله تعالى : كسماع موسى عليه السلام .

كما في قوله تعالى : ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء : آية ١٦٤] .

وهذا منتهى مراتب الوحي وأعلاها ، وقد وقع التكليم أيضاً لنبينا محمد ﷺ في الإسراء ، كما ثبت في صحيح الآثار . من ذلك حديث المعراج ، وفيه مراجعة رسول الله مع موسى عليه السلام ، إذ قال له : «فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك ، فرجعت فوضع عني عشرًا . . . الحديث»^(١) .

قال ابن تيمية : (وقد فرّق سبحانه بين إيحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسى في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ﴾ إلى قوله : ﴿ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾^(٢) فرّق سبحانه بين

(١) صحيح البخاري : كتاب المعراج حديث رقم (٢٧٠) ، عمدة القاري (٢٢/١٧) .

(٢) ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى =

تكليمه لموسى وبين إيحائه لغيره ، ووكد تكليمه لموسى بالمصدر ، وقال تعالى : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ﴾ ، إلى قوله تعالى : ﴿ روح القدس ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ﴾ إلى آخر السورة ، فقد بين سبحانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة :

إما وحياً ، أو من وراء حجاب ، وإما أن يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء ، فجعل الوحي غير التكليم ، والتكليم من وراء حجاب كان لموسى (١) .

وقال أيضاً - رحمه الله - : (فالله تعالى يقول : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ﴾ ، إلى قوله : ﴿ وكلم الله موسى تكليماً ﴾ ففضل موسى بالتكليم على غيره ممن أوحى إليهم ، وهذا يدل على أمور : على أن الله يكلم عبده تكليماً زائداً عن الوحي الذي هو قسيم التكليم الخاص ، فإن لفظ التكليم والوحي كل منهما ينقسم إلى عام وخاص ، فالتكليم هو المقسوم في قوله : ﴿ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً ﴾ والتكليم المطلق هو قسيم الوحي الخاص ليس هو قسماً منه ، وكذلك لفظ الوحي قد يكون عاماً فيدخل فيه التكليم

= إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً ، ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليماً [النساء : آية ١٦٣ - ١٦٤] .

(١) مجموع الفتاوى (٣٩/١٢) .

الخاص كما في قوله لموسى ﴿فاستمع لما يوحي﴾ وقد يكون قسيم التكليم الخاص كما في سورة الشورى ، وهذا يبطل قول من يقول : الكلام معنى واحد قائم بالذات ، فإنه حيثئذ لا فرق بين التكليم الذي خص به موسى والوحي العام الذي يكون لأحد العباد ، ومثل هذا قوله في الآية الأخرى : ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾ فإنه فرق بين الإيحاء وبين التكليم من وراء حجاب وبين إرسال رسول يوحي بإذنه ما يشاء ، فدل على أن التكليم من وراء حجاب - كما كَلَّمَ موسى - أمر غير الإيحاء^(١) .

ثانياً : الوحي بواسطة الملك :

القسم الثاني : وحي رسالة بواسطة ملك معروف حامله مستيقن طريقه ، مشهودة رحلته ، يراه الرسول ﷺ رأي العين والقلب ، من غير وهم ولا خداع بصر ، ورؤيا القلب أثبت في المعرفة لأنها تنفي خداع النظر ، وتثبت أن حامل الوحي رسول ربه إليه ليعلمه ويكلفه تبليغ ما يعلم ، فهي رؤية محققة ويقين جازم ومعرفة مؤكدة ، والمبلغ عن الحق تبارك وتعالى كريم عند ربه ، قوي بوصف الله له : أمين على وحيه ، مكين في مقامه ومكانته ، مطاع في الملأ الأعلى .

القسم الثالث : وحي تلق بالقلب ، كقوله عليه الصلاة والسلام : «إن روح القدس نفث في روعي، أي في نفسي ، وقيل : كان هذا حال داود عليه السلام^(٢) .

(١) مجموع الفتاوى (١٢/١٢٨ - ١٢٩) .

(٢) عمدة القاري (١/٤٠) ، الحديث قال عنه ابن حجر : أخرجه ابن أبي =

أقسام الوحي بواسطة الملك :

وأما صور المعرفة بالوحي فلها أحوال مختلفة :

الأول : المنام ، كما جاء في الحديث الصحيح : «أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح»^(١) أي مبينة واضحة مثل مجيء الصبح ، ورؤيا الأنبياء وحي صادق لم يسلط فيها ضغث ولا تلبس شيطان ، وقد ذكرنا في الرؤى أن الله يخلق في قلب النائم أو في حواسه الأشياء كما يخلقها في اليقظان ، وهو سبحانه يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا غيره ، فربما يقع ذلك في اليقظة كما رآه في المنام .

وسبب ابتداء النبوة بالرؤيا الصالحة كما قال البدر العيني (لثلا يفجأه الملك ويأتيه بصريح النبوة ولا تحملها القوى البشرية ، فبدىء بأوائل خصال النبوة وتباشير الكرامة ؛ من صدق الرؤيا مع سماع الصوت وسلام الحجر والشجر عليه بالنبوة ورؤية الضوء ، ثم أكمل الله له النبوة بإرسال الملك في اليقظة ، وكشف له عن الحقيقة كرامة له)^(٢) .

مدى تأثير الوحي :

والوحي سواء كان مناماً أو يقظة أو إلهاماً ، سلطانه أقوى من

= الدنيا في «القناعة» وصححه الحاكم من طريق ابن مسعود . فتح الباري (٢٠/١) .

(١) صحيح البخاري : كتاب الوحي حديث رقم (٣) ، عمدة القاري (٤٦/١) .

(٢) عمدة القاري (٦٠/١) .

أن يقاوم ، وله سلطة على طبع الموحى إليه لا بد أن يتقاد له . قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ﴾ [القصص : آية ٧] .

وكذا فعلت فألقته ولم تخالف ، مع أن الحالة تؤذن أنها ألقته في الهلاك ، ولكنها لم تتردد ولا حكمت عليها النفس البشرية بأن إلقاءها في اليم في تابوت من أخطر الأشياء : لأن المعرفة بالوحي من أصدق المعارف وأقواها وأنفذها إلى قلب الإنسان ، فتصل إلى فؤاده وتنفذ إليه ، ولا كذب في رؤيا الفؤاد . وكذلك إبراهيم عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ فَكَأَلَّ يَبُنَىٰ بِإِنِّي أُرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۗ قَالَ يَتَأَبَّأُ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الصافات : آية ١٠٢] أسلم واستسلم وانقاد . إنفاذاً لأمر ربه يقيناً ، فلم يشك وأسلم وتله للجبين .

الثانية : أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس :

والصلصلة : في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ، ثم أطلق على كل صوت له طنين ، والصلصلة أيضاً صفاء صوت الرعد^(١) .

(والحكمة في تقديمه أن يقرع سمعه الوحي . فلا يبقى فيه مكان لغيره ، وقال شيخ الإسلام البلقيني^(٢) : سبب ذلك أن الكلام

(١) لسان العرب (١١/٣٨٢) .

(٢) شيخ الإسلام البلقيني : صالح بن عمر بن رسلان الشافعي ، من علماء الحديث والفقهاء ، ت : ٨٦٨ هـ ، الأعلام (٣/١٩٤) .

العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به^(١) .

وهذا أشد أنواع الوحي كما في الحديث الصحيح أن الحارث بن هشام - رضي الله عنه - سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله ﷺ : «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده عليّ ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال»^(٢) .

وشدة هذه الصلصلة (ليستجمع قلبه عند تلك الصلصلة ، فيكون أوعى لما سمع ، وألقن لما يُلقى)^(٣) .

والوعي هنا قبل الفصم لابعده بدلالة الحديث .

قال البدر العيني رحمه الله : (إن قيل : ما الحكمة في ضربه ﷺ في الجواب بالمثل المذكور : (مثل صلصلة الجرس) ؟ أجيب بأنه ﷺ كان معتنياً بالبلاغة مكاشفاً بالعلوم الغيبية ، وكان يوفر على الأمة حصتهم بقدر الاستعداد ، فإذا أريد أن ينبئهم بما لا عهد لهم به من تلك العلوم ، صاغ لها أمثلة من عالم الشهادة ، ليعرفوا بما شاهدوه ما لم يشاهدوه ، فلما سأله الصحابي عن كيفية الوحي ، وكان ذلك من المسائل الغويصة ؛ ضرب لها في الشاهد مثلاً بالصوت المتدارك الذي يُسمع ولا يُفهم منه شيء ، تنبيهاً على أن إتيانها يرد على القلب في لبسه الجلال ، فيأخذ هيئة الخطاب حين ورودها بمجامع القلوب ، ويلاقي من ثقل القول ما لا علم له بالقول

(١) فتح الباري (٢٠/١) .

(٢) صحيح البخاري : كتاب بدء الوحي حديث رقم (٢) ، فتح الباري (١٨/١) .

(٣) الروض الأنف (٢٦٩/١) أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ، ط : ١٣٩٨ هـ .

مع وجود ذلك ، فإذا كشف عنه وجد القول المنزل بيناً ، فيلقى في الروح واقعاً موقع المسموع ، وهذا معنى قوله (فيفصم عني) . وهذا الضرب من الوحي شبيه بما يوحى إلى الملائكة ؛ على ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : «إذا قضى الله في السماء أمراً ؛ ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله ، كأنها سلسلة على الحجر ، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق ؛ وهو العلي الكبير»^(١) .

الثالثة : أن ينفث في روعه الكلام :

وأصل النفث : خروج شيء من فم أو غيره بأدنى جرس ، منه : نفث الراقي ريقه^(٢) .

والنفث شبيه بالنفخ وفي الحديث : «أن النبي ﷺ قال : إن روح القدس نفث في روعي وقال : إن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب»^(٣) .

قال أبو عبيد : هو النفث بالفم شبيه بالنفخ ، يعني جبريل ، أي أوحى وألقى^(٤) ، وهو أقل من التفل لا يكون إلاً ومعه شيء من الريق^(٥) .

(١) عمدة القاري (١/٤٤) .

(٢) معجم مقاييس اللغة (٥/٤٥٧) .

(٣) الحديث رواه الحاكم (٢/٤) من طريق آخر مطولاً وأوله : «ليس من عمل يقرب إلى الجنة إلاً وقد أمرتكم به ، ولا عمل يقرب إلى النار إلاً وقد نهيتكم عنه» وقال : صحيح على شرط مسلم ، مسند الشهاب (٢/١٨٥) رقم (١٨٥/٢/٧٢٨) ، القاضي محمد بن سلامة القضاعي ، تحقيق حمدي السلفي ، ط : ١ ، ١٤٠٥ هـ .

(٤) لسان العرب (٢/١٩٥) .

(٥) النهاية في غريب الحديث (٥/٨٨) .

قال مجاهد : (نفث ينفث في قلبه فيكون إلهاماً)^(١) .

وقد ذكرنا الإلهام ، فكل إلهام وحي وليس كل وحي إلهام ، لأن الوحي يقين يكمن في القلب بأنه من قبل الله ؛ سواء كان بواسطة أو بغير واسطة ، بخلاف الإلهام الذي ينساق معه القلب إلى ما يمليه عليه الإلهام .

الرابعة : أن يتمثل له الملك رجلاً :

وقد ورد ذلك في الحديث الصحيح ، أنه ﷺ قال : «وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني ، فأعي ما يقول»^(٢) .
وفيه دليل أن الملائكة تتشكل بالصورة البشرية بالقدرة الإلهية .

قال السهيلي رحمه الله : (فقد كان يأتيه في صورة دحية بن خليفة - رضي الله عنه - ويروى أن دحية إذا قدم المدينة لم تبق معصر إلا خرجت تنظر إليه لفرط جماله)^(٣) .

وقال العيني رحمه الله : (كان يأتيه في صورة دحية - رضي الله عنه - واختصاص تمثله بصورة دحية دون غيره من الصحابة - رضوان الله عنهم - لكونه أحسن أهل زمانه صورة ، ولهذا كان يمشي متلثماً خوفاً أن يفتن به الناس)^(٤) .

ولعل هذه الحالة من المعرفة هي أهون الحالات بدلالة قوله

(١) تفسير القرطبي (٥٣/١٦) .

(٢) عمدة القاري (٣٦/١) كتاب كيف بدأ الوحي ، حديث رقم (٢) وأوله : (أن الحارث بن هشام رضي الله عنه - سأل رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ! كيف يأتيك الوحي . .) الحديث .

(٣) الروض الأنف (٣٦٩/١) والمعصر : المرأة إذا اكتملت أنوثتها .

(٤) عمدة القاري (٤٠/١) .

عليه السلام : «فيكلمني فأعي ما يقول» فالملك تشكل بالصورة البشرية ثم يكلم الرسول ثم يعي ما يقول .

فالفاء للعطف المشير إلى التعقيب ، فالوحي حال المكالمة لا قبلها . وفي الحالة (الثانية) التي يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس ، وهو أشد أنواع الوحي الذي يرد على القلب في لبسة الجلال ، فيأخذ هيئة الخطاب حين ورودها بمجامع القلوب ، يكون الوحي أثناء التلبس بالصفات الملكية ، فحالة تشكل الملك بالصفات البشرية أهون من تحول الطباع البشرية إلى الأوضاع الملكية ، فيوحي إليه كما يوحي إلى الملائكة .

الخامسة : أن يتراءى له جبريل عليه السلام في صورته التي خلقها الله تعالى ، كما في الحديث الصحيح قوله عليه الصلاة والسلام : «بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء . فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض ، فرعبت منه فرجعت فقلت : زملوني» الحديث^(١) .

وفي «شرح السنة» عن الشيباني قال : سألت زراً^(٢) عن قوله عز وجل : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ [النجم : آية ٩] قال : أخبرنا عبد الله أن محمداً ﷺ رأى جبريل - رضي الله عنه - له ستمائة جناح^(٣) .

(١) صحيح البخاري (٤/١) كتاب كيف بدأ الوحي حديث رقم (٣) .

(٢) زر بن حبیش أبو مريم الأسدي مخضرم كثير الحديث ، ت ٨١ هـ ، طبقات الحفاظ ص (٢٠) .

(٣) صحيح البخاري كتاب التفسير «سورة النجم» باب قوله تعالى : ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ ، فتح الباري (٨/٤٧٠) ومسلم (١٧٤) (٢٨٢) .

وقال السهيلي في روضه : (يتراءى له جبريل في صورته التي خلقه الله فيها ، له ستمائة جناح ، ينتشر منها اللؤلؤ والياقوت) (١) .

السادسة : أن يكلمه الله تعالى من وراء حجاب إما في اليقظة كما مر في ليلة المعراج وإما في النوم كما جاء في سنن الترمذي من حديث ابن عباس قال : «قال رسول الله ﷺ : أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة قال : أحسبه في المنام - فقال : يا محمد : - تدري فيم يختصم الملائ الأعلی ؟ . قال : قلت : لا . قال : فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي - أو قال : في نحري - فعلمت ما في السموات وما في الأرض ، قال : يا محمد ! هل تدري فيم يختصم الملائ الأعلی ؟ قلت : نعم . . .» الحديث (٢) .

وقد روي أيضاً من حديث معاذ بن جبل - رضي الله عنه - قال : «احتبس عنا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتى كدنا نترأى عين الشمس ، فخرج سريعاً فتوب بالصلاة فصلّى رسول الله ﷺ وتجوّز في صلاته فلما سلّم دعا بصوته قال لنا : مصافكم كما أنتم ، ثم انفتل إلينا ثم قال : أما إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة : إني قمت من الليل فتوضأت وصلّيت ما قدر لي ، فنعست في صلاتي حتى استثقلت ، فإذا أنا بربي تبارك وتعالى في أحسن صورة ، فقال : يا محمد ! قلت : لبيك رب . قال : فيم يختصم الملائ الأعلی ؟ قلت : لا أدري ، قالها ثلاثاً ، قال :

(١) الروض الأنف (١/٢٧٠) .

(٢) سنن الترمذي (٥/٣٦٦) كتاب التفسير باب (٣٩) حديث رقم (٣٢٣٣) ، وكذلك رقم (٣٢٣٤) ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن صحيح . (ومعنى توب بالصلاة : أي أقام الصلاة - النهاية : ١/٢٢٦) .

فرأيتَه وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين ثديي ،
فتجلى لي كل شيء وعرفت ، فقال : يا محمد ! قلت : لبيك
رب . . . الحديث^(١) .

فهنا المعرفة بين الحق وبين الخلق . رأى رسول الله ﷺ ربه
في المنام في أحسن صورة ، أورهه في اليقظة من وراء حجاب رؤية
فؤاد ، ولا كذب في رؤية الفؤاد ، وعلمه الحق تبارك وتعالى علم
كل شيء في الملأ الأعلى ، أو علم ما في السموات وما في الأرض
كما في الحديث السابق ، فلما سأله الحق فيم يختصم الملأ
الأعلى ؟ قال : نعم ، لأنه قد علمه في جملة ما علمه الله ، وكان
قبل ذلك لا يعلمه .

وهنا طرفة أحببت ذكرها تدخل معنا فرعاً لا أصلاً ، وهي :
إن الخلق متفاوتون في المعرفة والفهم ، فكما أن بني آدم متفاوتون
في الفهم ؛ نجد أيضاً الملائكة متفاوتون بدلالة الحديث . وفيه :
«يا محمد ، قلت : لبيك رب . قال : فيم يختصم الملأ الأعلى .
قلت : في الكفارات . قال : ما هن ؟ قلت : مشي الأقدام إلى
الحسنات ، والجلوس في المساجد بعد الصلوات ، وإسباغ
الوضوء حين الكريهات ، قال : فيم ؟ قلت : إطعام الطعام ولين
الكلام والصلاة بالليل والناس نيام . . . الحديث^(٢) .

كلام شيخ الاسلام في رؤية الله تعالى :

قال ابن تيمية : (إن أئمة السنة والجماعة متفقون من أن الله

(١) سنن الترمذي (٣٦٨/٥) كتاب التفسير باب (٣٩) حديث رقم (٣٢٣٥)

قال الترمذي : هذا الحديث حسن صحيح ، سألت محمد بن إسماعيل

عن هذا الحديث فقال : هذا حديث حسن صحيح .

(٢) الحديث السابق نفسه .

لا يراه أحد بعينه في الدنيا ولم يتنازعوا إلا في نبينا محمد ﷺ خاصة ، وقد روي نفي رؤيتنا له في الدنيا ، عن النبي ﷺ من عدة أوجه ، منها : ما رواه مسلم في صحيحه عن النبي ﷺ أنه قال - لما ذكر الدجال - : «واعلموا أن أحداً منكم لن يرى ربه حتى يموت» . وموسى ابن عمران عليه السلام قد سأل الرؤية فذكر الله سبحانه قوله ﴿لن تراني﴾ وما أصاب موسى من الصعق^(١) .

وقال أيضاً : (وقد خطب عروة بن الزبير من عبد الله بن عمر ابنته وهو في الطواف فقال : أتحدثني في النساء ونحن نترأى الله في طوافنا ؟ فهذا كله وما أشبهه لم يريدوا به أن القلب ترفع جميع الحجب بينه وبين الله ، حتى تكافح الروح ذات الله كما يرى هو نفسه ، فإن هذا لا يمكن لأحد في الدنيا ، ومن جاوز ذلك إنما جوزه للنبي ﷺ كقول ابن عباس : رأى محمد ربه بفؤاده مرتين ، ولكن هذا التجلي يحصل بوسائط بحسب إيمان العبد ومعرفته وحبه ، ولهذا تتنوع أحوال الناس في ذلك كما تتنوع رؤيتهم لله تعالى في المنام ، فيراه كل إنسان بحسب إيمانه ويرى في صور متنوعة)^(٢) .

والمهم أن المعرفة بالوحي بتعدد أنواعه ؛ محفوظة من الخطرات الشيطانية والهواجس النفسية ، لأن الموحى إليه معصوم من كل ذلك : بخلاف المعارف الأخر ؛ لا بد أن يرجع فيها إلى ما أتى عن المعصوم ﷺ .

بيان أن الصديق أفضل من المحدث :

قال ابن تيمية : (إن المكاشفات يقع فيها من الصواب والخطأ

(١) مجموع الفتاوى (٤٩/٥) .

(٢) مجموع الفتاوى (٤٩٢/٥) .

نظير ما يقع في الرؤيا وتأويلها ، والرأي ، والرواية ، وليس شيء معصوماً على الإطلاق إلا ما ثبت عن الرسول ﷺ ولهذا يجب رد جميع الأمور إلى ما بعث به ، ولهذا كان الصديق المتلقي عن الرسول كل شيء ، مثل أبي بكر ، أفضل من المحدث ، مثل عمر - رضي الله عنهما - وكان الصديق يبين للمحدث المواضع التي اشتبهت عليه حتى يرده إلى الصواب ، كما فعل أبو بكر بعمر يوم الحديبية ، ويوم موت النبي ﷺ ، وفي قتال مانعي الزكاة وغير ذلك^(١) .

ولا ريب أن سيد الأعضاء ، هذه المصفة التي نزل القرآن عليها ، ألا وهي القلب ؛ هو محل العلم ، وهو الملزم بالحجة ، إذا قذف فيه نور البصيرة والمعرفة ازداد قرباً من الله فازداد علماً ، يرتقي فيه عقله ، فالمدار مدار إيمان ويقظة ، مع كل ما أتى عن الحق تبارك وتعالى ، فيؤتيه الله علماً من عنده بسبب طهارة قلبه ، وهو ما يسمى بالعلم اللدني .

كلام شيخ الاسلام في العلم اللدني :

قال ابن تيمية : وأما العلم (اللدني) ؛ فلا ريب أن الله يفتح على قلوب أوليائه المتقين وعباده الصالحين بسبب طهارة قلوبهم مما يكرهه ، واتباعهم ما يحبه ؛ ما لا يفتح به على غيرهم ، وهذا كما قال علي - رضي الله عنه - : **إِلَّا فَهَمَّا يُؤْتِيهِ اللَّهُ عَبْدًا فِي كِتَابِهِ .** وقد دلّ القرآن على ذلك في غير موضع كقوله تعالى : **﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا وَإِذَا أَلَأْتِنَاهُمْ مِّنْ لَّدُنَّا آجْرًا عَظِيمًا وَلَهْدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾** [النساء : آية ٦٦ - ٦٨] .

(١) مجموع الفتاوى (١١/٤٢٩) .

فقد أخبر أنه من فعل ما يؤمر به يهديه الله صراطاً
مستقيماً^(١) .

نسأل الله أن يعلمنا ما ينفعنا ، وينفعنا بما علّمنا ، وأن يزيدنا
علماً من عنده .

وختاماً : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم .

(١) مجموع الفتاوى (٢٤٥/١٣) .

الخاتمة

الخاتمة

أما بعد حمد الله الذي هو فاتحة كل كتاب ، والصلاة على رسله التي هي خاتمة كل خطاب ، نشكره جلّت عظمته أن حباننا بنعمه ، وأغدق علينا من فضله .

كل صنعة يخترعها العبد ؛ لا بد أن تحوي دليلاً يوضح كيفية العناية بهذه الآلة ، وطرق وقايتها ، وأسباب إتلافها ، وكذلك الإنسان ، هو صنعة الخالق جلّت عظمته ، أعطاه ينبوع الإسلام الأول ، يقلب في ثناياه ما شاء ، وسيجد في كل آية من الكتاب المفصل ؛ ما يشفي صدره ، ويعالج قلبه ، ويجعله يسيطر بروحه على بدنه ، ويسمو بنفسه فوق حسه .

وكان الهدف الأسمى من هذا البحث ؛ معرفة هذه اللطيفة الربانية ، المرتبطة ارتباطاً معنوياً باللحم الصنوبري الشكل ، المودوع في الجانب الأيسر من الصدر ، ولها به تعلق وثيق ، ولا أقصد بالمعرفة الكشف التام ؛ إنما لمسات منيرة أوضحتها الذكر الحكيم والسنة المطهرة ، واقتبسها منهما ، مع الاستدلال والاستئناس بأقوال الأكابر من العلماء ، على مختلف الطبقات والأشربة ، مع التحفظ عن المجاز ومشتقاته .

أوضحت بقدر الإمكان معاني القلب ومترادفاته ، والتوضيح يظهر الفوارق . فالفؤاد اشترك مع القلب في الصغو والتقليب ، وانفرد بالفراغ والرؤيا والتثبيت وغيرها ، فهو جزء من القلب اختص ببعض الأحوال ؛ من معرفة وخواطر تتقارب مع اللب حيناً وتغايره أحياناً ، كما أن العقل نور يقذف في القلب ، يستعد به لإدراك الأشياء ، وليس عيناً قائمة بذاتها ، إنما التعقل عمل من أعمال القلب المؤمن الحي ، وبالتبعية وجدنا أن الصدر استقل ببعض الأحوال ، فهو يضيق أحياناً وينشرح أخرى ، وهو أول مقامات القلب وموضع نور الإسلام ، والقلب مقره ومكمنه .

وبالنسبة للفطرة : توصلت إلى أنها أعم من أن تكون في قلب أو صدر ، فهي تهيئة النفس لقبول الحق ، وميثاق أقدم من الرسل والرسالات ، ولكنها تتعرض إلى الاجتيال بالشبهة أو الشهوة ، ولا حادي لها سوى الإسلام ، وبه ترتقي إلى حقيقة التوحيد ، ومع الإيمان تصور وقفه بين الحظ الأدنى والأعلى ، وعلى قدره يكون النور في القلب ، ويقدر عظم النور يحترق الاجتيال ، وفيه تم التفريق بين الإسلام والإيمان إذا افترقا ، وذكرنا بعضاً من أنوار لا إله إلا الله بقدر ما صرح به الوحي .

ويتبع أحوال القلب الحي حالة بعد أخرى استقصاءً ، بقدر ما يسر الله بين الكتاب والسنة وأقوال العلماء ، مع المحافظة على لغة الذكر الحكيم ؛ تبين لنا من النصوص أن أول ما يطالب به العبد بعد سلامة القلب الخشوع ، حتى يترقى في الثواب ويسلم من العقاب . وبيننا معاني ورود الحالة في كتاب الله وأقوال العلماء فيها ، ثم أثير تلك الحالة على الجوارح وعلى المجتمع سلباً وإيجاباً ، ومقدار دوام الحالة في الأمة ، وما ينتج عن ذلك ، وكيف يتم الانتقال في درجات الإحسان ، ومن هو المحظوظ بهذه المكانة

من الأمة ، وحين ترد الحالة في اللغة تحتل المدح والذم ؛ فصلت لمن تكون تلك الأحوال كشدة القلوب مثلاً ؛ مرغوبة في وقت ومرفوضة في وقت آخر ، وأن من الأحوال ملكات في استطاعة العبد أن ينميها ، حتى يطمئن قلبه إلى ذكر الله فيزول ما فيه من القلق والوحشة ، ومن التبع تبين أن أعلى حالات القلب الحي ، ومنتهى الكمال ، وأقصى ما تتحملة طاقة القلب ؛ الغين عليه ، وهي من مراتب النبوة التي اختص بها المفضل بالشفاعة ﷺ .

وتبين لنا أن الله تبارك وتعالى أفعالاً في قلوب عباده ، يعطيها لمستحقها إذا بلغ مرحلة من مراحل القلب ، سواء كانت المرحلة رقياً أو دركاً . فالطهارة والتزينة والتثبيت والهداية ؛ من خلق الله أو إنشائه في القلوب المترقية ، وللدرك أحوال أخرى ، ولا تتفق القلوب على المودة والألفة إلا بالمحبة الخاصة التي وعد الله أهل التقوى أن يؤتيهم كفلين منها .

والإنسان وإن كان يولد بقلب سليم على الفطرة ؛ إلا أنه قابل للانحراف ، لا عاصم له من وساوس الجن والأنس ؛ إلا بالتمسك بما يحييه ويرتقي به في مراتب الإيمان . وهو محل الميل والإرادة ، فإذا مال إلى الهدى فهذه إرادة الرحمن ، وإن مال إلى الضلال فبغية الشيطان ، والقلب المريض اتضح لنا أنه لا يخلو من أحوال : كالغل والغلظة والغيط والإباء ، وكلها مراحل كبر أو نفاق أو كفر لا يخرجان عن الملة ، وفصلت القول مستشهداً بقول السلف في هذه الأحوال ؛ متى تكون مرضاً من أمراض القلوب ، ومتى تخرج من الملة ، وكيفية معالجة هذه الأمراض ، مع توضيح لأثر الذنوب على القلوب ، مستدلاً على ذلك بنصوص الوحي الكريم .

وحتى أوضح آخر مراحل موت القلب ؛ فصلت تعريف

الموت وأنواعه وأوجه وروده في القرآن الحكيم ، مع ذكر الآيات التي تدل إشارة إلى موته ، فلا بد من الحيطه ، إذ كثير من المشركين أزيحت الغشاوة عن قلبه فأمن ، وهذا يعني بالضرورة : أنهم لم يبلغوا المرحلة النهائية من مراحل موت القلب ، وتبين لنا أن هناك صفات وحالات ، تمر على القلب المتهالك في المرض ، فتقوده إلى الموت التام ؛ كاللهو والغمر والإنكار والاشمئزاز والإكثان وما تابعهم من صفات ، حتى يشرب القلب حب المعاصي ، فتقوده إلى الطبع ثم الختم عليه ، وكل ذلك راجع إلى ما كسب العبد من الخطايا والرزايا .

وتحدثت عن مقر العقل والفرق بينه وبين الفكر والنظر ، وبيّنت أن التعقل عمل من أعمال القلب ، وليس هناك عين بذاتها في الإنسان تسمى العقل ؛ مستأنساً بأقوال العلماء في شرح الآيات والأحاديث الدالة على ذلك ، فقادنا هذا إلى أن موضع التمييز والاختيار وإلزام الحجة هو القلب ، وحتى يتم التوضيح أكثر عرفت الفهم ومراتب الناس بالنسبة للتعقل وتعريف العاقل ، كل ذلك ليقودنا إلى مراتب المعرفة عند الإنسان ، سواء كانت معرفة مباشرة أو غير مباشرة للقلب ، وظهر لنا أن زيادة أعمال الخير فتح من الله تبارك وتعالى ، تدل على ترقى الفهم الذي يقود إلى التعقل ، ولا يتم ذلك إلا بزيادة الإيمان ، أو بخصوصية المشرع للصفوة الطاهرة ، برجحان القوة العملية الإرادية أو القوة العملية النظرية .

والمهم أن يكون العلم بتدبر وانتفاع وتصديق وطاعة ، حتى يؤدي ذلك إلى تعظيم الله . أما العلم القاصر على الاستمتاع الدنيوي فقط ؛ فهو درك يهوي بصاحبه . وتحدثت عن وسائل المعرفة غير المباشرة للقلب ؛ كالسمع والبصر ووظائف كل منهم ، بقدر ما يحتاج إليه البحث مع بيان أهميتها بالنسبة للإنسان .

أما المعرفة المباشرة فهي الرؤى والأحلام ، وظهر أنه بقدر الإيمان وبرقيه تزداد المعرفة عن طريق الرؤى ، وكذلك الخاطر والإلهام والتحديث ، وتقييد كل معرفة بقيود شرعية موافقة لمرضاة الله ، مع توضيح مراتب كل معرفة ، وما يترتب على ذلك من مخاطبات ومكاشفات ، وإسناد ذلك كله على أقوال السلف الطاهر ، ثم الفراسة بصفاتها نوع من أنواع المعرفة ، وختمت أبواب المعرفة بكلام الله لأنبائه بصفته أعلى أنواع المعارف وأشرفها وأرقاها ، مع تفصيل مستند من الوحي .

وأتمنى على الله تبارك وتعالى ؛ أن يتبع هذه البحث ببحوث متممة تسانده وتوضحه أكثر وأجلى لتتم الاستفادة منه على ما ينبغي ، ومن ذلك التوضيح التام لكل حالة تكرر ذكرها في الكتاب والسنة بتفصيل ؛ كالتقوى والطمأنينة والسكينة ، وكذلك المعرفة : فهي أنواع ، كل نوع تتكون منه رسالة علمية يستفيد منها المسلمون ؛ كالرؤى ، فقد كان اهتمام الرسول ﷺ بها كثيراً ، فلا بد من وضع قواعد لها مستقاة من الشرع ، وكذلك التحديث والإلهام وفراسة المؤمن .

ومن المواضيع التي يحتاجها هذا البحث ؛ معرفة النفس أحوالاً وتفصيلاً ، لا دراسة عامة كما هو مشاهد ، بل حوت من الأحوال والصفات أكثر من ثمانين حالة ما بين حياة ومرض وموت ، ومدى ارتباط الحالات بالقلب ، مع التركيز على التفريق بين أمراض النفوس وأمراض القلوب . فدراسة فردية يمكن أن تلم بالموضوع أمر من الصعوبة بمكان ، فأشد الناس حماقة أقواهم اعتقاداً في فضل نفسه ، وأثبت الناس عقلاً أشدهم اتهاماً لنفسه . نسأل الله جلّت عظمته أن يلهمنا الصواب في القول والعمل .

ومما نختم به ؛ قول الحبيب المصطفى ﷺ : «كلمتان
حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان :
سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم»^(١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) صحيح البخاري : كتاب التوحيد : باب قول الله تعالى ﴿ونضع الموازين
بالقسط﴾ ، (١٩٩/٩) .

(الفهارسُ العامَّة)

فهرس الأحاديث

حرف الألف

- ٢١٧ ألفقر تخافون؟ والذي نفسي بيده .
- ٥٠٣ أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة .
- ١١٩ أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً .
- ٤٩١ اتقوا فراسة المؤمن .
- ٢٥٧ اثنتان في الناس هما بهم كفر .
- ٥٠٣ احتبس عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداة .
- ٤٩٩ أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس .
- ١٦٧ أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كههيئة العلقة .
- ٧٨ أخبروني عن شجرة مثلهما مثل المؤمن .
- ٣٧٥ ادعو الله وأنتم موقنون بالإجابة .
- ٣٧٠ ، ٢٠٤ ، ٣٢ إذا أذنب العبد نكت في قلبه .
- ٥٠٠ إذا قضى الله في السماء .
- ٢٤٨ أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً .
- ٤٧٢ ، ٢٩٧ أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً .
- ٣٨٥ أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي .

٤١٩ ، ٢٠٤ ، ١٤٦	ألا وإن في الجسد مضغة .
٣٣٩	اللهم يا مقلب القلوب .
٩	اللهم رب جبرائيل وميكائيل .
٥٨	القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض .
٩٦	الحياء كله خير .
١٠٢	اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع .
١٠٦	اللهم لك ركعت وبك آمنت ولك أسلمت .
١٢١	اللهم اجعلني لك شاكراً لك ذاكراً .
١٦٠	اللهم إني أسألك رحمة من عندك .
١٧٤	الأرواح جنود مجندة .
٢٢٥	الإيمان يمان ها هنا .
١٧٥	المؤمن مؤلف ولا خير في من لا يألف .
١٨٣	الحياء لا يأتي إلا بخير .
١٨٧	ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا .
٢٤٠	العز إزاره والكبرياء رداؤه .
٤٥١	اللهم علمه الكتاب .
٤٥٢	اللهم علمه الحكمة .
٤٧٠	الرؤيا من الله والحلم من الشيطان .
٤٧٢	الرؤيا ثلاثة فالرؤيا الصالحة بشرى .
٤٧٣	الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح .
٤٧٣	الرؤيا الصالحة جزء من سبعين جزءاً من النبوة .
٤٨٢	البر ما اطمأنت إليه النفس وسكن إليه القلب .
٤٨٢	البر حسن الخلق والإثم ما حاك في نفسك .
٣١٥ ، ١٨٩	القلوب أربعة .
٤٥٢	القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض .
٥٧	إن الله مثبت قلبك وهاد فؤادك .

١١٨	إن الله ليلين قلوب رجال فيه .
١١٩	إن من المؤمنين من يلين لي قلبه .
١٤٥	أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل .
١٧٥	إن للمنافقين علامات يعرفون بها .
٢٥١	الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال
٤٤٩	إن عبداً خيَّره الله بين أن يؤتاه من زهرة الدنيا .
٥٠٠ ، ٤٩٦	إن روح القدس نفث في روعي .
٣٤٠	إن قلوب بني آدم بين أصبعين .
٣٤٩	إن العبد إذا أخطأ خطيئة .
٤١١	إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل .
٨٥	إني خلقت عبادي حنفاء .
١٤٣	إنه ليغان على قلبي .
٦٦	أول ما خلق الله العقل .
٤٩٧ ، ٤٧٥	أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم الرؤيا .
١٠٧	أول ما تفقدون من دينكم الخشوع .
٢٦٧	إياكم ومحقرات الذنوب .

حرف الباء

٢٥٥	بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم .
٤٧٥	بينما أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه .
٥٠٢ ، ٣٨٨	بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء .
٣٩١	بعث أبو موسى الأشعري .

حرف التاء

٣٢١ ، ٢٠٥ ، ٣٣	تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً .
٢٩٧	تكون أمراء يلين لهم الجلود .
١٨٠	تلك السكينة تنزلت على القرآن .

حرف التاء

٢٢٠ ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم .

حرف الجيم

٤٧١ جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

٥٧ جاء أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوباً .

١٦٨ جعل الله الرحمة في مائة جزء .

حرف الراء

٤٧٣ رؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة .

حرف السين

١٣٠ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى .

٤٤٤ سبعة يظلهم الله تحت ظل عرشه .

حرف الشين

٤٤٨ الشهداء خمسة .

حرف الفاء

٤٤٨ فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى منه .

٤٩٤ فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

٣٩٩ فأخذت النبي صلى الله عليه وسلم حمية فدعا بركانة .

٣٩٧ فرفعت رأسي فإذا هو على العرش في الهواء .

حرف القاف

٤٨٢ قد كان في الأمم قبلكم محدثون .

٤٨٨ قد كان في من مضى من الأمم .

حرف الكاف

٤٧٧ كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى الصبح أقبل عليهم بوجهه .

٢٨١	كن ورعاً تكن أعبد الناس .
٨٣	كل مولود يولد على الفطرة .
٢٣٢	كل أمي يدخلون الجنة إلا من أبي .
٥١٦	كلمتان حبيبتان إلى الرحمن .

حرف اللام

٣٩٤ ، ٢٨١	لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله .
٢٤٠ ، ٢٣٥	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من كبر .
١٨٢	لتكن عليكم السكينة .
٤٨٨ ، ٤٧٨	لم يبق من النبوة إلا المبشرات .
٣٧٦ ، ٣٦٥	لينتهين أقوام عن ودعهم الجمعات .
١٦٧	لا تنزع الرحمة إلا من شقي .
٤٨٥	لقد كان فيمن كان قبلكم .

حرف الميم

٦٢	ما رأيت من ناقصات عقل ودين .
٢١٨	ما من آدمي إلا وقلبه بين أصبعين .
٢٨١	من قام ليلتي العيد محتسباً .
٣٦٢	من ترك ثلاث جمع تهاوناً .
٣٧٥	من قرأ عشر آيات في ليلة .
٤٣٩	من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب .

حرف الهاء

١٠٧	هذا أوان يختلس العلم من الناس .
١٦٦	هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده .

حرف الواو

٥٠١	وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني .
-----	-----------------------------------

- ٩٨ وأسألك قلباً سليماً .
١٢٨ وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم .
١٨١ وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله .
٢٤٧ ، ٢٠٤ وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق .
٣١٦ ولن يقبضه الله حتى يقيم به .

حرف الياء

- ٦٥ يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار .
٢١٨ ، ١٦٠ ، ٤٤ يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك .
٤٠٣ ، ٢٦٢ يوشك الأمم أن تداعى عليكم .
٤٣٨ يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه .
٣٣٢ يا مصرف القلوب .
٥٠٤ يا محمد! قلت : لبيك رب .

فهرس المصادر والمراجع

- ١ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين : السيد محمد الحسيني الزبيدي . مطبعة دار الفكر .
- ٢ - الإحكام في أصول الأحكام : سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي الأمدى . طبعة عام ١٤٠٠ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٣ - إحياء علوم الدين : أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي . الطبعة الأولى ١٣٩٥ هـ - لجنة نشر الثقافة الإسلامية .
- ٤ - الأربعين الطبية - المستخرجة من سنن ابن ماجه : شرحها : عبد اللطيف البغدادي ، عمل : الحافظ محمد يوسف البرزالي ، تحقيق : عبد الله كنون . مطبعة فضالة المحمدية - المغرب .
- ٥ - إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : أبو السعود بن محمد العمادي الحنفي ، تحقيق : عبد القادر أحمد عطا . طبعة عام ١٤٠١ هـ - مكتبة الرياض الحديثة .
- ٦ - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن : الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي . الطبعة الثانية .
- ٧ - إعراب القرآن : أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل النحاس . تحقيق : الدكتور زهير غازي زاهد . الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - عالم

- الكتب - بيروت .
- ٨ - الأعلام - قاموس تراجم : خير الدين الزركلي . الطبعة السادسة ١٩٨٤ م - دار العلم للملايين - بيروت .
- ٩ - إغاثة اللفهان من مصائد الشيطان : الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية . تحقيق : محمد حامد الفقي . دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١٠ - الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرظي . دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ١١ - إنباه الرواة على أنباه النحاة : جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي . تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . الطبعة الأولى : ١٣٦٩ هـ - دار الكتب المصرية - القاهرة .
- ١٢ - إيضاح المكنون في الذيل عن كشف الظنون : إسماعيل باشا البغدادي . طبعة عام ١٤٠٢ هـ - دار الفكر .
- ١٣ - بدائع الفوائد : أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الدمشقي ابن قيم الجوزية . دار الفكر العربي - بيروت .
- ١٤ - البداية والنهاية : أبو الفداء الحافظ ابن كثير . طبعة عام ١٣٨٩ هـ - دار الفكر - بيروت .
- ١٥ - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي . تحقيق : محمد علي النجار . المكتبة العلمية - بيروت .
- ١٦ - بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية أهل الإلحاد : شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية . الطبعة الأولى عام ١٤٠٨ هـ - مكتبة العلوم والحكم .
- ١٧ - بيان الفروق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب : أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي . تحقيق : الدكتور نقولا هير . مكتبة الكليات الأزهرية - الأزهر - القاهرة .

- ١٨ - تأويل مشكل القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . شرحه ونشره : السيد أحمد صقر . الطبعة الثانية : ١٣٩٣ هـ - دار التراث - القاهرة .
- ١٩ - تاج العروس من جواهر القاموس : محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي . دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع .
- ٢٠ - التبيان في أقسام القرآن : شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية . تصحيح وتعليق : محمد حامد الفقي . دار المعرفة - بيروت .
- ٢١ - التعريفات : الشريف علي بن محمد علي الجرجاني . الطبعة الأولى : ١٤٠٣ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- ٢٢ - تعطير الأنام في تعبير المنام : عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي . دار الفكر - بيروت .
- ٢٣ - تفسير البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي . الطبعة الثانية : ١٤٠٣ هـ - دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت .
- ٢٤ - تفسير الجلالين : جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي . بتعليق : الشيخ علي محمد الضباع . طبعة عام : ١٣٧٠ هـ - مطبعة عبد الحميد أحمد حنفي .
- ٢٥ - تفسير روح البيان : الشيخ إسماعيل حقي البرسوي . دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان .
- ٢٦ - تفسير غريب القرآن : أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة . تحقيق : السيد أحمد صقر . طبعة عام ١٣٩٨ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢٧ - تفسير القاسمي - المسمى : محاسن التأويل : محمد جمال الدين القاسمي . الطبعة الثانية : ١٣٩٨ هـ - دار الفكر - بيروت .
- ٢٨ - تفسير القرآن الحكيم : السيد محمد رشيد رضا . الطبعة الثانية :

- ١٣٩٨ هـ - دار المعرفة - بيروت .
- ٢٩ - تفسير القرآن العظيم : إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي . المكتبة التجارية الكبرى - مصر .
- ٣٠ - التفسير القيم : للإمام ابن القيم . جمعه : محمد أوس الندوي . حققه : محمد حامد الفقي . لجنة التراث العربي - بيروت .
- ٣١ - التفسير الكبير : الإمام محمد بن عمر الفخر الرازي . الطبعة الثالثة - دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٣٢ - تفسير النهر الماد من البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي . الطبعة الثانية : ١٤٠٣ هـ - دار الفكر للطباعة والنشر . بهامش البحر المحيط .
- ٣٣ - تفصيل آيات القرآن الحكيم : جول لابوم ، ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي . دار الكتاب العربي ، بيروت .
- ٣٤ - تلخيص المستدرک : شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي . طبعة عام : ١٣٩٨ هـ - دار الفكر - بيروت . بهامش المستدرک .
- ٣٥ - تهذيب التهذيب : شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . الطبعة الأولى : ١٣٢٥ هـ - حيدر أباد - الهند .
- ٣٦ - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي . تحقيق : محمد زهري النجاري . طبعة عام ١٤٠٤ هـ - الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد - الرياض .
- ٣٧ - الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرظي . طبعة أوفست - دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٣٨ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن : أبو جعفر محمد بن جرير الطبري . دار الفكر .
- ٣٩ - الجامع المسند الصحيح - المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري

- الجعفي . الطبعة السلطانية عام ١٣١١ هـ عن النسخة اليونانية - دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٤٠ - جامع الأصول في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري . تحقيق : عبد القادر الأرناؤوط . الطبعة الثانية : ١٤٠٣ هـ - دار الفكر - بيروت .
- ٤١ - جسم الإنسان : كتاب المعرفة - علوم . إنتاج عام ١٩٨٧ م - شركة اتحاد النشر والتسويق - بيروت .
- ٤٢ - الحكمة في مخلوقات الله : الإمام أبو حامد الغزالي الطوسي . تحقيق الشيخ : محمد رشيد رضا القباني . الطبعة الثانية : ١٤٠٦ هـ - دار إحياء العلوم - بيروت .
- ٤٣ - الجواهر في تفسير القرآن الكريم ؛ المشتمل على عجائب بدائع المكونات وغرائب الآيات الباهرات . الشيخ : طنطاوي جوهرى .
- ٤٤ - حياة الصحابة : محمد يوسف الكاندهلوي . الطبعة الأولى : عام ١٣٩٤ هـ ، دار الفكر .
- ٤٥ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : عبد القادر بن عمر البغدادي . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . الطبعة الثانية : ١٩٧٩ م ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- ٤٦ - خلق الإنسان بين الطب والقرآن : الدكتور : محمد علي البار . الطبعة الثالثة : ١٤٠٢ هـ ، الدار السعودية للنشر والتوزيع .
- ٤٧ - دائرة معارف القرن العشرين : محمد فريد وجدي . دار الفكر - بيروت .
- ٤٨ - دائرة المعارف : بطرس البستاني . دار المعرفة - بيروت .
- ٤٩ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور : الإمام عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي . الطبعة الأولى : عام ١٤٠٣ هـ - دار الفكر - بيروت .
- ٥٠ - الدر اللقيط من البحر المحيط : تاج الدين الحنفي النحوي . الطبعة الثانية : عام ١٤٠٠ هـ - دار الفكر - بيروت . بهامش البحر المحيط .
- ٥١ - الداء والدواء ؛ أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي : ابن قيم

- الجوزية . طبعة عام ١٤٠٣ هـ - دار المدني - جدة .
- ٥٢ - دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب : الشيخ محمد الأمين الجكني الشنقيطي . الطبعة الثانية : في آخر المجلد التاسع من أضواء البيان .
- ٥٣ - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة : أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي . توثيق وتعليق : الدكتور عبد المعطي قلعجي . الطبعة الأولى : ١٤٠٥ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٥٤ - ذخائر الموارد في الدلالة على مواضع الحديث : الشيخ عبد الغني النابلسي . انتشارات إسماعيليان - تهران - ناصر خسرو - باشار مجيدي . توزيع : دار الباز للنشر والتوزيع .
- ٥٥ - الأذكياء : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي . المكتبة التجارية - بيروت .
- ٥٦ - ذيل الأضداد : الحسن بن محمد الصاغانى الحنفي . نشر الدكتور : أوغست هفتر - في آخر كتاب الأضداد . دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٥٧ - رسالة المسترشدين : أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسي البصري . تحقيق : عبد الفتاح أبو غدة . الطبعة الثانية - مكتب المصنوعات الإسلامية - حلب .
- ٥٨ - الرسالة القشيرية : الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري . تحقيق الدكتور : عبد الحلیم محمود . الطبعة الأولى : ١٣٨٥ هـ - مطبعة دار التأليف - مصر .
- ٥٩ - الروح ؛ في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء : شمس الدين أبو عبد الله ابن قيم الجوزية . الطبعة الثالثة ١٣٨٦ هـ - مطبوعات محمد علي صبيح - الأزهر - مصر .
- ٦٠ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي . طبعة : إدارة الطباعة المنيرية . دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان .

- ٦١- الروض الأنف : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي .
طبعة عام ١٣٩٨ هـ - دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت .
- ٦٢- زاد المسير في علم التفسير : الإمام أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن
ابن علي الجوزي القرشي البغدادي . المكتب الإسلامي .
- ٦٣- زهر الربى على المجتبي : جلال الدين السيوطي . بهامش سنن
النسائي .
- ٦٤- سنن الدارمي : أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي . دار إحياء
السنة النبوية .
- ٦٥- سنن أبي داود : سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي . تعليق : محمد
محيي الدين عبد الحميد . دار الفكر للطباعة والنشر .
- ٦٦- سنن النسائي : أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي . المكتبة
العلمية - بيروت .
- ٦٧- سنن الترمذي : أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي . تحقيق
وتعليق : إبراهيم عطوة عوض . دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ٦٨- سنن ابن ماجه : الحافظ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه .
تحقيق وترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٦٩- سير أعلام النبلاء : شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي .
الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت .
- ٧٠- السيرة النبوية (سيرة ابن هشام) : أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب
الحميري . طبعة عام ١٣٥٥ هـ - مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر .
- ٧١- شذرات الذهب في أخبار من ذهب : عبد الحي ابن العماد الحنبلي . دار
الفكر - بيروت .
- ٧٢- شرح السنة : الإمام الحسين بن مسعود البغوي . تحقيق : شعيب
الأرنؤوط . الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ - المكتب الإسلامي - بيروت .
- ٧٣- شرح العقيدة الطحاوية : الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة
الأزدي الطحاوي . تحقيق : جماعة من العلماء ، وتخريج : ناصر الدين

- الألباني . الطبعة السادسة : ١٤٠٠ هـ - المكتب الإسلامي - بيروت .
- ٧٤ - صفة النفاق و ذم المنافقين : أبو بكر الفريابي . تحقيق : محمد عبد القادر عطا . الطبعة الأولى عام ١٤٠٥ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٧٥ - صحيح مسلم بشرح النووي : محي الدين أبوزكريا يحيى بن شرف الشافعي النووي . الطبعة الثانية ١٣٩٢ هـ - المطبعة المصرية .
- ٧٦ - صحيح مسلم : الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري . ترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي .
- ٧٧ - صفة الصفوة : جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي . تحقيق : محمود فاخوري . الطبعة الرابعة : ١٤٠٦ هـ - دار المعرفة - لبنان .
- ٧٨ - الصواعق المرسله على الجهمية والمعتلة : شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية . تحقيق الدكتور : علي بن محمد الدخيل الله . الطبعة الأولى : ١٤٠٨ هـ - دار العاصمة - الرياض .
- ٧٩ - الأضداد : عبد الملك بن قريظ الباهلي الأصمعي .
- ٨٠ - الأضداد : سهل بن محمد بن عثمان السجستاني .
- ٨١ - الأضداد : يعقوب بن إسحاق ابن السكيت . الكتب الثلاثة نشرها الدكتور أوغست هفتر في مجلد واحد . دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٨٢ - طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين عبد الوهاب ابن تقي الدين السبكي . الطبعة الثانية - دار المعرفة - بيروت .
- ٨٣ - الطبقات الكبرى : أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع البصري . دار صادر - بيروت .
- ٨٤ - طريق الهجرتين و باب السعادتين : شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية . الطبعة الأولى ١٤٠٢ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٨٥ - العقل وفهم القرآن : الحارث بن أسد المحاسبي . تقديم د. حسين الفتولي . الطبعة الثالثة : ١٤٠٢ هـ - دار الفكر للطباعة والنشر .
- ٨٦ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري : الإمام بدر الدين أبو محمد

- محمود العيني . نشر إدارة الطباعة المنيرية . تصوير : دار إحياء التراث العربي .
- ٨٧- عون المعبود شرح سنن أبي داود : محمد شمس الحق العظيم أبادي . الطبعة الثالثة ١٣٩٩ هـ - دار الفكر للطباعة والنشر .
- ٨٨- غرائب القرآن ورغائب الفرقان : نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري . تحقيق : إبراهيم عطوة عوض . مطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر .
- ٨٩- غريب الحديث : الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي . تحقيق : د. سليمان بن إبراهيم العايد . الطبعة الأولى - مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي . دار المدني للطباعة - جدة .
- ٩٠- فتح الباري شرح صحيح البخاري : أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . ترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي . دار المعرفة - بيروت .
- ٩١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية وعلم التفسير : محمد بن علي بن محمد الشوكاني . طبعة عام ١٤٠١ هـ - دار الفكر .
- ٩٢- الفراسة دليلك إلى معرفة أخلاق الناس : محمد بن عمر بن الحسن البكري فخر الدين الرازي . تحقيق : مصطفى عاشور . مكتبة القرآن - القاهرة .
- ٩٣- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان : تقي الدين أحمد ابن تيمية . دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٩٤- الفروق اللغوية : الإمام أبو هلال العسكري . تحقيق : حسام الدين القدسي . الطبعة ١٤٠١ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٩٥- فقه اللغة وسحر البلاغة وسر العربية : الإمام أبو منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري . طبعة دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٩٦- الفقيه والمتفقه : أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي . الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٩٧- فهرس البداية والنهاية ونهاية البداية والنهاية : محمد سليمان الأشقر .

- الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ - دار الأرقم - الكويت .
- ٩٨ - الفوائد : شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية . مكتبة النهضة العلمية - مكة المكرمة .
- ٩٩ - في ظلال القرآن : الشهيد سيد قطب . الطبعة السادسة : ١٣٩٨ هـ - دار الشروق .
- ١٠٠ - القاموس المحيط : مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي . تحقيق :- مكتب تحقيق التراث . الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ - مؤسسة الرسالة .
- ١٠١ - قاموس القرآن - أو - إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم : الحسين بن محمد الدامغاني . تحقيق : عبد العزيز السيد الأهدل . الطبعة الثانية ١٩٧٧ م - دار العلم للملايين - بيروت .
- ١٠٢ - قاموس القلب الطيبي : محمد رفعت . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - دار مكتبة الهلال - بيروت .
- ١٠٣ - القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته : محمد أحمد جمال . رابطة العالم الإسلامي - كتاب دعوة الحق عدد (٨) .
- ١٠٤ - القضاء والقدر في الإسلام : د. فاروق أحمد الدسوقي . الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ - المكتب الإسلامي - بيروت .
- ١٠٥ - القلب في الصحة والمرض : الدكتور سعيد الصايغ . الطبعة الأولى ١٩٨٣ م - دار العلم للملايين - بيروت .
- ١٠٦ - الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف : الإمام أحمد بن حجر العسقلاني . بذييل الكشاف .
- ١٠٧ - كتاب المعرفة - جسم الإنسان : طبعة عام ١٩٨٧ م - شركة إنماء النشر والتسويق - بيروت .
- ١٠٨ - الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي . دار المعرفة - بيروت .

- ١٠٩ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون : مصطفى بن عبد الله الحنفي المعروف بحاجي خليفة . طبعة عام ١٤٠٢ هـ - دار الفكر .
- ١١٠ - كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ في اللغة : أبو إسحاق إبراهيم بن إسماعيل ابن الأجدابي . ملحق بكتاب - فقه اللغة للثعالبي . دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١١١ - كفاية الطالب اللبيب في خصائص الحبيب صلى الله عليه وسلم ؛ المعروف بكتاب : الخصائص الكبرى : أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي . دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١١٢ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال : علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي البرهان فوري . الطبعة الخامسة ١٤٠٥ هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت .
- ١١٣ - لسان العرب : الإمام أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الأفريقي المصري .
- ١١٤ - مجموع فتاوى شيخ الإسلام : أحمد بن عبد الحلیم ابن تيمية . جمع وترتيب : عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي . الرئاسة العامة لشؤون الحرمين الشريفين .
- ١١٥ - مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : أبو عبد الرحمن محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية . دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١١٦ - المستدرک علی الصحیحین فی الحدیث : أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري . طبعة عام ١٣٩٨ هـ - دار الفكر - بيروت .
- ١١٧ - المسند : الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل . طبعة عام ١٣١٣ هـ - المطبعة الميمنية بالقاهرة - بمصر .
- ١١٨ - مسند الشهاب : القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي . تحقيق : حمدي عبد المجيد السلفي . الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت .

- ١١٩ - المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي : أحمد بن محمد بن المقري الفيومي . المكتبة العلمية - بيروت .
- ١٢٠ - معالم التنزيل في التفسير والتأويل : أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي . طبعة عام ١٤٠٥ هـ - دار الفكر - بيروت .
- ١٢١ - معترك الأقران في إعجاز القرآن : جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي . تصحيح : أحمد شمس الدين . الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ١٢٢ - المعجم الصوفي : د. سعاد الحكيم . الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ - دندرة للطباعة والنشر - بيروت .
- ١٢٣ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي . طبعة عام ١٣٧٨ هـ ، مطابع الشعب .
- ١٢٤ - معجم الأدوات والضمائر في القرآن الكريم : تكملة المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : د. إسماعيل أحمد عماليه ، د. عبد الحميد مصطفى السيد . الطبعة الأولى عام ١٤٠٧ هـ - مؤسسة الرسالة - بيروت .
- ١٢٥ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي : نشر الدكتور أ. ي. ونسك . عام ١٩٣٦ م - مطبعة بريل - ليدن .
- ١٢٦ - معجم مقاييس اللغة : أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق : عبد السلام محمد هارون . الطبعة عام ١٣٩٩ هـ - دار الفكر .
- ١٢٧ - المغرب في ترتيب المعرب : الإمام أبو الفتح ناصر بن عبد السيد بن علي المطرزي الخوارزمي . دار الكتاب العربي - بيروت .
- ١٢٨ - المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار : زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي . بهامش إحياء علوم الدين .
- ١٢٩ - المفردات في غريب الحديث : أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني . تحقيق : محمد سيد كيلاني . دار المعرفة - بيروت .

- ١٣٠ - منتخب كنز العمال : علاء الدين علي بن حسام الدين الهندي . طبعة عام ١٣١٣ هـ - المطبعة الميمنية - مصر .
- ١٣١ - منتخب الكلام في تفسير الأحلام : محمد بن سيرين البصري الأنصاري . بهامش تعطير الأنام . دار الفكر - بيروت .
- ١٣٢ - منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز : محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي . الطبعة الثانية ١٤٠٠ هـ .
- ١٣٣ - الموافقات في أصول الشريعة : إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي أبو إسحاق الشاطبي . ترقيم الشيخ عبد الله دراز . المكتبة التجارية - مصر .
- ١٣٤ - الموطأ : الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبغي : تصحيح وترقيم : محمد فؤاد عبد الباقي . دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- ١٣٥ - الموسوعة العلمية الحديثة : المجلد الخامس - الجسم البشري . ميتشل ولسن . عام ١٩٨٥ م - الأهلية للنشر والتوزيع .
- ١٣٦ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة : جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي . طبعة ١٣٨٣ هـ - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر .
- ١٣٧ - نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر : جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي . تحقيق : محمد عبد الكريم كاظم الراضي . الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ - مؤسسة الرسالة .
- ١٣٨ - النهاية في غريب الحديث والأثر : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير) . تحقيق : طاهر أحمد الزواوي ، محمود الطناحي . دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت .
- ١٣٩ - هدية العارفين بأسماء المؤلفين وآثار المصنفين : إسماعيل باشا البغدادي . الطبعة ١٤٠٢ هـ - دار الفكر - بيروت .
- ١٤٠ - هدي الساري مقدمة فتح الباري : أحمد بن علي بن حجر

العسقلاني . تخريج : محب الدين الخطيب . دار المعارف للطباعة -
بيروت .

١٤١ - والله الأسماء الحسنى : جمع وترتيب : أحمد عبد الجواد . دار الكتب
العلمية - بيروت .

فهرس الموضوعات

٧	١ - الإهداء
٩	٢ - المقدمة
١٩	٣ - التصدير
٣٩	٤ - الباب الأول: القلب والألفاظ المقاربة له
٤١	الفصل الأول: تعريف القلب
٤٣	المبحث الأول: معاني القلب في اللغة العربية
٤٧	المبحث الثاني: معاني القلب في القرآن الكريم
٤٩	الفصل الثاني: الألفاظ المقاربة للقلب
٥١	المبحث الأول: الفؤاد وعلاقته بالقلب
٥٩	المبحث الثاني: اللب ومعانيه في اللغة والوحي
٦٣	المبحث الثالث: العقل ومعانيه في اللغة والوحي
٦٩	المبحث الرابع: الصدر ومعانيه في اللغة والوحي
٧٩	٥ - الباب الثاني: مراحل حياة القلوب
٨١	الفصل الأول: الفطرة والقلب
٨٣	المبحث الأول: الفطرة وعلاقتها بالقلب
٨٥	المبحث الثاني: تعرض الفطرة للانحراف وأثر ذلك على القلب

٨٩	الفصل الثاني : القلوب الحية ودرجات الإيمان
٩١	المبحث الأول : القلب مقر الإيمان
٩٧	المبحث الثاني : القلب السليم
١٠١	المبحث الثالث : خشوع القلب
١٠٩	المبحث الرابع : تقوى القلوب
١١٧	المبحث الخامس : القلب واللين
١٢١	المبحث السادس : القلب المخبت
١٢٧	المبحث السابع : وجل القلب
١٣٣	المبحث الثامن : القلب المنيب
١٣٧	المبحث التاسع : القلب المطمئن
١٤٣	المبحث العاشر : الغين على القلب
١٤٥	المبحث الحادي عشر : توضيح مكان القلب المعنوي من الإنسان
١٤٩	الفصل الثالث : أفعال الله في القلوب
١٥١	المبحث الأول : طهارة القلب
١٥٣	المبحث الثاني : تزيين الإيمان في قلب العبد وكتبه
١٥٧	المبحث الثالث : القلب المهتد
١٦٣	المبحث الرابع : القلب محل الرأفة والرحمة
١٧١	المبحث الخامس : تأليف الله للقلوب
١٧٧	المبحث السادس : السكينة
١٨٥	المبحث السابع : ربط القلوب
١٩١	المبحث الثامن : امتحان الله للقلوب وتمحيصها
١٩٥	٦ - الباب الثالث : القلب المريض
١٩٧	الفصل الأول : أسباب أمراض القلوب
١٩٩	المبحث الأول : تعريف المرض
٢٠٣	المبحث الثاني : أسباب ضعف القلب وما يترتب على ذلك
٢٠٧	الفصل الثاني : أمراض القلوب ودركاتها

٢٠٩	المبحث الأول: آثام القلب
٢١٣	المبحث الثاني: صغور القلب
٢١٥	المبحث الثالث: زيغ القلب
٢١٩	المبحث الرابع: الغل والقلب
٢٢٣	المبحث الخامس: القلب الغليظ
٢٢٧	المبحث السادس: غيظ القلوب
٢٣١	المبحث السابع: إياء القلب
٢٣٥	المبحث الثامن: القلب والكبر
٢٤٥	المبحث التاسع: نفاق القلب
٢٥٥	المبحث العاشر: الكفر والقلب
٢٥٩	المبحث الحادي عشر: أثر الذنوب على القلب
٢٦٣	٧ - الباب الرابع: مراحل موت القلب
٢٦٥	الفصل الأول: معنى الموت والألفاظ المقاربة له
٢٦٧	المبحث الأول: أثر الذنوب في موت القلب
٢٦٩	المبحث الثاني: تعريف الموت
٢٧٧	الفصل الثاني: خصائص القلوب الميتة
٢٧٩	المبحث الأول: متى يموت القلب
٢٨٣	المبحث الثاني: لهُو القلب
٢٨٧	المبحث الثالث: القلب المغمور
٢٩١	المبحث الرابع: القلب المنكر
٢٩٥	المبحث الخامس: اشمئزاز القلب
٢٩٩	المبحث السادس: إكنان القلب
٣٠٥	المبحث السابع: القلب المرتاب
٣١١	المبحث الثامن: تقطيع القلب
٣١٥	المبحث التاسع: أغلفة القلب
٣٢١	المبحث العاشر: إشراب القلب

المبحث الحادي عشر: الإسلاك في القلب	٣٢٧
المبحث الثاني عشر: صرف القلب	٣٣١
المبحث الثالث عشر: إحالة الله بين العبد وقلبه	٣٣٥
المبحث الرابع عشر: تقليب القلوب والأفئدة	٣٣٩
المبحث الخامس عشر: القلب الأعمى	٣٤٣
المبحث السادس عشر: الران على القلب	٣٤٩
المبحث السابع عشر: القفل على القلب	٣٥٥
المبحث الثامن عشر: الطبع على القلب	٣٥٩
المبحث التاسع عشر: الختم على القلب	٣٦٥
المبحث العشرون: القلب الغافل	٣٧٣
٨ - الباب الخامس: القلب والمشاعر والارادة	٣٧٩
الفصل الأول: المشاعر الداخلية في الإنسان	٣٨١
المبحث الأول: رعب القلب	٣٨٣
المبحث الثاني: القسوة	٣٩١
المبحث الثالث: القلب الواجف	٣٩٧
المبحث الرابع: القلب مقر الحمية	٣٩٩
المبحث الخامس: القلوب وتشتيتها	٤٠١
المبحث السادس: قذف الوهن في القلب	٤٠٣
الفصل الثاني: الكسب وأثره في القلب	٤٠٥
المبحث الأول: أنواع الكسب	٤٠٧
المبحث الثاني: ضرب القلوب	٤١١
المبحث الثالث: تشابه القلوب	٤١٣
٩ - الباب السادس: القلب والمعرفة	٤١٥
الفصل الأول: مكانة القلب من الأعضاء وارتباط التعقل به	٤١٧
المبحث الأول: تمهيد عن مقرّ العقل	٤١٩
المبحث الثاني: أهمية القلب	٤٢٣

٤٢٥	المبحث الثالث: التعقل عمل من أعمال القلب
٤٢٧	المبحث الرابع: تعريف الفهم
٤٣٣	المبحث الخامس: النظر الصحيح أول مراتب المعرفة
٤٣٧	المبحث السادس: تدرّج رقي المعرفة
٤٤٣	المبحث السابع: رعاية أحوال القلب أهم من رعاية غيره
٤٤٧	المبحث الثامن: مكانة الخشية
٤٥٧	المبحث التاسع: مكانة السمع وتعريفه
٤٥٩	المبحث العاشر: النظر وأقسامه
٤٦٧	الفصل الثاني: المعارف المباشرة للقلب
٤٦٩	المبحث الأول: الرؤيا
٤٧٩	المبحث الثاني: الخاطر والإلهام والتحديث والفراسة
٤٩٣	المبحث الثالث: نزول كلام الله على أنبيائه
٥٠٩	١٠ - الخاتمة
٥١٧	١١ - فهرس الأحاديث
٥٢٥	١٢ - فهرس المصادر والمراجع
٥٤١	١٣ - فهرس الموضوعات